قُبلة الحياة

رواية

فؤاد قنديل

الكتاب : قبلـــة الحيــــاة

روايـــــة

المؤلــف : فــؤاد قنديــل

الطبعة الأولى

القاصد للطباعة والنشر

٣٢٩٠١١٧ / ٠٤٠—٤٣٧٥١١٢ / ٠١٢

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٤/٢١١٩٩

الإخراج الفنى : سمير درويش

قُبلة الحياة

"مهما كان الماضي عريقاً وسماؤه عاليـــة وتأثيره بالغاً ورجاله أفذاذاً، فأنا ــ أردت أم لم أرد ــ لابد أن أنظر أمــــامي، وأغــذ الســير صوب المستقبل المجهول"

ف.ق

(١)

الأفق بديع والمشهد رائع.. السـماء لا نهايـة لـها.. صافيـة وحنون.. البحر ممتد الزرقة يقترب منها، وتقترب منه كلما ابتعـدا عن رصيف الميناء، والأفق بينهما يحاول أن يمتد إلى بعد يتعـذر بلوغه.

نسمة باردة ولذيذة، تصفعني برقة.. صباح ملهم وجميـل مثـل أنثى عاشقة.. مهما كان الليل ساحراً فلا يقارن بطزاجـة الصبـاح ونضارته.. دفعت نفسي للنزول بعد أن صحوت مبكراً على غـير العادة.. عيناي مفتوحتان كأني استيقظت منذ ساعة.. جسمي قفـز رغماً عني، طارحاً الغطاء، متخلصاً من دفء الفراش، من يـأتي إلى الإسكندرية لا يتعين أن يقاوم قدرتـها علـى إيقاظـه وشـحذ غرائزه.

وصلت متأخراً إلى الفندق المتواضع، العـادة أحيانـاً تمسـك بخناقي مع أني متنبه لسحرها الناعم وتأثيرها الجواني، مـع ذلـك لجأت إلى نفس الفندق الذي ألجأ إليه في كل مرة آتـي فيـها إلـى الإسكندرية، لا أتأخر عنها أكثر من عامين.

اندفعت في عجلة إلى الخارج كأني علـى موعـد يوشـك أن يفوت.. الموعد ليس الآن.. في العاشرة يحين.. موعـدان.. الأول في العاشرة والثاني بعده بساعة.

ثلاث سفن كبيرة تتقدم نحو الميناء.. استيقظت الحركة.. نقـرت الحياة بأصابعها على الرصيف.. انفتحت الأبواب، وأطلت عيـون نصف نائمة لتنضم إلى عيون لم تعرف النوم منذ ساعات..

تطلعت لطيور النورس التي ترقص وتغني للصباح، وللأسـماك، أحسست بأني لا أمتلك القدرات الكافية لأعانق الكـون.. نظراتـي الطائرة هنا وهناك عاجزة عن احتواء كل ما في الأفق وما علـى

الرصيف وفي البحر وفوق السفن.. تمسح العمارات والبيوت مسحاً خارجياً دون أن تغوص، أو تتذوق ما يكفي من طعوم وروائح وألوان الحياة العامرة بالأمل والشجن والصبر، ودون أن تمضي بعيداً وراء جنون الغرائز التي تدفع الكائنات للحركة والمتعة والارتطام.

الإنسان حقاً هو السيد، لكنه الآن أصبح يكتفي بالأزرار لكي يقرأ صفحات الحياة، وأقعده التليفزيون والكمبيوتر عن أن يركب ساقيه ويجري ويقبض ويلمس ويلتحم.. بسطت ذراعي إلى أقصاهما لأقيس مدى قدرتي على احتضان أكبر قدر من بهاء الصباح.. النسيم البارد يسبق الجميع إلى أحضاني.. بارد جداً كأنه يخرج من ثلاجة.. العالم جميعه يجب أن يستيقظ ويشاركني حالتي المستهامة.

وددت أن أظل هكذا باسطاً ذراعي، لكن البرد تعمد أن يتسلل من فتحة القميص إلى صدري وأن يخبط على جسمي وينفذ من تحت أجنحة الجاكت القطيفة البني الكالح، كأنه يدفعني إلى أن أتذكر قدراتي المحدودة على احتواء العالم.

ضممت ذراعي على الجاكت ودفست رقبتي في الياقة.. أحياناً أتصرف بغباء.. ليت موعدي مع ندى كان في الصباح الباكر.. الآن وقبل الآن.. ليت موعدي معها كان مع الندى، عله يوقظ فيها بعض الأماني الناعسة ويحرك المشاعر المختبئة تحت ركام الخوف.

شقني فجأة زئير إحدى السفن.. كان صوتها عالياً وغليظاً وممتداً، لكنها عجزت عن تنقيته من مسحة الحزن التي تشوبه.

السفن تتحرك على استحياء في اتجاه الرصيف على هيئة شبه منتظمة يفصل بين كل منها نحو كيلومتر.. الأولى كبيرة جداً.. هل هي كبيرة جداً فعلاً أم لأنها الأولى؟. رءوس كثيرة فوقها تطل مشتاقة إلى الأرض لمطالعة مشاهد وصور جديدة، العيون تمل قبل الروح.. وكلاهما لا يشبع من الجمال.. لماذا لا تزيد مساحات

الجمال في العالم؟ حتى تسعد الأرواح بالحياة.. افتح صفحات أي جريدة ستطلع عليك من خلال سطورها عشرات الشياطين بين ضخم أسطوري وصغير جدا وجميعها قادرة على بث السموم وخنق أي سعادة تفكر في البزوغ.. لكن هناك بشرا ــ من حكمتك يا الله ــ مستعدة للتضحية بأرواحها من أجل صد غزوات الشياطين وحماية العالم من بطشهم.. السفينة بثقة وحذر تتوجه نحو أحضان الرصيف.. تتبثق من تحتها مراكب صغيرة.. الموج يستقبلها بقسوة.. تتناثر على رقعة عريضة من البحر.. مبتعدة عن بدن السفينة العالي.. لنش مندفع يظهر فجأة.. يثير حوله أجنحة الماء اللامعة، تسقط عليها أشعة صفراء لشمس وليدة.. يفرح بها الماء فتنطلق نوافيره.. اللنش أوشك أن يرتطم بأحد الزوارق.. الزورق الصغير عليه عجوز يهتز بشدة.. يتقلب بشكل زائد.. الموج يوشك أن يركبه ويغرقه.. العجوز برغم خبرته حائر.. يرتج في ضعفه، يمسك بحبل ثم يتركه.. يعود إلى الضفة الصغيرة، يلفت نظري.. يستفز قلقي.. أتابعه.. وحيدا كان وضعيفا.. الزورق مثله شائخ.. يقترب قليلا من الرصيف متجها بالعرض، مبتعدا عن مجال حركة رجال البحرية.. يستشعر زوال الخطر، ينحني محاولا تسليك شبكته وإعدادها.. يتجلى ضعفه، يتأهب لإلقائها بعيدا على أمل أن تحتوي البحر جميعه.. تسقط إلى جوار الزورق.. يسقط العجوز داخله.. تحاول المياه العفية المتراقصة أن تسكن قليلاً تحته ربما تساعده على استقبال صباح طيب وكريم.

أقفز في مكاني وأبسط ذراعيّ.. أحرك ساقيْ بسرعة.. يتسلل الدفء إلى جسدي.. أستشعر نشاطاً غير عادي، ألوي صدري في عكس اتجاه جذعي عدة مرات.. تشغل بالي السفن الكبيرة والزوارق الصغيرة والأرضية المائية التي تتحكم وتهيمن على كل ما فيها.. السماء تراقب عن كثب.

أشعل سيجارة.. أعاود إطلاق نظراتي نحو الأفق.. تستقبل أذني حركة الميناء التي تزداد صخباً مع جر السلاسل وتحريك براميل

ورفع صناديق وحماس موتورات الأوناش.. أتنفس بعمق.. هـــواء البحر ينعشني، يصب في روعي الإحساس بالطاقة والأمل.. ثمـــة عذوبة تعانق الكون.. كم كنت أود أن تشاركني هـــذه اللحظـــات.. ندى.. لا أمل في هناء البشرية إلا في العمل والحب والكثـــير مـــن الصمت حتى تتاح الفرصة للتأمل والاستبطان.. بمطالعة مخــــزون الروح ومراجعته.. معانقة الطبيعة وغمر مشــــهدها فـــي أعمـــاق الوجدان. الإنسان أضعف مما نتصور وأخبث مما نتصور.

أهم بأن ألوح بيدي أنا أيضاً لركاب السـفينة الذيــن يلوحــون للعمال على الرصيف.. المسافة بينهما تضيق.. أنا وندى مثل هــذه السفينة وحافة الميناء.. أيهما أنا؟.

ندى يا بللورتي الجميلة، إذا كنت السفينة فـــاقتربي قليـــلاً مـــن الرصيف ولا تتركيني وحيداً كذلك العجوز الذي كاد يغرق بعـــد أن تعثر بشبكته منذ قليل.. فهل أنت الشبكة وأنا صـــاحب الـــزورق؟. أحاول أن أمسك الخيط الذي يربطني بالطبيعة باحثـــاً فيـــها عـــن مثيلي، آملاً أن أجد لديها المعادل الباعث على الأمل أو على الأقـل المحرض على المزيد من الفهم.. كيف نعيش ونحن محرومون مـــن كليهما.. الأمل والفهم؟. أقلهما يكفي لكي نكمل يومنا ونومنا حتـــى يشرق الصبح.

ليس أروع يا ندى من امرأة جميلة ونبيلة.. أفضل ماسات العـالم لا تداني تلك الأنثى الأسطورية، فكونيها واقتربي.. ليس ثمة شـــيء عسير على الله، إذا أراد أن يبقيني حياً وذا نفع. لدي إحساس عميق بأني من النوع الذي يمكن أن يفجر العالم لو غمرته التعاسة وافتقـد طويلاً للنشوة. لن أخدع نفسي والناس ولن أخدعك فأنا بقدر حبـــي للدنيا وصناعتها وتشكيلها وناسها، ففي أعماقي بذرة إجرام يمكـــن أن تتضخم إذا رواها الحرمان والفقد المتواصل.

فانقذي العالم يا ندى وانقذيني.. اقتربي يا سفينتي من الرصيـف الذي ينتظرك بشغف.. اقتربي أيتها الجميلة المتأبية.. وتعجلي قليـلاً فحركتك بطيئة، وحمولتك من الحب ضئيلة.. لا تنسي أنك تجريـــن

معك الصباح إليَّ.. تقدمي وحطي عالمك على صدري.. تحركي ولا تشعريني أنك متأهبة دائماً للعودة إلى البحر ومعانقة موجاته البعيدة.. كلانا خلق فوق الماء، وأنا لا أملك الإمساك بك، فاقتربي، وأودعي عندي هموم سفرك ونبضات قلبك الزائغة.

إن ارتباك المشاعر لا يعد في ظني مرضا، وهو ليس غير اهتزازات الفكر، والتوزع بين اهتمامات كثيرة وعدم تحديد الأولويات، والأهم يجب أن يكون الحب.. لا أسمح لك أن تختاري بيني وبين غيري، فمجرد الحيرة في هذه المسألة تعني إهانتي.. أنا لن يكون لي منافس لديك يا ندى الصباح.

الشاي الساخن الآن يتقدم قائمة الأولويات، لا داعي له على الطوى، فلأتناول فطورا من الفول والطعمية على هذا المقهى الفسيح.. ولا داعي للسيجارة الآن إلا إذا دعت لذلك قراءة الصحف.

جلست على المقهى من قبل ولم يكن لون حيطانه أخضر، كانت رمادية، واللافتة جديدة.. كانت منذ حضرت قبل أكثر من عامين مقهى "الانشراح"، تغيرت إلى "مقهى المزاج".. الفارق ليس كبيرا، لابد أن المالك تغير وهو يريد أن يضع بصمته ويبدأ عهدا جديدا.. فهل الاختلاف فقط في اللافتة والحيطان، أم أنه طال الخدمة والجودة والمعاملة؟ أظن أن المرأة السوداء السمينة خفيفة الظل التي لقيتها قبل شهور اسمها "مزاج".. نعم.. مزاج لطفي.. لا أستطيع أن أنساها، لا أنا ولا غيري.. كيف تنسى أنثى بهذا الحجم الذي يعادل ردف واحد من ردفيها جسمي كله على طولي وعرضي، وكيف تنسى لونها الفاحم، ضاربا عرض الحائط بقولها إنها بنية اللون، ويبدو أن فكرتها عن البن، هو فقط البني المحروق جدا الذي لم يعد صالحا للشرب.

كيف تنسى خفة دمها وضحكتها الرقيقة، وقدرتها على التقاط القفشات، والسخرية من كل شيء ومن كل شخص حتى من الحكومة ورئيسها.. أول مرة التقيتها صدفة وتعارفنا بسرعة انطلقنا

إلى الشقة.. في المرة الثانية جاءت إليها دون دعوة ولم أجد بأساً.. إنها تلك المرة التي قالت لي فيها: ألم تصلك الأخبار الجديدة؟ سألتها فقالت: إن رئيس الحكومة أصدر قراراً بجعل الدورة الشهرية للنساء مرتين في الشهر. دهشت.. حاولت أن أفهم بينما أراقبها وهي تنزع ملابسها بمزاج كأنها تقدم عرض استربتيز، كأنها فخورة بتقاسيم جسمها الذي يشبه ميشلان المكون من إطارات السيارات، تضحك وتقول:

ــ عمرك شفت مثل هذا الذراع.. بص على الرقبة قبل أن أطلع لك "بزي" يأكلك.. لحم متربي على الغالي.. شوف الدسم، لن تجد لا فشة ولا عظم ولا دهن.

ــ انت ملك دهن.

ــ فرق بين الدهن واللحم..

ــ سيبك من هذا الكلام.. وقولي.. لماذا أصدر رئيس الحكومة قراره؟.

ــ ابنه يا سيدي سيفتح مصنعاً لحفاضات النساء.

أنفرط من الضحك، وتضحك معي بجسدها وعينيها وأسنانها. لا من أجل ما قالت ولكن لاعتقادها أنها أضحكتني وربما أسعدتني.

عندما اقتربت من السرير.. قالت:

ــ وسع.. وسع، وانت مالي السرير كله.

وسعت لها، قمت فانطفأت اللمبة، صرخت كالعرسة بسرعة قائلة: لا.. أخاف من الظلام.

ضحكت وشاركتني الضحك.. مدت يديها تتحسسني وتزغزغني.

كيف أنساها وهي تلاحقني بالنكات وتبرق في الظلام أسنانها البيضاء بياضاً غير عادي.. قلت لها: لونك فاحم جداً، قالت: لا تقل فاحم وقل: أبنوسي.. عرفت شاعراً من سنتين وكتب عني قصيدة اسمها: الملحمة الأبنوسية.. مضينا معاً نضحك قبل أن تقول لي: باي، قالت: أريد أن أمشي وأنا مطمئنة أنك آخر مزاج.

ضحكت بينما كانت تفتح حقيبتها وتتأكد من أنني وضعت بـــها نقوداً.. قالت:

ـــ تصور يا واد يا أستاذ.. حبيتك رغم إنك جلدة.

نعود للضحك حتى لأود أن أستبقيها حتى الصباح، فأتذكر أنـــها قالت: لابد أن ألحق أمي قبل أن تنام.. أعطيها الحقنـــة وأطعمـــها بيدي قطعة البسبوسة.

تمضي وأفكر بعدها في النسوان.. تلك المخلوقـــات الرائعـــة.. جسداً وروحاً فيتأكد لي أن الله خالق عبقري، يكفيه أنه خلق النســاء فقط.. الجميلات طبعاً، وليس مزاج.

من صبي ينادي على الصحف.. اشتريت جريدتـــي.. الســاعة الآن الثامنة، أمامي ساعتان قبل لقاء نادر الذي وعدنـــي بإحضـــار كتاب "هز القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف" للشربيني.. قـــال إنه سيفيد الرسالة جداً.. المجرم يعلق قائلاً: إن هز البطـــون هـــو الذي يفيدني أكثر.. هذا الولد ملهم.. أول خبر في الجريدة.

رئيس الوزراء يلتقي براقصة مصر الأولى (هكذا سمت نفســها وأنفقت مليون جنيه لتكرس الاسم) ويطلب إليها العمل بقوة لدعـــم مسيرة التنمية.. وعدته في تصريح بالبنط العريض الأحمـــر بـــأن تخصص نصف مكاسبها الليلية لمساعدة المحتاجين.. (ســـتقول إن مكاسبها في الليلة مائتي جنيه) طالبها رئيس الوزراء بالوقوف إلـــى جانب مؤسسات البحث العلمي، وتطوير تكنولوجيـــا المعلومـــات، والسفر إلى الخارج لجلب العملات الصعبة.

تذكرت حديث مزاج عن زوجها الوحيد وكان سكيراً عـــاطلاً، وغير مستعد للعمل على الإطلاق ويسفه لها كل عمـــل تقترحـــه، ويقول لها: رئيسان في المركب تغرق.. يتنازل لها عـــن الرئاســـة وعليها أن تبذل جهدها لتنفق على البيت.

كلب يحصل على مليون جنيه تعويضاً عن عدم قدرتـــه علـــى النوم بسبب تصرفات جاره المزعجة.. بيل جيتس أغنى رجل فـــي العالم، ثروته تعادل ميزانية عدة دول.. الواشنطن بوســـت تتوقـــع

حدوث بعض العمليات الإرهابية في الولايات المتحدة الأمريكية.. مجزرة إسرائيلية في فلسطين يستشهد فيها اثنان وعشرون مواطناً ويصاب ثمانون.. الإدارة الأمريكية تفهم حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها.. بنين تهزم مصر ٤/٠ في كرة القدم في التصفيات المؤهلة لكأس أفريقيا.. الإحصائيات تثبت أن ٧٠% من أسباب مرض السرطان ترجع إلى التدخين.

واصلت التهام السندوتشات، وواصلت التنقل بين عناوين الصفحة الأولى بعيني.. أشعلت سيجارة وطلبت الشاي قبل أن ألتهم آخر لقمة.. لا يستطيع الإنسان المصري أن يجد لذته أو شبعه في أي فطور يخلو من الفول.

تقول مزاج ساخرة: زوجة تجلس مع زوجها وأولادها السبعة الذين يأكلون الخبز ببقايا جبن قديم وتقول له: أتذكر أيام زمان.. عندما كنا نأكل الفول بالزيت والليمون؟.

يقول لها زوجها وهو يتنهد متأسياً على الخير الضائع:

ـ أيام شهر العسل..

في الصفحة الخلفية في سطرين.. فوز المفكر الكبير مراد وهبة بأرفع وسام فرنسي تقديراً لإسهاماته الفكرية، الخبر مدفوس تحت إعلان عن أجهزة التخسيس. تحقيق يحتل نصف صفحة مع مطربة ناشئة تطالب برفع أجرها في المسلسل من مليون إلى مليوني جنيه.. المسلسل من تأليف بهاء طاهر الذي لا يتجاوز أجره سبعة آلاف جنيه.

طبقت الجريدة ووضعتها تحت مؤخرتي.. الممثلة الناشئة تحصل على ثلاثمائة ضعف أجر المؤلف صاحب القصة..

غرفت ملعقة من السكر وألقيتها في الشاي.. تابعت ذراته البيضاء وهي تتساقط داخل السائل الأحمر الساخن.. تلقت حبات السكر الصدمة بهدوء وراحت بهيام تذوب في الشاي وهي تتجه نحو القاع.. ألحقتها بملعقة أخرى.. قلبت الشاي، ولم أتمهل حتى يبرد.. توالت جرعاتي وأنا أهدهد حلقي وأحاول التخفيف عنه.

اشتاقت نفسي مرة أخرى إلى الشاطئ والحركة ومشهد طيور النورس والصيادين.. أسرعت إلى الكورنيش.. مضيت أهرول، بعض المارة رماني بنظراته في شبه دهشة.. كانوا لابد يقولون.. لماذا يجري هذا الرجل الطويل ويدب على الأرض بحذائه الثقيل؟.. لم أهتم.. ركضت، وتنفست بعمق، شربت من رائحة اليود. واصلت الركض حتى أوشك العرق أن يبلل كل ملابسي.. وقفت واستدرت بكلي إلى البحر.. تأملته لحظات وسحبت شهيقاً طويلاً.. جال عقلي بأعماقي.. قلبي وأوراقي.. كانت رأسي كالبحر.. صفحة واحدة كبيرة وملساء.. الأفق يكتب عليها كتابات عمياء بلغات مجهولة.. ربما يشهد اليوم بداية جديدة وممتدة.. أيام أخرى مفعمة بالأمل.. المياه ترتجف، موجاتها الوليدة تعلو وتهبط، تندفع نحوي ثم تتوقف، وتبدأ في الانحسار.. لست قادراً في أي وقت على فهم تأويلات الماء.. لكنني متفائل بهذا الكائن الجميل.. الممتد بلا نهاية، الثائر الهادئ.. الغاضب الحنون.. ومع ذلك فهو في ذاكرتي ينحاز للطغيان، ومن غير الطبيعي أن يكون البحر متواضعاً أو منحازاً للفقراء.. أشك كثيراً في الأشياء والأفكار.. ما أسهل أن يهتز في نظري أي بناء.. كل ما في الدنيا قابل للشك وهذا ما يجعلها في نظري مؤهلة للكسر مثل كأس جميل. أشك.. أشك.. أنا محض إدراك ملطخ بالشكوك. هي التي علمتني ذلك.. الحياة.. ومع ذلك فالحب عندما يزدهر يجعل قلبي مفعماً بالطمأنينة والرضا عن كل سوءاتها.

عزمت أن أعود إلى الفندق لأستحم بالماء الساخن.. وأن أبقى تحته طويلاً، وأن أخفف كثيراً من شعر إبطي وعانتي وأحلق ذقني وأضع العطر.. أرتدي ملابس نظيفة.. كلها نظيفة.. هذا الصباح المشرق يلهمني أن أكون جديداً مثله.. يخامرني الأمل في أن تقترب السفينة من الرصيف.

هاأنذا أنظف الرصيف بفرشاة الأسنان والماء الساخن والزي المهندم والعطر.. وعليّ بعد لقاء نادر أن أدعو ماسح الأحذية لتلميع الحذاء جيداً.

ما أروع أن تنبت في الروح بعض الأعشاب النضرة التي تلوح للحياة والأمل!. سأزيح من رأسي مؤقتاً ما تفاجئني به الأيام من شوك.. سأتجاهلها فاليوم.. يوم ندى.

هاهي المرآة تطمئنني.. أنا لست وسيماً بما يكفي.. هذا ما تقوله.. لكني طويل ومقبول.. شعر رأسي ناعم.. عيناي واسعتان.. ذقني عريضة.. جمالي لو يعلمون في عقلي وروحي.. من الأصدقاء من ينسبون لي خفة الظل.. أعرفهم.. شياطين.. يثبتون خفة الظل لكي يتنكروا لغيرها.. عالم متآمر ابن..

امتلأت مثانتي فجأة وضغطت.. تجاهلتها مستحضراً طيف الغائبة الغالية..

القاهرة لا تساعدنا على التفاهم أنا وندى، هل تساعدنا الإسكندرية؟. كان بيننا بالأمس موعد فوق كوبري إمبابة.. اتصلت بعد الظهر وقالت إنها بالإسكندرية في زيارة لخالتها.. لمست في نبرات صوتها آثار حزن ثقيل وإرهاق.. سألتها أن تقول الحقيقة وتفضفض، قالت: لما أشوفك.

اتفقنا على اللقاء في الحادية عشرة صباحاً أمام نصب الجندي المجهول.. طبعها غريب.. لا تود أن تصرح أو تصارح.. دائماً مكبلة، تمنع نفسها حتى من الضحك.. من الكلام.. من المغامرة.. من الأحلام، مع أن فكرها متوهج.. يبرق أحياناً بآراء متألقة الذكاء.. لكنه سرعان ما يختبئ ويتراجع عن الانطلاق ومواصلة المشاركة بقوة، كأنها تندم إذ تفكر.

على العكس أنا.. أفكر بالخارج، وأبدأ بالتعبير وأنا في منتصف نضج الفكرة وأستكمل ضبطها أثناء طرحها.. ما في قلبي على لساني.. عقلي كمقهى نصفه على الرصيف، ليس بداخل الجدران إلا النصبة ورفوف الشيش وعدة المشاريب. أما ندى فهي مقهى

خلف الجدران، بل خلف خلف الجدران، تدخل لها من باب سـري، ثم تهبط درجات مائة حتى تجدها تحـت الأرض، مختبئـة تحـت عمامة كبيرة من ضوء شاحب.. يجب أن تتحسس فيـها طريقـك وتمسك بالأشياء حتى لا تسقط.. لكنك في النهايـة سـتجد كرسـياً مريحاً وأيدي ناعمة وبسمات تطلقها العيون والشفاه، وفجـأة يعـم الظلام ويهرول الحضور، وينسحب من تحتـك الكرسـي المريـح ويضطرب المكان تحت ضغط الحركة المفاجئة كأن هناك كبسة من البوليس.

فجأة تقول وهي تقف: سامحني لازم أمشي حالاً.

نكون بالكاد بدأنا الكلام ويكون المشروب يدوب وصل.. يسـقط في يدي ويسقط في قلبي.. ويسقط كل شيء ويخطـف يدهـا مـن يدي.. وتسقط في الطريق وسرعان ما تختفي وأظـل أحـدق فـي الفراغ أسأله.. كيف ابتلعتها الأرض أو البيوت.. كيف بهذه السرعة تعانق غيابها وتضيع مع الخطوات الهاربة؟.

إذا لم تصب في مجرى برطمان أسرارها المخللة فلـن تتقـدم نحوي خطوة..

ستظل كالقنبلة الموقوتة.

هاهو نادر.. الشاب السكندري المسالم دائماً.. تعرفت عليه فـي دار الكتب على كورنيش القاهرة، يعد رسالته للماجستير عن الشـعر المصري في العصر الوسيط.. زمن رسالتينا واحد، هو عن الشـعر وأنا عن الفلاح.. جلس وهو يقول مادا يده بكتاب "هز القحوف":

ــ تفضل يا سيدي.

ــ تريد أن تثبت لي أنك اسم على مسمى.

قال نادر فاتحاً فمه الصغير الذي لم يوسعه الضحك الكثير:

ــ خليك أنت اسم على مسمى.

ــ اسمي رءوف.. فهل لمست مني أي قسوة؟.

قلت له وأنا بطبعي أنزعج من أي تهمة حتى لو كانت مداعبة:

ــ شكراً يا نادر.. ماذا تشرب؟

أشرت للرجل الشيك الذي يرتدي البدلة السوداء وتحتها القميص الأبيض والبوبيون الأحمر، شكله ابن ناس.. أبيض وشعره أحمـــر، منخاره كبير قليلاً.. ماعدا ذلك، شاب في منتهى الأناقـــة والأدب. تحولت إلى نادر أسأله من جديد.. بسبابته ثبت نظارته فوق أرنبـــة أنفه.. طلب سحلب وطلبت مثله.. قد يكون حماسه للدكتوراه بسـبب ساقه الصناعية وقد يكون بسبب تشجيع الفتاة التي يحبها.. وفي كـلِ الأحوال هو شاب جاد ونقي.. أسعدني التعرف عليه. قال إن كـــلاً منا يمكن أن يفيد الآخر برسالته.

عندما علمت بوجود ندى في الإسكندرية واتفاقنا علـــى اللقـاء اليوم أبلغت نادر أني في الإسكندرية لمدة ساعتين.. اعتذر بـــالعمل وصعوبة مغادرة المصنع.. قلت له اتصرف.. كلمته بالليل عندمـــا وصلت وطلبت منه أن يحمل معه كتاب الشربيني الذي وعدني بـــه في آخر زيارة له إلى القاهرة قبل شهر.. واتصل بي يومـــها ولـم يفلت مني فقد أرغمته على المبيت معي وسهرنا معاً حتى الفجـــر.. لم ينم إلا في القطار.. وأسرع مباشرة إلى عمله مراقباً للجودة فـــي مصنع مبارك للورق.. تكلمنا ليلتها في كل شيء.. نـــادر شـخص رائع يغريك بصداقته.. ودود للغاية.. وربما كان خالياً تمامـــاً مـــن الخبث ولا تخشى على نفسك إذا اعترفت له بكل أسرارك حتى لـــو كان بينها نقاط ضعفك.

كل الناس تحبه إلا من يحبها هو.. يبدو أنها مادية.. من عائلـــة ثرية ومترفعة، وهو بسيط ومتواضع جدا، يتصور أنه خلـــق فقـط ليخدم الناس.. أحباب أو أغراب.. أصدقاء أو حتى أعداء.. حســـن الظن حتى بأمريكا..

أشعر أني بحاجة دائمة لأن يكون نادر إلى جـــواري، بـــالقرب مني حيث تخف عني حدة تربصي بالحياة والناس، وتأهبي للمقاومة وتقوية صلابتي في مواجهة أي محاولة لكسر محارتي.. أنت مـــع نادر تنزع كل أسلحتك، فلست مطالبا باســـتخدامها.. أصـــر علـــى دعوتي إلى بيتهم مع توضيح بسيط خاص بوالده الحازم.. وهو فـــي

الحقيقة جبار ولكني لم أكن مستعداً لتلبية الدعوة، فقد حـان موعـد ندى ولابد أن أعود إلى القاهرة مع المساء على الأكثر.

طلبت من نادر أن يسرع إلى عمله، وقفت أودعه على أمل لقـاء قريب والهاتف بيننا خيط الاتصال الوحيد.. اشتقت إلى البحر.. هـذا البحر لن يموت أبداً، ولن يشيخ.. لن يكف عن زرقته، ولـن يفقـد قدرته على الإلهام لسبب بسيط، هو أنه أكـبر مـن التلـوث.. أي تلوث، وهو ممتلئ بالتاريخ، وبأعماقه من الأحداث والحكايات مـا يماثل المخزون في الكتب.

السفن السوداء التي تشبه الخنافس الضخمة، يخامرني إحسـاس أنها مثل حصان طروادة.. بداخلها رجال مدججون بالسلاح والغـدر أو معبأون بالأطماع والأغذية الفاسدة.. المعلبات المحشوة بـالخطر والضمائر المتعفنة.

يطالعني وجه ندى البريء الواعد بالسعادة.. ندى البحر، وأنـا اليابسة.. اغمرني أيها البحر.. أغرقني فتنقذني من ضياع وفـراغ.. أنا لا شيء بلا امرأة، وأنت هي.. اغمريني أو دعيني أحتويـك.. علاقتنا أبدية.. اطمئني.. لن تفلتي مني.

لابد هناك عفاريت تسكن رأسه، أحياناً يكون طيباً جداً ولطيفاً.. وفجأة يصرخ ويثور ضد الجميع.. نحار في حالته، إلا أبي فهو على قناعة تامة أن السجائر هي السبب.. هي السنارة التي تصطاده وتدفعه إلى السكك المجهولة.. يكفي أنها تجمعه بالأصحاب، الملتصق بهم والمدقوق في مصائرهم.

مجموعة من المتشردين، يتعاطى بعضهم البانجو والهيروين، وإن كان بعضهم من خريجي الجامعات، عاطلون منذ سنوات، يتسكعون في الشوارع والمقاهي، يشاكسون المارة، تمور بداخلهم طاقة الشباب فلا يجدون ما يفعلونه إلا البحث عن سبل النسيان والتعابق على كل ما يحدث باستياء ويأس.

يقول سمير:

ـ يا ندى.. أنا بالنسبة لهم ملاك.. إنهم يتعاطون كل شيء، بل يخترعون ما يمكن تناوله ليغيبوا..

ـ لماذا يغيبون؟

ـ ولماذا يفيقون؟

ـ للحياة.

ـ أين هي؟ الحياة يا ندى.. عمل وحب وفلوس.

ـ كلام رائع.

ـ أين العمل وأين الفلوس وما السبيل للحب؟.. وإذا أحب الشاب سئل عن إمكانياته.

يعجبني حواره وأرضى عن فهمه، وأبدو كالمنهزمة أمام تماسك منطقه، أقول:

ـ لكنك يا سمير طالب، في فترة تحصيل علم.. ولا يصح أن تكون غير ذلك.

— الجامعة بحاجة إلى مصروفات.
— لم نبخل عليك بشيء.. المهم الابتعاد عن أصدقاء السوء، بعد ذلك تصبح الأمور هينة.
— لا أستطيع.. لابد من الحوار.. أنا إنسان.. صفيحة فارغة مع الصباح تود دائماً أن يملأها من يعرفون حالها وحاجاتها.
— نحن أهلك.
— وهم أصحابي.. من سني.. حالهم مثل حالي.
— قلت منذ قليل إنك لست مثلهم، فهم يتعاطون كل ما يسكر
— أنا لا أسلك سلوكهم.. تكفيني السيجارة.
— السيجارة المحشوة.
— سيان.
— ولماذا تصاحبهم؟
— لأن تفكيرنا واحد.. هدفنا واحد.. طبعنا واحد.. كل واحد فينا مريح للآخر.
— مريح.. ما معنى مريح؟
— أجد معهم راحتي.. لا أحد منهم يصدع رأسي بالمستقبل أو الكفاح والصبر، أو بر الوالدين ولا أمجاد العروبة ولا حتى أيام الزمن الجميل.. أين هو الزمن الجميل؟. كلام أبي عن الزمن الجميل لمجرد أنه كان يستمتع بسيرة أبو زيد الهلالي أو عندما كانت الجاموسة بخمسة جنيه وكيلو اللحم بعشرة صاغ.. زمن الخطب.. والمطرب الذي يظل طوال الليل يغني أغنية واحدة.. لا كان فيه أمريكا ولا إنترنت ولا فيديو كليب ولا مائة ألف مليونير يستفزون الحجر.

يحاول سمير أن يقلد أحد المطربين وهو يحاول انتزاع "الليل من العين"، ضحكت، وشعرت بحبي لأخي وثقتي بقدرته على أن يكون ذا شأن يوما ما.. ما فيه من ضلال الآن.. ربما كان أمراً عارضاً.

أشعل سيجارة فبدا المشهد مزعجاً جداً لي.. حظي أن يكون أخي على هذه الصورة.. حاضر تعس يهدد الجميع.. الأسرة كائن عجيب.. شخص واحد فيها يفسد عليها الحياة.. سمير في الكلية منذ سبع سنوات، وهذه المرة الثالثة التي يعيد فيها السنة الثالثة.. طوال النهار والليل خارج البيت.. البراجيل حي قذر، ولكي نصل إلى بيتنا، نتقلب فوق أحجار ونغوص في طين، ونخوض في مياه غسيل، ثم نصعد جبال قمامة، ونتجنب الاصطدام بالبط والدجاج الذي أطلقه أصحابه حتى يجد ما لا يجده في البيوت.

تحملنا أقدامنا من حارة إلى حارة، ثم حارة وبعدها حارة.. بيتنا أول بيت على اليمين بعد طلمبة المياه على الناصية، وتتجمع حولها النساء والأطفال بالصفائح والجراكن والكيزان، ومنهن من يغسلن الملابس وينشرنها على حبال ممتدة بعرض الخرابة المواجهة للطلمبة، وقد حولها أهل الحي إلى مقلب للقمامة.

ـــ سلام يا أختي.. لما تفوقي نادي لي.

ـــ سمير.

ـــ انت سرحانة.

ـــ فيك والله.

ـــ سيبيني "ألقّط" رزقي.

ـــ أمك زعلانة.

ـــ غداً ترضى.

ـــ سرقت خاتمها.. حرام عليك.

ـــ محتاج الفلوس يا ندى.. الشباب لازم له مصاريف.

ـــ رأسمالها طار مع الدخان.

قفز مبتعدا.. لحقته عند الباب:

ـــ اتفق معك أبوك على خمسة جنيهات كمصروف يومي.

ـــ قولي له أقل من عشرة جنيهات لن أرضى.

ـــ أبوك مرتبه في اليوم عشرة جنيهات.

ـــ أمثاله يجب أن ينتحروا.

ـــ عيب يا سمير..

ـــ أنا لا أقصده، أقصد أن هذا المرتب الشهري لا يكفي بعـــض الأشخاص لمدة دقيقة واحدة.

ـــ اعقل يا سمير.. خليني أحبك.

ـــ أنا لا أستغنى عنك.

ـــ والحل؟

ـــ قولي له عشرة جنيهات يمكن أن تجعلني أفكر أنتظــــم فـــي الدراسة.

ـــ ونحن نأكل "طوب".

ـــ لا دخل لي.

ـــ أبوك كبر في السن، وأمك شالت الهم.. فلا داعي للنكد.

تذكر شيئاً فاختفت الجهامة:

ـــ أنا في دماغي حتة دين مشروع.. سنغرق بعده في الخـــير.. مع أول طرحة سنشتري شقة على النيل.. ننتقل إليها فوراً، ونخرج من المستنقع.. بعدها عربية أحدث موديل.. غداً تحلفون بحياتي يـــا ندى.. ليس من حل إلا أن أسافر إلى أوروبا.. أي تفكير في شـــيء ثان المخدرات أحسن منه.. جاي لك يا أوروبا.. جاي لك.

سرحت معه أفكر في الشقة التي على النيل.. وعـــدد حجراتـــها والأباجورات الحمراء والخضراء والستائر والسجاد.. جرس البـــاب الذي يعزف لحناً موسيقياً ولابد فيه خدامة ستذهب وتفتح البــــاب.. وأنا في حجرتي أتزين لابسة الروب على اللحم.

سابني الولد المجنون.. تسلل فجأة وكنت مشغولة، بمن ضــــرب الجرس على شقة النيل المطلة على عالم مختلـــف.. عـــالم بـــهيج يرقص بينما تتصاعد إليه نسمات معطرة.. وقعت عيني على بياض الحيطان المتهرئ من نشع المياه الجوفية والرطوبـــة التـــي أكلـــت صدر أبي.. عدت إلى سمير.

لا نستطيع السيطرة عليه.. لا يكمل معنا حديثاً.. لا يريح أمـــه ولا يراعي مشاعرها.. لا يتحدث إلى أبيه، كلما جرجـــره للكـــلام

زاغ.. أمي تبكي كلما رأت الأولاد الشاطرين.. تفر الدموع من عينيها.. تتوجه إلى الله بالدعاء أن يهدي لها ولدها كما يطالبها أبي، عندما تصرخ مهددة بترك البيت إذا لم يجد حلاً لولده.

ـ ألا تحس يا رجل.. ولدك يضيع.. ضاع فعلاً.. خذه لدكتور نفساني.. خذه إلى مصحة.. اسأل أصدقاءك في المسجد.. خذه إلى الشيخ.. خذه إلى من يقرأون الكف ويفتحون المندل ويفكون الأعمال.. لا يجب أن يكون لك عمل غيره.. خذه إلى الأستاذ ناصر لعله يكلمه وينصحه.

بهدوء شديد يقول أبي:

ـ حالة ابنك يا أم خضر مستعصية.. لن يفيده أحد إلا الله.. حالته لا حل لها إلا الدعاء.. اطلبي من ربنا يهديه.

كلام أبي أحياناً يعصف بها.. فبدلاً من أن يهدئ سرها وخاطرها، يستفزها، فتثور وتلطم حظها، وهي لا تثور رافضة الرجوع إلى الله، ولكنها تستاء من عدم قيام أبي بما تدعوه إليه.

وتقول ذلك فعلاً:

ـ ما دورك أنت؟.. ابنك ماشي في سكك بطالة.. تحرك.

ـ لو أراد الله له الصلاح لهداه، ولما منعه شيء.

ـ أنت لست طبيعياً يا رجل.. أم ربما هو ولدي أنا وليس ولدك.

لا تنتهي الجلسة بخروج أبي إلى المقهى أو إلى المسجد، لأن أمي تظل تتحدث إلى نفسها، لو لم تجدني أو لم تجد سامي الذي يستعد بجدية وتفرغ لامتحان الثانوية العامة، مع أننا لا نوفر له جواً ملائماً.. سعيدة جداً بتركيزه.. سيكون له شأن أفضل من "فرقع لوز".

تعالى صراخ أمي بعد عودتي من رحلة البحث عن عمل، ودخلت أخلع ملابسي.. صداع شديد يكاد يفجر رأسي.. كان صراخها عنيفاً جداً يكشف عن حجم المصيبة.. العقد الذهبي الكبير الخاص بها والذي تحتفظ به لأجلي لم تعثر عليه في موضعه،

كانت تخفيه داخل بطانية جديدة ملفوفة في كيسها البلاستيك ومحشورة بين الدولاب والحائط وفوقها كراتين فارغة وبعض الملابس الصيفية التي لم يحن موعد استخدامها.

— سمير.. ليس غيره.

— مستحيل يا أمي.. أولاً كيف عرف مكانه؟ ثانياً: يحتاج إخراجه إلى جهد كبير.

مضت تخبط بكفها على رأسها وتهتز مولولة، صعبت عليَّ جداً فبكيت من أجلها.. لم تكن دموعي تسيل إلا من أجل أمي، التي كانت تعشق أولادها إلى حد الجنون.. المسكينة تتلقى صفعات تكاد تكون يومية.. الأغرب هي إجابات سمير ولا مبالاته.. بارد جداً وقلبه حجر.. يغيب يوماً أو يومين ثم يعود، تكشر في وجهه، فيقول:

— لو بقيت مكشرة في وجهي يا أغلى أم في الدنيا سأذهب ولا أعود.

فلا تسأله عما أخذ، وإنما:

— أين كنت يا مجرم طوال اليومين الماضيين، أكيد مع زملائك "الصيَّع".

— يا سلام على دقة تصويبك.. ليس فيك غير دماغ، والأغرب أنك لا تتعاطين الحشيش أو البانجو.

— امش يا قليل الأدب، إياك أن تنطق هنا الكلام القبيح.

وهكذا ينتهي الأمر بأن يبتلع فريسته، ويبدو أن فريسته هيأت نفسها لفكيه.. فجأة يصفو الجو وينقشع الغمام وتقوم أمي لتجهز له ما يشاء من طعام.

ظلت هذه المرة تصرخ إلى أن جاء أبي. قالت له بوجه يضطرم ناراً ويحتقن غضباً. عيناها تطلق شرار التهديد والعزم:

— إذا لم تتصرف.. لن أبقى دقيقة واحدة في البيت.

خرج أبي ولم يتصرف.. ذهب إلى المسجد وأخذ يصلي دون أن يدري أن دموعه أغرقت خديه وذقنه وصدر قميصه.. في الصباح

الباكر لم نجد أمي.. مضينا نتصل بالأهل والأقـــارب، أنـــا وأبـــي وسامي من تليفون حسونة البقال ومن السنترال العمومي، إلـــى أن علمنا بوجودها في الإسكندرية عند خالتي. أختي الكبـــيرة أمـــاني أخذتها من بدري ورحلت عن الدنيا في العاشرة.. كانت قد عاشـــت ثلاث سنوات مع خالتي التي لا تنجب ثم عادت إلينا لتمـــوت بعـــد سنة.. البيت في غيبة أمي خراب.. مقبرة.. ما أروعـــها وأغلاهـــا الأم.. أي أم حتى لو مريضة أو عجوز. إحدى مزايا الزواج، أنـــه يخلق الأمهات.. الزواج يخلق كل الأمهات وبعض الآباء.. رأســـي تتنقل بين الماضي والحاضر لا تستقر.. كل الأحداث تتقلـــب مثـــل الملابس في الغسالة، وقلبي عصفور نحيل وصغير تعصـــــف بـــه الرياح. الحل رءوف.

بحاجة أنا إلى رؤية رءوف.. روحـــي مغمـــورة فـــي برميـــل المواقف التعسة، وأبدو كالخرقة المبتلة.. مشتتة وضعيفة وعـــاجزة ووحيدة.. بحاجة ماسة لرجل يحبني ويشد أزري.. أشـــــعر كـــأني خيال مآتة زرعوه وحده عاريا لحراسة غيط مهدد باللصوص مـــن الإنس والطير.. المطر يهطل عليه.. الدنيا برد، والحياة مقفرة مـــن الونس والدفء.. الظلام داخل بقوة.

كل المخلوقات عادت لديارها.. الناس والبـــهائم، وأنـــا واقفـــة تحاصرني الوحشة، أتلفت في المجهول.. أرتعش وعظمي يطل من الخرق المهلهلة.. أدخل في بعضي ولا أملك أن أختبئ حتـــى فـــي النباتات القصيرة النحيلة التي تتقارب وتصنع دفئاً متواضعاً وكافيـــاً ونبيلاً..

سامي لا يتوقف لحظة عن المذاكرة، أسفي على سمير لا يقلـــل من سعادتي بأن سامي ليس نسخة ثانية منه، أنا بحاجة ماسة إلـــى رجل محب ومخلص.. هل رءوف ذلك الرجل؟. ما ظهر حتى الآن لا يضمن أو يؤكد أنه هو.. رءوف شقي يتعجل اقتحامي ولا يريـــد أن يمنحني الفرصة لفهمه واكتشافه.. لطيف وكريم ويبـــدو رجـــلاً يعتمد عليه، لكنه مجنون إلا قليلاً.. ربما جنونـــه كجبـــل الثلـــج..

مستقبله مضمون خاصة بعد أن ينتهي من رسالته.. القلاووظ في ماسورتي مختلف عن القلاووظ في ماسورته، نحن في حاجة إلى "ماتربيطة" تعيد القلوظة، وأرى أن الزمن هو هذه المتربيطة، في حين أنه لا يعترف بالزمن، أو على الأقل لا يود أن يسمح بأن يقوم الزمن بالعمل بدلاً من الإنسان وإرادته. هل تراه يتصور أن رجلاً وامرأة اجتمعا على قليل من الفهم يمكن أن يصبحا زوجين سعيدين؟.

عندما أصل الإسكندرية سوف أتصل به وأطمئنه عليَّ.. هاأنذا أغادر منزلنا وروحي في مناخيري.. الظروف حرجة.. كانت أمي قبل يومين تصرخ وتولول وبعد أن غابت عنا بقي معنا ــ لا أدري كيف؟ ــ صراخها والعويل.. يشجني صوت اللطم والبكاء.. جمرات الآهات لا تزال حية ودائمة في كل الغرف.. تتعلق بالجدران وتهجم على النوافذ، ومع كل فنجان شاي أو قهوة لي أو لأبي، أسمعها إذا فكرت أن أفتح الراديو، أو أفتح كتاباً أو أدخل إلى الحمام.. الصمت نفسه يبثها فينوح كل شيء ويتحسر على الحال.

هاأنذا يطاردني الويل وأنا أمضي من حارة إلى حارة، وأدهش لأنه يطاردني وقد أخذ حريته خارج البيت.. إلى أن أصل إلى شارع مبارك الكبير فتقع عيني على نسوة وبنات يصرخن بالفعل وكذلك الشباب وحتى الرجال.. كل الحي العجيب بمنظومته الغريبة يصرخ.. أهله جميعاً خرجوا بقمصان النوم والفانلات والعمائم والسراويل والخرق والعماص في عيون الأطفال.. تجمعوا كلهم حول ساحة بلا نهاية من القمامة، يبحثون عن ابن أحدهم قيل إنه سقط في بحر القمامة وهو يفتش عن كرته التي قذفها آخر إلى هذا الموقع الشرك.

جزء من هذا الشارع كان قديماً ترعة، لم تردم.. ألقيت فيها القمامة.. كافة أنواع الفضلات والمهملات والجثث والهياكل والورق والدماء والدواجن الميتة والكلاب، وبقايا المباني وخلاص النساء اللاتي وضعن حديثاً وجرادل البول والأقطان الطبية الملوثة،

وذبل الحمام ومخلفات عشش الفراخ والبط والإوز وروث الخيل والحمير، فضلاً عن القلوب المحطمة والأحلام الموءودة والخذلان والشهادات الكثيرة التي حصل عليها أصحابها بذل الآباء والأمهات وعيون وأعصاب الأبناء ولم ترتد إليهم بأي ثمر.. تحت هذا كله لا تزال هناك مواضع بها مياه قديمة عطنة ومتعفنة على استعداد لابتلاع المزيد من الأرواح الحية والأجساد الميتة.

لم أتحمل فكرة أن شخصاً يمكن أن يقع في القمامة فتتواطأ مع قاع الترعة عليه بأن تفسح له الطريق إلى السقوط برغم سمك طبقتها التي تكونت على مدى سنوات من الإهمال حتى تجاوزت متراً ونصف المتر.. هاهم الرجال يغوصون في سائل موحل وبشع بحثاً عن الولد الذي أشار صبي إلى موقعه حيث اختفى فجأة.. مشهد رهيب لمجرد السماع به.. ودون وقوع العين عليه.

لم يكن بدني قادراً على تحمل الوقوف ولا تلقي ضربات الهلع المتشبث بأسرة الولد ولا روحي قادرة على تخيل الموضوع برمته.

مضيت إلى الإسكندرية، لعلي أحصل على أي فرصة للنجاة من مستنقع الحياة.. لعلي أستعيد أمي وأرى رءوف وأغير طعم الأيام.. جاءني صوت شادية اللذيذ تغني بمناسبة ٢٥ أبريل "سينا رجعت كاملة لينا.. ومصر اليوم في عيد".. عجبت لأن محطة السكة الحديد كانت محاطة بعدد كبير من سيارات الأمن المركزي، معبأة صناديقها الضخمة بأكداس الجنود في أزيائهم السوداء ووجوههم الجهمة، بينما العيون زائغة وآذانهم مشرعة في انتظار الأوامر. لم أستطع أن أمنع نفسي من الدهشة من حال القيادات وتفكيرها. هؤلاء الجنود يعيشون في الأغلب تحت خط الفقر، وتستخدمهم الحكومة في ضرب الشعب الذي يعاني من الغلاء وسوء الخدمات ووحشية التجار وغياب العدل على كل المستويات.. الشعب يضرب الشعب.. الفقير يضربه الأكثر فقراً.. ربما يضربه لأنه سينفس في الضرب مشاعر غضبه تجاه المسئولين عن حالته، وبالطبع لن يستطيع مواجهتهم لأنه تعود على سماع الأوامر واحترامها وتنفيذها

بمنتهى الدقة.. موقف غريب حقاً، هل خطر ببال أحد غيري.. لابد خطر على بال رءوف.

تعرفت على رءوف في هيئة الكتاب.. كانت الهيئة تنظم مجموعة من الندوات والأمسيات في الصيف.. حضرت عدة مرات.. وفي أغلبها تلاقت عيوني وعيون رءوف.. منذ اللحظة الأولى أطال النظر إليّ واختلست النظر إليه.. في اللقاء الثاني تحدث إليّ وسألني عن دراستي وعن هواياتي.. وعن رأيي في المتحدثين، في المرة الثالثة كان المقعد المجاور لي شاغراً، وقد جاء بعدي فما أن وجده حتى أسرع إليه، وامتدح على مسامعي حظه الذي حفظ له الكرسي شاغراً.

طلب لي شاياً وله، وبعد الندوة وقفنا قليلاً معاً، ثم هممت بالتحرك.. سألني عن مكان السكن.. أبدى دهشته وهو يقول:

ـ نحن جيران ولا نعلم.

تبين أنه يعرف والدي وخضر وسمير.. ويعرف عمي رزق الذي يعمل في محطة المياه وغازي جارنا وعطية صول المطافي.. قلت له:

ـ شقته أمام شقتنا مباشرة في نفس الدور.

وصف لي بيتهم.. قبل بيتنا بشارعين.. عرفته.. على ناصية مركز مبارك للأمراض المتوطنة.. ذكر لي إن سمير كان زميلاً لأخيه ياسر.. ياسر تخرج واشتغل، قلت وأنا لا أستطيع أن أكتم ألمي وخذلاني:

ـ سمير يحب التعليم.. يحرص على أن يبقى أكبر مدة ممكنة قال رءوف:

ـ لا تنزعجوا منه أكثر من اللازم.. غالباً تكون حالة أو أزمة نفسية مؤقتة.. إنها تساوي أيضاً أزمة من يلتحق بالمتعصبين من رجال الدين، أقصد الجماعات الإسلامية.. حالة رفض وحيرة وبحث عن طريق للخلاص.

ـ مثل أخي خضر.

ـــ أعرف أن "خضر" منتم لجماعة وكان مطلوبـــاً فـــي عـــدة قضايا..

ـــ نحن لا نوافق على تصرفاته.

ـــ طريق خطأ، لكن الحكومة هي السبب.. مفروض الأحـــزاب هي التي تستوعب كل هذا.

ـــ حكايات كثيرة وأحوال.

ارتحت لرعوف.. أحسست من أول يوم أنه ســـيدخل حيـــاتي، ويبدو أن هذا سيحدث أو حدث.

(٣)

أخرجت لها الشيكولاته: ابتسمت. ظلت متماسكة، رمت نظـــرة إلى الأفق وشردت ثم مرت على الشيكولاتة بلا احتفـــال وحطـت نظراتها أخيراً عليّ.. ابتسمت مشجعاً.. فتحت فمها.. قلت:

ـ خذي الشيكولاتة قبل أي كلمة..

ـ أتراني طفلة؟

ـ طبعاً طفلة.. هيا.. مدي يدك.. لابد أن تأكلي.

ـ لماذا إصرارك عليها؛ يبدو أنك وضعت فيها شيئاً أو مادة

ـ أنا لست بحاجة إلى مادة، كما أن هذا ليس من طبعي.

ـ ..

ـ أدعوك إليها لأنها أولاً لذيذة، ثانياً لأنها مني، ثالثـــاً وكـــان يجب أن تكون ثالثاً هي أولاً، لأنك يجب أن تأكليها بـــدون ســـبب، رابعاً لأنها ذات تأثير نفسي رائع، خاصة لمن كـــان فـــي حـــالتي وحالتك، وسني وسنك.

ـ ما علاقة الشيكولاتة بسني وسنك؟

ـ ولمن كان في سن الطفولة والكهولة والشيخوخة.. وفي كـــل الأعمار، خامساً لأن لها قدرة على أن تذيب ما يقف فـــي طريـــق التفاهم والانسجام، وتعبيد الطرق أمام المشاعر، وتجـــهيز العقـــول الجامدة للحوار والاستجابة.

ـ واضح أنك مخطط للجلسة.

ـ سادساً لأنها توليفة صناعية رائعـــة مـــن الكاكـــاو والســـكر وعصير الشفاه الحلوة، ومسحوق بعض أحلام جميلة عاشها كبـــار العشاق.. قيس وليلى، أنطونيو وكليوباترة، روميو وجولييت.. هتلـر وموسوليني..

تضحك بشكل تقريباً متواصل وأنا أتحدث ولمـــا تخـف قليـلاً قهقهتها التي تحاول كبحها.. أواصل كلامي:

ـ سابعاً يا ست البنات.. لأن مصـــانع الشـيكولاتة لا تسـمح بالعمل فيها إلا لصاحبات العيون الجميلة مثل عيونك العسلية، أمــا من كان لهم مثل شعرك البني الكثيف الطويل، فتوضع صورهــن على الأغلفة، لأن الأنوثة الطاغية دليل على تأثير الشيكولاتة.

ـ بس.. بس.. أنت أكبر شركة دعاية وإعلان شفتها أو سـمعت عنها.

ـ وحشتيني.

ـ البداية ساخنة جداً.. خف.

ـ ليت ذلك بالإمكان.. فات الأوان.

ـ نحن لازلنا في أول الطريق.

ـ بدأناه منذ ستة أشهر.

ـ مازال أمامنا ستة أشهر أخرى حتى تنتهي البداية.

ـ ساعتها لابد أن يكون عندي منك أربعة أولاد، عمر أكـبرهم ١٢ سنة.

ضحكت ضحكة طويلة، حاولت السيطرة عليها، لكنها فشـلت.. غمرني فرح حقيقي لأنها تحولت قليلاً عن حالتها التي قابلتني بـها، وتحررت قليلاً من جمودها.. قلت لها وأنا أمد يدي بالشيكولاتة وقد تألق وجهها بالابتسام، لكن صوت مقاومتها كان أعلى مـن غنـاء الشيكولاتة:

ـ تعالي نشرب حاجة في كافيتريا وندسور أو سيسل.

ـ لا.. لن أستطيع.. تركت أمي في قلق.

ـ أمك!

عادت للانكماش وطافت بسماء وجهها سحابة مفاجئة.. وكـانت عندما التقينا تحمل علامات الأسى على ملامحها.. عندمـا ينقلـب الوجه الجميل بغتة ويداهمه الحزن.. ينتحر القلب:

ــ كلميني.. فضفضي.. لماذا هذا الحاجز يا ندى؟.. ألا تثقيـــن بي؟ هذا الوضع لم أعد أستطيع احتماله.. أنـــت لا تعرفيـــن حالـــة اللاسلم واللاحرب.. أنا لا أعرف أنصاف الحلول وإمساك العصــــا من الوسط.

ــ لا تعقد الأمور يا رءوف أكثر مما هي عليه.

ــ نحن في مطلع القرن الواحد والعشرين.. الناس تحب وتتجـب خلال ساعات.

لم تضحك كما توقعت:

ــ تبدو أحياناً كأنك لا تحس بي.

ــ ندى.. أنا مستعد للزواج بك الآن.. بل.. الأمـــس.. حـــددي موقفك.. أنا تعبت.

ــ أنا غير معترضة، لكن ظروفي لا تسمح.

ــ ما الظروف التي لا تسمح؟ أنت التي تعقدين الأمور.

ــ ظروف وخلاص.

ــ إذن أنت لا تثقين بي.. أنت مازلت بعيـــدة.. بعيـــدة جـــداً.. وحالتك غير مريحة لك ولي.. القطار على المحطة وعلى الإنســـان أن يقرر.. هل سيركب أم لا.. القطار لن ينتظر طويلاً.

ــ لماذا لا تريد أن تعترف بالظروف؟

ــ نعم أنا لا أعترف بالظروف.. أعترف فقط بالحب، وقدرتـــه على إزاحة الظروف وتذويبها.. أو علـــى الأقـــل تحملـــها دون أن يكون الإنسان فريسة لها.. تتوقف حياته كلها انتظاراً للظروف.

مددت يدي وأمسكت بيدها.. تركتها لي بعد تردد.. قلت لها:

ــ كلي الشيكولاتة.

ــ بعدين.

ــ الآن.. كلي واحدة الآن واحتفظي بالباقي.

جلسنا على ترابيزة أمام الكورنيش.. الجو رائع.. من يريـــد أن يستمتع بلحظات الغرام ويأخذ حظه في الكلام ويشـــرب مـــن نبـــع الحب ويروي روحه بقرب الحبيب فليأت إلى الإسكندرية.

صوت عبد الحليم الشجي يتسلل من المقهى المجاور: "بتلوموني ليه.. لو شفتم عينيه.. حلوين قد إيه.. ح تقولوا انشغالي وسهد الليالي.. مش كتير عليه.. ليه بتلوموني".. قلت لها: هل تسمعين عبد الحليم.. أومأت برأسها وأغمضت عينيها.. جو الإسكندرية أواخر مارس غير عادي.. ربيعي رائع.. نسمات باردة خاصة ونحن في حضن البحر، وعلى طرف جناحيه.. الشمس تخبط برقة وتلسع بحنان.

ـ مالها ماما.

ـ أبداً.

ـ قلت إنها عند خالتك.

هزت رأسها.. جاء المتر:

ـ ما رأيك في الجيلاتي؟

قبل أن تجيبني ملت عليها:

ـ هل تناولت الفطور؟. أم نخطف معاً ساندويتشات سريعة؟

ـ أكلت في البيت.. أصرت خالتي ألا أخرج قبل الفطور.

وافقت على الجيلاتي..

حدثتني عن سمير وتصرفاته.. بكت.. مسحت دموعها.. تمنيت لو كنا في مكان أستطيع أن أضمها فيه.. أخفف عنها وعني:

ـ ليس هناك بيت يخلو من المشاكل، لا تدهشي إذا قلت لك إن المشاكل التي تحكين عنها وكأنها نهاية الكون أو كأنها بلا مثيل عادية جداً، بيوت كثيرة تمتلئ بما يفوقها بمراحل، بدليل أنك تقولين إنكم متفاهمون وسعداء وليس غير سمير.

عادت الدموع تنثال من عينيها.. أحسست أن جبالاً تربض فوق صدرها وأن هم الدنيا كله يركبها ويقتل كل أمل في نفسها. استسلام بشع.. يبدو أن أمها السبب، فهي التي تهول وتبالغ في خوفها على سمير من فرط حبها له وأملها فيه.. قلت لها ذلك:

ـ تبالغ الأمهات في الإحساس بأهمية الذكر، كأنه سينقل الأسرة نقلة أخرى ويخطف لها المجد من أنياب الوحوش.. غير صحيح

بالمرة، وكلما بالغنا في هذا، كلما شعر الشاب بنفسه، فأحبها وخضع لنزواتها وتدريجياً ودون أن يشعر يتجه على عكس الاتجاه المأمول.

بدت كأنها شبه مقتنعة بكلامي.. واصلت وقد تذكرت كلاماً قيل في حل مشكلة مشابهة، وقع فيها صادق شقيق صديقنا مراد:

ـ لو تابعت مشاكل الناس وعرفت بعضها ستكتشفين أن مشكلة سمير بسيطة ومؤقتة.. تصوري مثلاً لو مصاب بمرض صعب جداً.. وكيف يكون الحال لو كان تم القبض عليه منذ تسع سنين لا تعرفون عنه شيئاً مثل ابن عبد الراضي جارنا.

أسرعت تقول:

ـ يا رب احفظنا.

ـ أو عنده تخلف عقلي يؤثر على مستقبله طول العمر، أو عدواني من النوع الذي لا يكف عن ضرب من حوله..

ـ لا.. لا.. سمير ليس كذلك.

ـ إذن سمير أفضل من غيره، والمرحلة العمرية تفعل بأمثاله الكثير.

ـ لكن تظل حالته سيئة ومزعجة.. عاملة ارتباك لنا كلنا.

ـ انسوا قليلاً.. الاهتمام الزائد يحقق نتائج عكسية.

تنهدت وعادت للحزن:

ـ خائفة على أبي وأمي وهو لا يسأل ولا يبال بأحد.

ـ أنا متأكد أنها مسألة مرتبطة برغبته في زيادة المصروف.. أغلب شباب اليوم يعانون من هذه المشكلة.

ـ عندك حق، هذا هو لب المشكلة ـ له أصدقاء يحصلون بطريق أو بآخر على أموال كثيرة.

ـ تمام.

ـ فهمت أن أخاك الكبير مسافر.

ـ نعم.

ــ عظيم.. لماذا لا يساعد سمير، ويزيد له المصروف ويرسل له الهدايا، ورسائل التوجيه والنصح.

عادت السحب تملأ سماءها، وأوشكت على البكاء.. لكنها تماسكت.. وجاء الجيلاتي:

ــ ليس في بلد عربية.

ــ بلد أجنبية؟

ــ إسلامية.

ــ إسلامية.. أفغانستان؟

هزت رأسها موافقة.

ــ من زمن!

ــ أكثر من عشر سنين.

ــ ملتح؟

هزت رأسها.

ــ ماذا كان يعمل في مصر؟

ــ مدرس ابتدائي، انضم للجماعة من خمس وعشرين سنة.

مدت شفتيها وشردت كأنها تندب حظها.. قلت:

ــ المجموعة التي شجعها السادات للصدام مع الشيوعيين.

ــ اتهموه في قتله.. وجدوا اسمه في قائمة في بعض البيوت التي قبضوا على أصحابها.

ــ أكيد كان مع من قاموا بمحاولات اغتيال.

ــ لا أظن.. لكنه كان دائماً ساخطاً على الأوضاع.

ــ ساخط على الأوضاع من عشرين سنة.. أحسن ما فعله سفره.. لو بقي هو وزملاؤه، لا تتخيلي حجم ما كان عليهم أن يفعلوه.

طلبت منها أن تأكل الجيلاتي قبل أن يذوب.. أشعة الشمس بدأت تقترب منا.. مددت يدي وأمسكت يدها.. حمامتان تتعانقان على المفرش الأزرق.. بعيداً عن أطرافه المخرمة.. بالقرب منهما فاز صغير أبيض به وردة وحيدة.. تنقلت نظراتي بين الوردة

الحمراء الوحيدة وبين وجه ندى الجميل.. هل تكـــون نـــدى مـــن نصيبي؟. هل يكون مقدراً لنا أن نبقى معاً طالما كنـــا أحيـــاء.. لا تشغلني الآن الحور العين اللائي سيحطن بي في الجنة.. يعنينـــي أن تسلمني ندى قلبها.. وتسقط في أحضاني ثمارهـــا.. تشـــبه جوليـــا روبرتس، إلا أنها أجمل بكثير، وممتلئة قليلاً.. يدها طرية ولذيـــذة تدل على باقي الجسد الذي آن أن يدخل العش ويرتاح.

لاحظت انشغالي بتأملها.. بصت فــــي ســـاعتها.. انزعجـــت.. أشرت إليها لتأكل الجيلاتي.. بدأت تأكل، أو في الحقيقـــة تشـــرب، كنت قد التهمت نصيبي.. سألتها عن والدتها.. قالت إنها غضبـــت لأن "سمير" أخذ ذهبها وبدد ثمنه.

ـــ لازم ترجع معك.. لا تتركيها.

ـــ دائرة كاملة من العذاب.. سترجع معي ثم يعمل عملته وتعـود ريما..

ـــ قلت لك لا تبالـي.

ـــ يا رءوف والدي تجاوز الخامسة والســـتين.. دخلـــه قليـــل.. الأسعار غالية جداً بشكل غير طبيعي.. الحكومة من ناحية والتجـــار من ناحية.. المنطقة التي نعيش فيها لا تقبل الحشـــرات ســـكناها.. سمير حالته تسوء ومستمرة.. جو مشحون وصعب.

ـــ يا بنت الحلال.. الحل هو الخروج وتخفيف السفينة.. ترحمي نفسك وترحميهم.

ـــ أحب أسرتي ولا يمكن أوافق على تركـــها.. لا أســـتطيع أن أتركهم لليلة واحدة.

ـــ سنة الحياة يا ندى.. تزوجي وافتحي بيتك، واسألي عنهم كـــل ليلة، أنت ناسية شيئاً مهماً.

ـــ هو.

ـــ أن المشكلة بالنسبة لهم ليست سمير..

ـــ إذن ما المشكلة؟

ـــ أنت.. نعم أنت.. هم في قلق من أجلك، وكلما فكروا في توفير شيء لك أخذه سمير.. صح؟
ـــ صح.
ـــ إذن بزواجك، ينتهي القلق.
ـــ وأنت وراءك رسالة تحتاج إلى تركيز.
ـــ أمامي بالكثير سنة.
ـــ عندك شقة؟
ـــ محندقة.. حجرتان وصالة.
ـــ فيها عفش؟
ـــ على البلاط.. سنتزوج على البلاط.
ضحكت:
ـــ مجنون!
ـــ أحسن شيء في الدنيا الجنون.. لأنه الطريق الوحيد للحرية.. أن تتحرري من النكد والهم.. اتبعيني ولن تندمي.
هبت فجأة:
ـــ لازم أمشي.
ـــ الجنون الأصلي اشتغل.
ـــ فعلاً لازم أمشي.
ـــ لم نتفاهم.
ـــ بعدين.
وقفت وقلت:
ـــ تعالي نتمشى على الرملة، ونلمس الماء بأقدامنا.
ـــ تأخرت كثيراً.. سنعود أنا وأمي إلى القاهرة.. أبي على نار، لم يعد يطيق غيابها عنه.
ـــ وأنا أيضاً.
تنهدت، ثم قالت بحنان:
ـــ اصبر يا رءوف.
ـــ عديني أن نكون معاً في أقرب فرصة.

ـ أعدك.
ـ أريدك غداً أو بعد غدٍ أن تتصلي وتقولي هيا إلى المأذون.
ـ أنت ولا على بالك.
ـ زواجنا هو الحل.
ـ أتزوجك يوم مناقشة الرسالة.
ـ لن أبدأ حرفاً إلا وأنت في بيتي.
تحركت.. أمسكت بها:
ـ ما هذا الجرح الذي في جبينك؟ سمير مد يده عليك.. أرني
اقتربت فحدقت في جبهتها، وفجأة انقضضت على شفتيها.. حاولت التملص مني، لم أتركها إلا بعد أن ذقت رحيق الشفتين ونهلت منهما عسلاً متمنعاً ولذيذاً، لما أوشكت على التوتر.. تركتها، أسرعت تجري دون أن تلتقط كيس نقودها..
زعقت: الكيس.
توقفت وكانت قد ابتعدت نحو عشرة أمتار.. عادت بعد أن ظلت واقفة وظهرها لي عدة ثوان.. مدت يدها تطلب الكيس.
ـ لن تأخذيه إلا بقبلة..
تركتني بسرعة وابتعدت.. ألقيت بثمن الجيلاتي ولحقت بها.. سحبتها من يدها ونزلنا إلى الشاطئ.. سرنا على الرمل، يدي على كتفها وهي أقل توتراً.. أضمها إليَّ وهي تقريباً شبه مستسلمة.. أدركت أن السفينة تعتزم دخول الميناء.. النية معقودة لولا الأفكار السوداء التي تهاجمها.
عن بعد.. لمحت شمسية زرقاء تقطع زرقتها خطوط صفراء.. شمسية وحيدة على شاطئ فسيح مشرق وديع.. تحتها كرسيان.. تمنيت أن نصل إليها قبل أن تهاجمنا الكائنات الوهمية العجيبة التي تعشش في روحها ورأسها. كانت هادئة إلى حد كبير.. فرحة بالمياه التي تندفع نحو قدميها تدعوها للنزول إلى البحر وإلى الحياة.. انحسرت عن الرمل المياه.

قال البحر للمياه: عودي واقفزي فوق الأقدام والمسي الأصابع.. انفذي إلى ما تحت الجلد حتى تبلغي الأعماق المتجمـدة.. اندفعـت المياه نحو أقدامنا كما أمر البحر.. سارت ندى تحت إبطي ودفعـة تلف ذراعها الأيسر حول وسطي كأنها تتعلق بي.

ـ الحب يغسل كل شيء في الدنيا يا ندى.

ـ خائفة يا رءوف.

ـ لا تخافي أبداً.. مادام قلبك عامراً بالحب، فسوف يكون دائمـاً هناك يد منقذة.. اتخذي صديقاً تعتمدين عليه.. الحياة بحاجـة إلـى صديق مخلص.

ـ أي صديق؟

ـ أذبحك.. ليس غيري.

بلغنا الشمسية فوقفنا تحتها متقابلين.. أيقنت أنني أسـتطيع الآن أن أقبلها أجمل قبلة.. قبلة عميقة وطويلة وعاشقة، فيها الإجابة على كل الأسئلة، فيها سـورة مكثفة لطعم الأيـام المقبلـة، وهـي الآن نصف مهيأة.. ذبنا في القبلة.. بدا واضحاً أنها تبحث في شفتي عـن خلاص.. عن حب مجنون.. نهلت من شفاهها المكتـنزة رحيقـها الخلاب.. مضيت أغمرها بمشـاعري ودفء صـدري، ومضـت تغمرني حتى خطفت نفسها مني فجأة، ويبدو أنها أحسـت بتغـير حالتي وعنفوان جسدي.. واكتشفت مؤخراً أننا نقف وحدنـا علـى شاطئ رائع، لكن آلاف العيون ترمقنا، والبحر يصفـق.. ترقـص مياهه تحت أقدامنا، وقد شربت الأحذية والجوارب والأصـابع مـا شاء لها البحر أن تشرب.. لم تأخذ ندى جرعة الدواء كاملة.. مـا كان أحراها بالبقاء في أحضاني لحظات.. مـا أروع لـذة الجسـد المغموس في عمق المشاعر.

لم أستطع أن أودعها.. كنت متوتراً للغاية ووددت لـو نـتزوج الآن والكون شاهد.. اكتفيت بالاطمئنان على أنني قطعـت شـوطاً كبيراً نحوها، وقطعت.. تحرك الرصيف نحـو السـفينة، ودنـت السفينة البطيئة الحيية، دبت الحركة البحرية في الجميع، والفضـل

للبحر.. لن أنسى جميلك يا بحر.. أوجه الشبه كثيرة بينك وبين الحب.

لقد أكرمتني وقدرت سفري.. وقمت بأكثر مما كان يمكن أن يقوم به شيخ واصل دون أن تعلق حجاباً في رقبتي، ودون أن تضع عملاً تحت مخدتي أو مخدة ندى أو تحت عتبة بابها حتى تقع في غرامي.

ما أروع أن تكون ندى زوجة لي.. وفي ستين ألف داهية عائلتها المزعجة.

عدت إلى الفندق.. أخذت حاجياتي وغادرت.. تجرعت زجاجة بيرة في حانة صغيرة بحارة جميلة ونظيفة متفرعة من شارع صفية زغلول.. تأملت طويلاً عاملها ذا الشارب الأصفر ورموشه الحمراء وهو يدعك الأكواب وينظف بشدة كل الأدوات ويمر على البنك عدة مرات.

أسرعت إلى القطار حيث نمت.. فتحت عيني في باب الحديد، قلت وأنا ألملم نفسي:

ـــ أظنه كان يوماً رائعاً.

مضيت في الطريق إلى البيت، عازماً على أن أخفض المدة من سنة إلى ستة أشهر بمضاعفة ساعات العمل في الرسالة.. الانتهاء منها سيفتح الآفاق قليلاً.. أو هكذا أتصور وتتصور ندى.

(٤)

"كثير من الإبل تنام في الفناء الذي تطل عليه شرفة منزلي، وهي جميلة زكية الرائحة، ولكنها تزوم وتتشاجر بالليل بطريقة تثير الاشمئزاز، بودي لو استطعت أن أرسم لك مشهد مزرعة مصرية، رجالها ونساؤها وإبلها، لكن الذي يعجز الفنان عن رسمه مهما بلغت موهبته إنما هو ذلك اللون العنبري الذي يجمع بين التوهج والنعومة.

بالأمس جلسنا في جوسق مقام في حديقة من الخضراوات، وشربنا لبناً طازجاً.. الجوسق نظيف مصنوع من عراجين النخل،

وشهدنا القمر وهو يرتفع وراء الجبال فيغشي نوره كل شيء.. كأنما هو شمس أكثر نعومة، وهنا ترى كل الألوان في ضوء القمر، كأنما أنت في رائعة النهار، إن الليل هنا ليبدو لو كان نهاراً رخواً مكبوتاً موحشاً، يلفه السحر من كل نواحيه حتى كأنك في حلم من الأحلام.

بالنهار تشتد الحرارة، البيضاء قليلاً.. والنيل ينساب ماؤه وئيداً في صمت الظهيرة كما لو كان قصديراً مذاباً، إنه صمت التفت به القوارب النوبية الخشبية وهي تطفو منثالة من غير أن تخفق على جوانبها موجة واحدة، كان ذلك منظراً يبعث الرهبة في النفس، ليس هناك من ريح ونحن رقود في كنف هذا الشاطئ الشامخ الذي تحرسه كوكبة كبيرة من نخيل رشيق.

أما اليوم فقد أسفر الصبح عن لون قرمزي داكن، ونزلت إلى النيل فغصت فيه ورأيت الفتيات على الشاطئ المقابل وهن في أزياء الصيف، وقد ضربن حول أردافهن الدقيقة بأحزمة من الجلد، وكن يحملن على رءوسهن الصغيرة السامقة سلالا على شكل الأطباق ملأى بالذرة ودلفت إلى بهو الأعمدة، فجلست عند نهايته، وصعَّدت النظر نحو أثيوبيا وراودتني الأحلام حيث رأيت فيها ذلك الذي لا ينام في فيلة (أوزوريس) وغفوت قليلاً، ولم أصح إلا حينما قبلني آمون رع على وجنتي اليسرى.

أصبح الفناء الرملي الذي أمام منزلي مكاناً ينتابه المساكين من الناس مع جمالهم، فقد قررت الحكومة أن يؤدي الفلاحون مجتمعون ثمانية جمال عن كل ألف فدان، وترسل الجمال المسكينة لتحمل الجنود إلى السودان، وحيث إنها لم تعتد السير في الصحراء فإنها تهلك جميعاً، وفي كل الأحوال لا يراها أصحابها مرة أخرى، والسخط يزداد يوماً بعد يوم، ففي الأسبوع الماضي كان الناس يستنزلون اللعنة على الباشا في شوارع أسوان، ويتحدث الجميع علانية عما كانوا لا يفكرون فيه إلا سراً.

إن المكان جميعه قد أصبح أرضاً جرداء، والرجال يضربون بقسوة.. فواحد يضرب لأن جمله ليس من الجودة المرجوة، وثان يعذب لأن سرج جمله قديم ومتحلل، ويضرب آخرون لأنهم لم يستطيعوا إمداد الحكومة مقدماً بمال ينفق على إطعام الجمال ولدفع أجرة حراسها لعدة أشهر، وقد ظل الكرباج منذ الصباح يعمل على ظهور جيراني وأقدامهم، وإنه لمما أثار إحساسي واستفزني أن واحدا من أصحابي كشف لي عن ذراعه فرأيت آثار القيود الخشبية على يديه.. وآثار السلاسل الحديدية على رقبته.

لقد بلغ نظام الاستنزاف والتخريب حدًّا لا يمكن تجاوزه، وقصة الإنجيل عن "تابوت" وكرومه تتكرر هنا يوماً بعد يوم ولكن على أوسع نطاق، وإني ليأخذني الأسى إذ أسمع عن رجال مثل "عبد الله الحبشي" لهم وزنهم في المناصب يساقون إلى "فازوغلي" لكي يموتوا مرضاً أو يقتلوا قتلاً، ويأخذني الأسى بدرجة أشد إذ أرى الألم المبرح الذي يعانيه هؤلاء الفلاحون المساكين الذين ينتزعون اللقمة من أفواه أبنائهم الجياع ليقتاتوا بها أثناء عملهم من أجل فائدة رجل واحد.

إن مصر مزرعة واحدة متسعة الأرجاء يتحكم فيها رجل واحد، يستعبد الرجال الذين يعملون من أجله دون أن يطعمهم، وأستطيع من نافذتي التي أطل منها الآن أن أرى رجالاً يتراوحون في مشيتهم بين الجمال البائسة التي تنتظر بواخر الباشا لتشحنها، وأرى كذلك أكوام الذرة التي اضطر الناس إلى إحضارها لتكون لإبلهم طعاماً، وأستطيع أن أقول لك إن الدموع التي تنهمر من عين الإنسان إذ يطلع على هذا المنظر لهي دموع حارة ومريرة، وليس يدفعني أنا شخصياً إلى هذه الشكوى عاطفة موقوتة أو منفعة مرجوة فإني أرى هنا الجوع والألم، والعمل الذي يجبر عليه الرجل من غير أمل ولا جزاء، ثم إن فيه مرارة دائمة يحسها العاجزون حين تشتد بهم النقمة ولا يستطيعون دفعها ولا الإبانة عنها".

مضى رءوف يقلب رسائل لوسي الإنجليزية إلى زوجها ألكسندر جوردون، إبان إقامتها في الأقصر من عام ١٨٦٢ – ١٨٦٩ في عهد الخديو إسماعيل.

"صبي من بيت "روتشيلد" اليهودي لما يبلغ الرابعة عشرة، وفد إلى الأقصر على باخرة من بواخر "إسماعيل"، وقد جاء في ركب كأنما هو أمير من أمراء بيت من بيوت الملك على باخرة من بواخر الباشا، تكفل الباشا بكل نفقاتها، مع من كان عليها من الأتباع، قال لي فلاح عجوز "كل ذلك من أجل الاستدانة من اليهودي" قال ذلك في نغمة من الاحتقار، لم أتمالك أن يرن صداها في قلبي، إني آسفة لأن أقول إن كلمة "يهودي" نتنة تزكم أنوف العرب بقدر ما تزكم أنوفنا".

"لقد حدث أن قام قبطان سفينة بروسية وجنوده بالهجوم على إحدى القرى المجاورة ونهبوا الكثير من المحاصيل والماشية لتمويل السفينة وركابها لشهرين وهي تتنزه في النيل، فأحرقوا الأهالي وقتلوا عدداً من ركابها، فجاءت قوات الباشا ودمرت القرية وصادرت الأملاك فيها وفي عشر قرى مجاورة وقتلوا الفلاحين رمياً بالرصاص وهم يحاولون الفرار.. إن السخط على الحكومة عميق وشامل في كل الأنحاء لأن الأسعار المرتفعة وهي فوق طاقة أكثر الفلاحين أدت إلى مجاعة، والباشا المسئول الأول عنها، وإذا امرؤ أراد أن ينفرد بالحكم، وأن يجمع كل الخيوط في يده فلابد أن يتحمل عواقب الفشل".

- "ولا أعتقد أن الأهلين سيقومون بثورة، لأن الناس اعتادوا الصبر واحتمال الأذى من ناحية، والطاعة والإذعان من ناحية أخرى، ثم إنه ليس لديهم وسائل للمواصلات، وفي المقابل تستطيع بواخر الحكومة التي تجري في النيل شمالاً وجنوباً القضاء على كل بادرة للثورة في مهدها.. لا أمل إلا في ثورة تندلع في القاهرة، ولكن كل شيء ميسر في القاهرة على حساب أهل الريف".

"رأيت الساعة رجلاً قادماً من "جاو" ويقسم أنه رأى بعيني رأسه ألفاً وأربعمائة رجل تقطع رءوسهم وأن مائة أرسلوا إلى فازوغلي على إحدى البواخر، وإن كل الباشوات المحليين قد اقترفوا كل ألوان القسوة.

لقد وقعت هنا أحداث منذ أسابيع قليلة، وفي نطاق لا يتجاوز الستين ميلاً، لكنها لبست بالفعل ثياب الأساطير، من ذلك أن رجلاً قبطياً كانت له جارية مسلمة تحفظ القرآن الكريم وتقوم على خدمته، ولما أراد أن يتخذها رفيقة لفراشه امتنعت عليه، وذهبت إلى أحمد الطيب وكان له رأي وصاحب همة، أعطاها مالاً تشتري به حريتها من سيدها، لكن سيدها رفض هذا الحل وتمسك بحقوقه، وساندته الحكومة في ذلك، وعند ذلك أعلن أحمد الطيب الثورة، وانتفض الناس وراءه مدفوعين بثقل الضرائب والظلم.. ونزل الجنود إلى القرية والقرى المجاورة يضربون الناس ويحاولون اصطياد الطيب، جاء فاضل باشا وأمر أن يلقى على الأرض ستين رجلاً على ظهورهم، وأن تقطع رءوسهم عشرة بعد عشرة ببلطات قطع الأشجار، ويقدر البعض من قتلوا نحو ألف وستمائة.

لا أستطيع أن أصف لك البؤس الذي يخيم على البلاد هنا.. فكلما طلع نهار جديد زادت على الناس ضريبة جديدة.. ضريبة على كل دابة في الأرض وضريبة على كل رجل وعلى الفحم والزبد والملح، وعلى الفلاحين أن يدفعوا مائة قرش عن كل فدان ومثلها عن كل محصول وعلى زرع الفاكهة وضريبة عند بيعها.

لا يستطيع الفلاحون أن يتحملوا أكثر من هذا فهم لا يعيشون إلا على طعام الشعير مخلوطاً بما ينبت من خشاش الأرض، وكل الذين أراهم من معارفي وجيراني ألمح على وجوههم جهامة الإملاق وأرى على أجسامهم الخلق من الثياب.

وإن المسألة تبدأ بأن يسرف الباشا في القاهرة، ثم يطلب من الإفرنج الاستدانة، وما يلبث الإفرنج أن يطلبوا أموالهم فيتحول الباشا وجنوده إلى الفلاحين يجمع منهم ما يريد بالكرباج وكل

أشكال التنكيل.. فامتنع الأمن وهرب الكثـــيرون وهجـــروا الأرض فقلت الخيرات وكثرت المجاعات، وزاد ذلك من لهاث القاهرة بحثـــاً عن المال، إذ لا عمل للباشا ورجاله إلا الإنفاق.

حينما أتذكر كيف طالعتني هذه الأرض وهي جميلة باســـمة، إذ أطللت عليها من نوافذي عند مقدمي إلى الأقصر أول مرة، وكـــانت تموج بجموع من الناس وأسراب من الدواب، ثم أنظر الآن إلى مـــا آلت إليه إذ أصبحت بلقعاً لا زرع فيها ولا ضرع، فإني أشـــعر أن قدم التركي كانت ثقيلة، فلا أرى دابة واحدة بعـــد أن كـــان هنـــاك خمسون، وذهبت تماماً كل الحمير والخيل والإبل، ولم تمت الماشية ذات القرون وحدها، بل لقد ماتت الكلاب أيضاً، ونقص جداً عـــدد الصقور وجوارح الطير، إذ لا يترك البشر بقية طعام تقتـــات بـــه الطير".

(٥)

في شارع مبارك الموازي لعثمان محرم بالطالبية وفي شقة صغيرة رطبة تحت الأرض وخلف إسطبل عربات الكارو والخيل، التقى الشباب كعادتهم كل خميس للتعرف على أحوال الكون، وتحديد مواقفهم منه، وتبادل الرأي حول تركه على حاله أم التصرف فيه وإجراء تعديلات عليه تسمح بأن تجعله صالحاً للتعامل والسكنى، أو التركيز على إجراء التعديلات عليهم في حالة تعذر تغييره.

إما أنك قادر على تغيير العالم، فافعل بسرعة ولا تتردد، وإما أنك غير قادر فسلم نفسك للنسيان وأيضاً لا تتردد.

مد الشاب ذو الصوت الجهير يده بالسيجارة المخصبة، سيجارة المودة والمزاج ولحظات الهناء الأرجواني إلى زميله الصامت دائماً، وهو بالإضافة إلى صمته صاحب الشقة، ومن باب الكياسة أن يتذوق كل شيء قبل الجميع.. قبل أن يمد ذو الصوت الجهير يده، كان قد سحب نفساً عميقاً من السيجارة وقال: مساء الخير يا نجف.

تقبلها خليل الصامت دون كلمة.. لابد أنه ممتن برغم سخطه، فالنعمة لا ترد.. وبدا ذلك جلياً في رده العادي الخالي من أي شعور يوحي بالرضا عن الماضي أو الأمل في المستقبل:

ـــ مساء الخير.

قال جهير الصوت:

ـــ افرد بوزك وصلي على النبي يا خليل.

ردد خليل بشكل اضطراري وآني: عليه الصلاة والسلام.

يتناهى إليهما صوت تقليب السكر في الشاي، ممتزجاً بصوت الكاسيت.

يا نادية أنا عقلي طار	وقلبي انكوى
باتكلم جـد مش هزار	في إيديك الدوا
بكره راح أبيع الحمار	ونعيش سوا
وأجر أنـا الخضار	ويجمعنا الهوا

وصل ذو الأنف الطويل.. وزع الأكواب على الشباب الخمسة، حط كوبه أمامه وطلب سيجارته:

ـ ناولني الاصطباحة.

ضحك ذو الشعر المفلفل:

ـ اصطباحة بالليل يا شلبي؟

رد عليه شلبي:

ـ أول مرة أشوف عربيات الأمن المركـزي تنتشـر بـالليل فتصورت إن النهار طلع.

أمسك سمير بسيجارته وسحب نفساً عميقـاً حـاول أن يشـمله بالتركيز الملائم فأغمض عينيه.. دفعه عميقاً إلى قاع رئتيه، وإلـى آخر منطقة في بطنه إذا كان ذلك ممكناً، بينما عينـاه شـاردتان.. وتذكر في هذه اللحظة معنى أن يتقن الإنسان عمله، ويخلص فـي أداء مهمته، ولم يتذكر من الذي قال إن تقدم الشعوب مرتبط بمثـل هذا الإخلاص.

اقتحمه ذو الصوت الجهير:

ـ تعجبني هذه الأغنية جداً، ومغنيها قد المسئولية.

علق شلبي:

ـ مع أني أشعر برغبتي عند سماعه في خبط رأسي بالجدار

ـ تأمل فكرة أن يبيع الحمار ويجر العربة بنفسـه.. فـهو أولاً متواضع، وثانياً مقدر للحب والتضحية، وثالثاً يوفر برسيم الحمار.

اندفع الكشك يقول:

ـ المرور يأخذه مخالفة فوراً.

ـ بسبب.

ـ منتحل شخصية الحمار.

يضحكون، ويقول سمير:

ـ الأغنية مناسبة للبيئة جداً، فشقة الهنا التي تجمعنا هنـــا الآن مجاورة لإسطبل الحمير.

ـ لا وأنت الصادق.. الحمير لمـــا لاحظــت أن خليــل دائــم الاستماع للأغنية قررت تسكن جنبه.

التفت شلبي إلى الصامت وقال:

ـ قل حاجة يا خليل.. دافع عن نفسك.. قل إنـــك بــرئ مــن الأغنية أو حتى من الحمير.

تدخل ذو العين الزجاجية:

ـ خليل واكل سد الحنك.

أضاف ذو الشعر المفلفل:

ـ أمامكم بالكثير ربع ساعة، لو الليلة فضلت على هذا الحـــال الجربان سأذهب ولا أعود.. أفيقوا أحسن لكم.. أنا جالس هنا كـأني في سرادق عزاء ولست في سهرة مزاج.

يقول سمير:

ـ البقية في حياتك يا نعيم.

يكح الصامت، ينطق بسرعة الكشك ذو الصوت الجهير:

ـ بس.. سمع.. هس.. خليل سيتكلم يا رجالة.

يعاود خليل تسليك صوته:

ـ أنتم تعرفون أن عملية الآثار كانت ســتعود علينــا بثلاثيــن مليون دولار على الأقل، وكنا ثمانية.. أي أن كل واحد كان نصيبـه في حدود أربعة ملايين، بالمصري خمسة وعشرين مليون جنيه.

تحمس سمير (المستر) وكح هو الآخر، فاستعدوا لسماعه:

ـ ساعتها كنا سنعيش أسياد الناس كلها.

قال شلبي:

ـ لم نقصر يا مستر.. المكان كان تحت البلاطة حتـــى آخــر لحظة، والمشتري الأجنبي جاهز، والعينات المبدئية فتحت شـــهيته واستعد بفلوسه بعد أن سأل خبراءه، واتفقنا مع الحفار والعمال.

قال الكشك ذو الصوت الجهير:
ـــ وجمعنا الفلوس من بعضنا، ورشينا على الكبير والصغير في الدولة وخارج الدولة.
ـــ كل السكك كانت مؤمنة.
ـــ لا داعي لجلد أنفسنا.. الغدر هو السبب.
ـــ المعفن مدير عام الآثار جرجر ناجي وشريف ونقلوا الاتفـــاق إلى شعبان ورجاله.
سمير يضرب جبهته.
يقول خليل:
ـــ الحقنا بالدور الثاني.
يجيبه الكشك:
ـــ عيوني يا خلّة.
يعلق شلبي ناظراً إلى خليل ذي الشعر المفلفل:
ـــ تعال يا نعنع نشتري دستة بيرة.. القعدة فقيرة والدماغ صـــاح أكثر من اللازم، وهذا يؤدي إلى صدام بين القارات.
يقول بشندي ذو العين الزجاجية:
ـــ أخيراً عرفت أنك رجل بحق وحقيق.
يرد شلبي ساخراً:
ـــ وماذا كنت تظن يا ربع؟
يضحك المستر سمير فيسألونه، يقول:
ـــ فكروني بنكتة قالتها أختي ندى.
ـــ حذار تكون نكتة مثقفين.
ـــ نكت المثقفين أوسخ من نكتنا مائة مرة.
ـــ قل قبل أن أضحك على روحي.
يقول سمير:
ـــ مؤلف إنجليزي اسمه مستر شو.
ـــ مثلك يعني.
يعلق سمير:

ـ هو إنجليزي أصلي وأنا تقليد.. ارتحت.
يضحكون فيتابع:
ـ كان مستر شو يكره رجال حزب معين، وكانوا هم أيضاً يكرهونه، فلما قابله أحدهم أراد أن يسخر منه، قال له:
ـ عذراً يا مستر شو، وأنت قادم من بعيد حسبتك امرأة.
فرد مستر شو: أنا الذي يجب أن يعتذر، وأنت قادم من بعيد حسبتك رجلاً.
يسرع المفلفل نعيم بالضحك وشلبي ثم الباقون، ويقول الكشك جهير الصوت:
ـ ما دمتم فتحتم الصندوق، أنا عندي نكتة بايخة.
ـ واحدة بس؟.. كل نكتك من هذا الصنف.
قال بشندي:
ـ انكتم يا نعنع واسمع.. قل يا كشك.
ـ استشهد فلسطيني وصعد إلى السماء، ذهب إلى الجنة ووقف يسأل عم رضوان عن السكة، وكان يوزع الموتى حسب الجنسية، قال له: أنا فلسطيني.. شهيد.
قال رضوان: الفلسطينيون في المخيم هناك آخر الجنة على الشمال.
تمضي لحظات ثم يضحك البعض نصف ضحكة ويصمت الآخرون، ويقول نعنع المفلفل:
ـ ألم أقل لكم.. هيا بنا يا شلبي.. لو سمعنا خطبة سياسية كان أرحم من نكت الكشك.
يخرجان، بينما يقول سمير في ضيق:
ـ لا يوجد عندكم في جحر الفئران هذا إلا مطرب صوته مثل فرشة بلاط تحك بها سيدة سمينة أرضية حمامها المعفن.
يقول خليل صاحب الشقة:
ـ لا يوجد في مصر حد لا يحب السلطان عبد الحميد غيرك
ـ من.. سلطان تركيا؟

ـــ المطرب.
ـــ مطرب الإسطبل.
يطلع عليهم صوت الكشك كالجدار العازل.. فتضعــف إضـــاءة الصالة المعتمة:
ـــ أنا عندي كلام كبير، لن يخرج من نافوخي إلا بعـد أن أروي حلقي بجردل بيرة.
ـــ اكشف الغطا.
ـــ ارموا بياضكم.
ـــ لا.. وانت الصادق سوادنا.
ـــ عندك حق.
قال بشندي:
ـــ تعرفت من أسبوع ببنت روسية آخر حلاوة.
ـــ اظهر وبان يا نداغ اللبان.. حلاوة الشغل في السُكّيت.
ـــ صدفة وحياتكم.. المسألة آخر فلس.. ســليم صـــاحبي كـــان يبيض لها غرفة.. ومر عليها بشركة السياحة التي تعمل بها.
يقاطعه كشك:
ـــ ما دخل سليم بالنقاشة؟
ـــ سمع أنها بحاجة لنقاش، عرض عليها أن يدهن لها الغرفـــة والحمام، طلبت أسطى مبلط، قال لها: صاحبي مبلط.. أنـــا عنـــدي فكرة تمشي الحال وتسد.. لاحظت أنها ضحكت لي.. وعملت لـــي شاي، قبل المغرب عملت لي ساندوتش جبنة رومي.. بعد المغــرب أصبحنا أصدقاء.
ـــ وبلطت في الخط.
ـــ الجميل في المسألة أنها تدفع ثمن أي مشروب وأي مأكول
ـــ فيه فرصة للوقت اللطيف؟
ـــ عشرة على عشرة.
ـــ وأحبابك يا أناني.
ـــ لا.. الزم حدك.. ممكن أعرفك بالبولندية.

ـــ لا أرتاح في البولندي.. نفسي في الإيطالي أو الفرنسي.
قال بشندي:
ـــ آخر خبر.. أنت عارف يا سمير صبري زميلنا في الكلية؟
يمط سمير شفته..
ـــ صبري يا جدع.. ابن سايس جراج العتبة، الذي كان معنا في أولى.
ـــ الطويل الأسمر أبو شعرة بيضاء.
ـــ تمام.
ـــ تخرج من زمن واشتغل.
ـــ عارف شغلته؟
ـــ لا.
ـــ شحاذ.
الجميع: شحاذ!
ـــ لف مصر كلها كعب داير.. شركة شركة ومصنع مصنع بلا نتيجة، يقرأ الإعلانات في الصحف حرفاً حرفاً ويقدم لأي وظيفة خالية حتى لو في الصرف الصحي ولا نتيجة.. اشتغل شحاذا.. ركب جبساً في قدم وذراع، وطول شعر رأسه ونكشه وطول شعر ذقنه في الأول وبعد شهر أصبح يستخدم المستعار.. تدرب على رعشة يديه، وهو الآن يكسب مائة جنيه في اليوم.. وصله خطاب التعيين من شهر، استلم العمل من باب الوجاهة الاجتماعية في وزارة التخطيط.. اشترى سيارة صغيرة ليخرج من العمل ويغير فيها ملابسه ويبدأ عمله الحقيقي الذي يعتز به.
ـــ برافو.
ـــ نعمل كلنا مثله.. عمل شريف.
ـــ أخوه الكبير مهندس سافر إلى السعودية منذ خمس سنين، لم يوفر ما وفره صبري في سنة.
يعود نعيم حاملاً ثلاث زجاجات، وشلبي حاملاً أربعة.
ـــ أين الدستة يا فالح أنت وهو؟

ـــ خلصت المصاري.
ـــ كل ما كان معنا دفعناه في السعة، غليت البيرة.
ـــ حتى البيرة غلوها، ربنا يأخذهم بحق جاه النبي.
ـــ لن تكفي.
قال الكشك:
ـــ هات لي يا حبيبي هنا هات.. أتمنى تكون "ثلج".
مد نعيم يده بزجاجة إلى الكشك:
ـــ امسك.
ـــ سأريكم كيف أشربها على فم واحد.
ينبهه سمير:
ـــ ليس لك غيرها يا كشك.
ـــ أريد زجاجتين لأحكي لكم عن المشروع الكبير.
ـــ كان ذلك في ظل النظام العالمي القديم.. أمـــا الآن فالنظـــام تغير.. الدستة أصبحت سبعة ونحن ستة.
ـــ لا علاقة لي.
ـــ تمهل، واشرب كل ربع ساعة رشفة.
ـــ زجاجة لا تحرك شعرة في رأسي.
يصرخ شلبي فجأة في نعيم:
ـــ هات الزجاجة منه.. لن يلمس أحد شيئاً قبل أن نجمع ثمنها.. طلع يا حبيبي انت وهو.
قال بشندي:
ـــ أنا مفلس يا جماعة..
قال سمير:
ـــ معك دولارات ويورو.. ألست تتـــاجر فـــي العملـــة أنـــت وصاحبك مدحت ومحاسب البنك أبو منخار.. اسمه.. ناسي اسمه.
ـــ كان زمان.
ـــ غيرتم عشرين ألف دولار من يومين لرجل أعمال.
ـــ كنت واسطة فقط.

ـ الواسطة أكبر مستفيد.. تأكل من الاثنين.. ادفع.
ـ أنا..
ـ ادفع.
بهدوء استطرد:
ـ خليل صاحب المكان لا يدفع.
علق شلبي: لا تخف يا مستر.. النظام نظام.
قال نعيم: الحساب في يد أمينة.
قال بشندي: لا.. في يد نعيمة.
قال نعيم: لا دخل لي بالحساب.. إنه في يد شلبية.
الكشك لم يكن ينوي الدفع، وعندما أحس بغضبة المستر رمى خمسة جنيهات.
بعد أن بدأ بشندي يشرب قال:
ـ مستعد أدفع ثمن السابعة التي ستبقى.
أسرع جهير الصوت يقول:
ـ خليها يا شلبي.. ممتاز على وصول.
قال الجميع في دهشة: ممتاز.. أين أراضيه الآن؟
ـ ألم يكن يحاول الغناء؟
ـ حاول ونجح، ويحضر شريطاً هذه الأيام.
ـ لابد أنه رأى أن الغناء أفضل من البطالة.
رفع الكشك صوته ولم يكن بحاجة إلى ذلك:
ـ البيرة بدأت تعمل على خفيف، وأنا عندي كلام.. من سيسمع؟
قال الجميع: كلنا.
ـ الفكرة في الحقيقة فكرة ممتاز
أسرع بشندي يقول: أكيد مخدرات.
ـ موضة وبطلت.
ـ المخدرات لا تبطل أبداً.. سرها باتع وفلوسها مضمونة
ـ عندك حق.. التوزيع زاد جداً.. تلامذة الإعدادي تتعاطى

ـــ وخطرها قل.
ـــ كيف؟
ـــ رجال الشرطة تعبوا من القبض على الناس.
ـــ مضطرون للقبض تقريباً على كل الشعب.
ـــ إذا أمسكوا بواحد يتاجر أو يوزع، يــهددوه، يــا الدفــع يــا البوكس.. يدفع أحسن له ولهم، ويمشي كل شيء بهدوء.
قال سمير:
ـــ ومع ذلك فكبار التجار وطوا الروس حبتين.
يغني نعيم:
ـــ علشان ما نعلى ونعلى.. لازم نطاطي نطاطي نطاطي.
قال خليل:
ـــ الآن نطاطي فقط من غير ما نعلى.
أسكتهم الكشك بصوته:
ـــ الفكرة التي يعرضها عليكم ممتاز.
أسرع بشندي قائلاً:
ـــ مؤكد فكرته القديمة.. فتح كباريه، ويضمنا معه.. فريق عمل منسجم.
ـــ صحيح.
ـــ المحلات كترت.. أصبحت كما الهم على القلب.. الشـــوارع كلها مكونة من مطعم وكباريه وكوفي شـــوب.. مطعـم ومقـــهى وموبايل، كوفي شوب وكباريه ومطعم.
يقاطعه سمير:
ـــ ينتحر الشباب لأجل خاطرك.
ـــ انتحروا فعلاً.
ـــ ثلاثة أرباع شباب البلد بطالة.. حتى الشـــغل فـــي مكـــاتب الحكومة بطالة، ومعظم الأعمال الخاصة تحايل علــــى المعـــايش، لكنها في الحقيقة بطالة ونصب.. فلوس تذهب وتجئ بالوهم.
يقول نعيم:

ـ يعني نوافق ونشترك.
يقول سمير:
ـ لا أوافق ولا أرفض.. أنا فقط أقول إن كل الناس تبحث اليوم عن المال حتى الأغنياء، وطبيعي أن يبحث عنه عشرة مليون شاب.. البلد تغرق يا جماعة.
ـ ونحن أيضاً يا مستر.
ـ ما الحل؟
يسمعون طرقاً على الباب.
يقول الكشك:
ـ تفضل يا ممتاز.
يدخل شاب أسمر أذناه كبيرتان وشعره أسود فحم يلمع ويتدلى على جبهته، يؤكد سمار وجهه البدلة البيضاء الشاركسكين وكذلك الحذاء الأبيض المدبب، وفي رقبته تلمع سلسلة ذهب وبصحبته فتاتان صغيرتان نسبياً، سناً وحجماً.. يقول:
ـ خشوا يا بنات.. سلموا على "الأناكل".
نعيم: كل حياتك أطفال يا ممتاز.. ألن تكبر أبداً؟
يزغده شلبي: انكتم.. كله نعمة.
يقول خليل:
ـ تفضل يا ممتاز.. بيتك.
يجلس الجميع، ويجلس ممتاز إلى جوار سمير الذي يسأله: الشبح معك؟
يمط ممتاز شفته: عملت حادثة وبعتها أنقاض والآن معي دوجان.
ـ والبنات؟
ـ قلت ربما يسدوا خانة.. يصهللوا الليلة "الكحيانة".
يقول شلبي:
ـ ممتاز.. رجل ممتاز.
وردد الكشك ما قاله، وكذلك الجميع.

قال سمير:
ــ صغيرات.. ١٤، ١٥ سنة.
قال خليل:
ــ كنتم تسألون عن الحل.
قال ممتاز:
ــ ٢٠ سنة.. حلوين؟
ــ ممتاز.. يا ممتاز.
قال خليل:
ــ العناية الإلهية هي التي أرسلتك.. فشكراً للعناية الإلهية
ــ شكراً.. شكراً.. شكراً.
مال سمير على ممتاز وقال هامساً:
ــ تصرف وشوف لي سكة لأوروبا.
ــ أي دولة؟
ــ إيطاليا.
ــ تاهت ولقيناها.
ــ بجد.
ــ أمهلني أسبوعين.. الواسطة سافر فعلاً إلى إيطاليا.
ــ لو تمت، أعملك تمثال بجوار تمثال الحرية في نيويورك.
ــ كل أملي أخدم أصحابي، ومكافأتي رضاهم.
ــ لن أفاتحك في الموضوع مرة ثانية.
ــ انتهى.

(٦)

وهو في نصف الصلاة متصلاً بربه.. خاشعاً تماماً وذائباً في الملكوت، يجدد الشكر لله على أن وفقه في العثور على ولده سمير، كان ينوي أن يطيل بعد الصلاة الدعاء كي يهديه الله ويرده إلى طريق الصواب، ويثبت عقله في رأسه، وينثر بعض قطرات الإيمان في قلبه لعله يمتلك القدرة على إعادة النظر في سلوكه ودراسته وحياته كلها.

وهو في نصف الصلاة أحس بسمير يفتح الباب خارجاً شبه متسلل.. سلم يميناً وشمالاً على الملائكة، وأسرع يناديه قبل أن يغلق الباب خلفه.. لحقه في السنتيمترات الأخيرة التي كانت تفصل الباب عن حلقه.. بهت سمير فلم يكن يتصور أن أباه يمكن أن يخرج من الصلاة لأي سبب، فكيف يترك الله بجلالة قدره ويتجه نحو عبد حقير مثله!.

ـ تعال يا بني.

تأفف سمير وانزعج.. انقلب وجهه، وقال بزهق:

ـ نعم.

قال أبوه برقة تصل إلى حد التوسل:

ـ أود الحديث معك.

ـ عندي موعد.

ـ الساعة تدق الثانية عشرة.

لم يعلق سمير.. تذكر أن الله لم يفرض صلاة في منتصف الليل، حسب معلوماته المتواضعة جداً في الدين أن آخر صلاة في اليوم هي العشاء بعد المغرب بنحو ساعة.. تخلص من دهشته لصلاة أبيه المتأخرة وعدم إكمالها بالخروج المتعجل والغريب، ومضى يقدح ذهنه بحثاً عن عذر قهري يرغم أباه على تركه.

مد أبوه يده إليه، وتحرك لسانه بصوت متحشرج وواهن:
ـ اجلس معي قليلاً.
ـ ورائي مصالح.
ـ لن أعطلك كثيراً.
إذن فهو يريد أن يبدأ حديثاً يمتد حتى الصباح يعوض به العودة الصامتة طول الطريق.. مال عليه وفي حنان سأله:
ـ نحن وحدنا.. أريدك أن تصارحني.
عاد سمير للشرود.. كان منذ ساعة يود لو انحنى والتقط حجراً من الأرض ودش به رأس أبيه، كما يحطم بصلة.. الآباء عموماً هم سبب أزمة الشباب، ووجودهم منذ البداية في نظر سمير وزملائه خطأ فادح.. كيف توصل منصور الشامي، والدي العظيم وموضع فخري إلى منزل خليل السقا؟!. كيف استطاع هذا العجوز الذي قارب الخامسة والستين أن يعرف طريقه إلى الوكر السري؟!. بيت تحت الأرض وفي آخر الدنيا ولكي تصل إليه تركب جميع المواصلات التي خلقها الإنسان، وتضرب بأقدامك في الظلام وتسقط عدة مرات حتى لو سبق لك دهس الطرق.. لابد أن أعرف من أوصله إلى هناك ليندم على اليوم الذي حملته أمه في بطنها النتن، فمن المؤكد أن آباءه عديدون.
المسألة ليست مجرد وصوله إليَّ، المسألة أن المكان أصبح مهدداً يمكن أن يصل إليه السذج أمثال أبي، فما بالك بأولاد الحرام.. المخابرات المركزية الأمريكية والكيه. جي. بي والموساد فشلت في التوصل إليه، وعندما تعلم أن أبي الذي لا يعرف غير المقهى والمسجد ومكانه البعيد جداً في طابور الخبز، وعادة ما يكون في شارع آخر غير الشارع الذي فيه الفرن حيث يتلوى الطابور ويمتد، وأبي صابر وغير متوتر، تتمرغ الآمال العظيمة في جنبات روحه بالحصول على خمسة عشر رغيفاً ساخناً حتى لو كان نصفها محروقاً.
ـ ماذا قلت يا سمير.

ـ قلت الله يخرب بيتك.

قال ذلك في سره، فقد كان في قمة الغيظ لأن الدور كان عليـــه ليدخل إلى البنت الحلوة.. إحدى بنتي ممتاز.. قصيرة قليلاً، لكنـــها جميلة وبطة ودسمة ووجهها يتحدث بلغات عديدة خاصــــة شــفتاها وعيناها.. خليل أخذها ودخل غرفة والكشك أخذ الأخـــرى ودخـــل غرفة.. اتفقنا بعد نزاع محدود أن الدور عليَّ أنا ونعيـــــم.. طبعـــاً ممتاز لن يشترك وبشندي طلب إعفاءه، فقد أصبح كل ما لديه مـــن حق الروسية، وأكد أنه لن يخونها أبداً بعد أن ثبت له أنها لم تخنـــه وأنها مع غيره رجل.. قلت لخليل: أنا بعدك.. أعرف أنــــه يدخـــل بنصف دماغ ونصف آلـــة ونصـــف مـــزاج.. وأن دوري ســـيأتي مبكراً.. خليل رجل محترم ـ وفي الحقيقة رغماً عنـــــه ـ أوفـــى بوعده.. لعبت يده في أكرة الباب التي تعاكس الفاتح قليلاً.. عندئـــذ سمعنا طرقات على الباب الخارجي.. بعد أن أطل برأسه، ولمحتـــه بائتباس فقط.. عاد بسرعة.. أهذا موعد يطرق فيه الباب إنسان، إلا إذا كان شخصاً حقيراً أو بوليس.. ليت خليل خرج ودخلت مكانــــه، وليحدث ما يحدث حتى لو أشعلوا النار في الوكر.

فكرت أن أنقض على هذا الطارق فأخنقه ويرتاح الجميع.

ـ لماذا لا ترد يا بني؟

ـ ..

ـ هل تتعاطى مخدرات يا سمير؟.. صارحني يا بني.. ربمـــــا استطعنا أن ننجيك من الضياع.

ـ لا.

ـ إذن مالك؟.. دائماً شارد.. دائماً في الشارع.. دائماً غائب.

تنهد سمير وتمنى أن يشعل سيجارة، قال في نفسه:

ـ أفسدت الليلة الجميلة يا أبي.. حرام عليك.. أين تذهب مــــن ربك؟.. سوف تسألك الملائكة عما فعلت الليلة.

ـ مالك يا بني.. مؤكد أصحاب السوء الذين تجالسهم.

ــ أنت رجل أهبل.. أنت لم تر شيئاً.. من حسن الحــظ أننــي منعتك أن تأخذ فرصتك، وأنت أيضاً منعتني من أخــذ فرصتــي.. أمثالك ينامون من المغرب وبالكثير بعد العشاء..

ــ لماذا لا ترد يا سمير؟.. ارحمني يا بني وأجبني.

ــ كأن قلبي كان حاسس.. أول ما سمعنا طرقاً على الباب، الكل طبعاً شب برقبته وفز عن الأرض.. بصينا لبعض، وفي عشر ثانية كل واحد حاول أن يخمن من القادم من نوع الطرق وعدده وشدته.. عيني لم تنزل عن الباب.. كنت في حالة غيظ كاملة من البــابين.. تأكلني الحيرة.. قال البعض لنعيم: افتح. قال نعيم لكشك: افتح. لــم يقم أحد، توقعت أن كل واحد يفكر في باب الغــرف لا فــي بــاب الشقة، يعتزم التأهب للدخول حتى عكس الاتفــاق.. ســاعتها لــن يستطيع أحد إخراج من دخل لو انهدت الدنيا.. بــاب نخــاف منــه وباب نشتاق إليه.

ــ قل لي يا بني.. هل ذهبت إلى الشئية؟.

فكرت من غيظي أن أنهي الوضع.. بعد أن تكــرر الطــرق.. وأنهض لفتح الباب على شرط واحد أن أدبه روسية أجيــب أجلــه مبكراً، ويمكن تسوية الأمر بعد ذلك مع عزرائيــل.. لا يجــب أن يكون الحل غير ذلك.

أنا مازلت لا أفهم حتى الآن، كيف قفزت إلى الباب، رغــم أن ممتاز قال في آخر لحظة وهو يهم:

ــ أفتح أنا.. خادم القوم سيدهم.

كنت قبله.. أفتح.. أجد هذا الرجــل المجنــون فــي وجــهي.. منصور الشامي.. انفجار شديد في رأسي وجسدي وروحي.. انقلب كل شيء داخلي، حتى أمعائي.. نسيت كل شيء إلا أن هذا الطارق هو أبي المبجل لعنة الله عليه.. أول مــن ســيدخل جــهنم وبئــس المصير.

فكرت أن آخذه في صدري وأدفعه بعيداً وأغلق من خلفي بــاب الوكر.. طلب أن يدخل ليتعرف على زملائي.. يــا غلاســتك يــا

أخي.. قلت له: مرة ثانية، طلب أن يشرب كوباً من الماء، سأسقيك من أقرب مقهى.. شربت السم.. طلب أن يدخل الحمام.. طرطر يا سيدي في حجري.. في كل المنطقة.. لا تترك سنتيمتراً واحداً لا تبول فوقه، ربما هذا يريحك ويريحنا منك.. تبول كما تشاء.. تبول على منطقة مبارك كلها.. الله يخرب بيتك.

— إذن قل لي ماذا يرضيك لتبقى في البيت؟.. تذاكر وتنتبه للكلية.. الأصغر منك دخلوها بعدك وتخرجوا.

— واشتغلوا؟

— بعضهم.

أخيراً بدأ يستمع إلى والده ويحاوره.. عاد بوعيه إلى الشقة بعد أن أدرك فقدانه كل شيء:

— عشرة آلاف خريج تجارة من كلية واحدة في سنة واحدة، كم منهم يا أبي وجد عملاً؟

— ليس العمل هو المهم.

— ما المهم؟.. المصاريف.. هي هي.. الطالب يأخذ من والده كالخريج العاطل، وربما الخريج يأخذ أكثر، على الأقل من أجل البحث عن عمل.

— يا بني بالراحة.. واحدة واحدة.

— يا والدي كل شيء واضح.. العيال الصغيرة تعرف ما لا تعرفه.

وجدها عبارة ثقيلة وإن كان مقتنعاً بها جداً جداً فاستأنف:

— مع احترامي لحضرتك.

— لا داع للاحترام ولا تشغل بالك به.. أريد أن أطمئن عليك.. أنت وأختك.. وأنت أهم.

— من ناحيتي اطمئن.

— قلبي يحدثني أنك في مشكلة.. مشتت، تبحث عن شيء ولا تجده.

انفرجت أسارير سمير قليلاً دون ابتسام وقال:

— هذا هو الكلام.. اقتربت مني قليلاً.. أنا أبحث عن فلـــوس.. أريد فلوساً كثيرة، يجب أن يكون في جيبـــي كـــل طلعـــة شـــمس عشرون جنيهاً على الأقل.

— كيف ومن أين ولماذا ومتى؟.. أنت مؤكد مجنون.. أنا مرتبي ٣٥٠ جنيهاً، ضع فوقهم نصفهم حوافز، يكـــون المجمـــوع ٥٢٥، يعني لازم نصرف كلنا ١٧ جنيهاً، وبالمناسبة أنا سأكمل الخامســـة والستين بعد ستة أشهر، وأحال للتقاعد ولا أحصل ساعتها إلا علـــى ثلاثمائة جنيه فقط.. وطبعاً نحن أحسن من غيرنا.

— هذا الوضع لا يلزمني ولا يناسبني.

— والحل؟

— سوف أتصرف، فقط سيبوني في حالي.

— لا يبقى غير المشي البطال.

— لا يهم.

— وربنا..

— ..

— آخر مشوارك السجن وضياع مستقبلك وضياعنا معك.

— ..

— يا بني اصحى.

— يا بابا كلامك لن يفيد، وأنت ترهق نفسك بلا مبرر.

— أعز الناس أتركه للزمن والمتاعب؟.

— اتركه.. هو نفسه يريدك أن تتركه.. يرجوك أن تتركه.

— يا بني.. أنت الباقي لنا بعد رحيل أخيك، ولا نعرف إذا كـــان حياً أو ميتاً.

— أخي مات من زمن.

— كيف عرفت؟

— منذ تخلى عنا وراح يصلح الكون.

— لا نعرف شيئاً عن أحواله.

ـــ كل بني آدم معلق من عرقوبه.. لا تشغل بالك.. فكـــر فـــي ندى فقط.. حتى ندى لا تفكر فيها.
ـــ ألا يهمك أمرنا؟
ـــ ..
ـــ أجبني يا سمير.
ـــ يا بابا.. اطمئن.. سأتصرف.. أستطيع أن أستخرج الفلـــوس من عين الجن الأزرق.
الرجل تتقلب على وجهه كل الألوان.. جف ريقه.. ارتفع لديـــه الضغط.. دماغه ستنفجر.. سمير يقوم ويجلس.. يتقلب على جمـــر نار الحصار، والده غير مستعد لتركه وهو في هذه الحالة.. وعقلـــه مشحون بأفكار مجنونة ومدمرة.. روحه معلقة بروح ولده.
ـــ ضيَّع أبي عليَّ الليلة، ويكملها نصائح لا لون لها ولا طعم.
ـــ هذه ليست حياة يا سمير.
ـــ ما هي الحياة إذن؟. فهمني.. أنت تتحدث عـــن حيـــاة قبـــل خمسين عاماً.. كانت الجاموسة تشترى بثلاثة جنيهات، اليوم بســـتة آلاف، وكان الابن يتزوج في الدار مع أبيه وأعمامه.. الحياة كـــانت ذات إيقاع مختلف وشعور مختلف.. الناس تساعد بعضها والمطالب قليلة.. أبعد مشوار كان عدة كيلومترات، وأغلـــب النـــاس تركـــب الحمير والكارو وبعدها ركبوا الترام أبو سنجة.. الآن الوضع..
قاطعه أبوه:
ـــ أتفق معك في كل كلمة وسوف أختصر لك الطريق.
ـــ يا أبي.. الطريق واضح.
ـــ اسمعني يا بني ربنا يهديك.. في الدنيا صنفان من النـــاس.. أغنياء وفقراء.. الأغنياء لا مشكلة لديهم، يســـتطيعون أن يغرقـــوا أولادهم في الأموال.. من ألف إلى مليون.. كويس؟
ـــ كويس جداً.
ـــ الفقراء لهم سكة أخرى للحصول على المال، وطبعـــاً نحـــن منهم.

ـــ طبعاً.. نحن أولهم بسبب حظنا الهباب.
ـــ نحن أفضل من غيرنا ألف مرة.
ـــ المهم.
ـــ يا بني أنت تأخذ الأمور بالظـــاهر.. الغنـــى والفقـــر ليـــس الجوهر.
سمير يضحك عالياً بغيظ،ويخبط كفاً بكف، ورغم ذلك فقد حاول ألا يتجاوز حدود الأدب.. على الأقل من وجهة نظره.
ـــ الفقراء يا سمير لهم سكك أخرى تنقسم إلـــى قســـمين: قســـم يحصل على لقمة العيش ويحسن أوضاعه عن طريق العلم، وقســـم يحقق ذلك عن طريق العمل اعتماداً على الخـــبرة، مثـــل النقـــاش والحداد.. المبلط والسائق والميكانيكي.. السفرجي والحلاق.. عـــن طريق العلم يتخرج المهندس والطبيب والضابط والمحاسب.
ـــ ما علاقتي بهذا كله؟
ـــ ألست من الفقراء؟
ـــ هذا ما لا شك فيه.. نحن لسنا فقراء فقط، نحن نهواه ونمـوت فيه ولا نرضى له بديلاً.
ـــ ما قصدك؟
ـــ نحن لم نخلق فقراء.. لكننا الذين أفقرنا أنفسنا.
ـــ لا أفهم.
ـــ بالعربي يا والدي، مادمت تطلب أن نتحدث بصراحة.. أنـــت بالذات السبب في فقرنا.. فرص كثيرة أتيحت لك للكسب ولتحســـين وضعك المادي لم تنتهزها.. قررت البقاء في البيت والمسجد علـــى أمل أن يرزقك الله وأنت قاعد، لكن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.
ـــ ما هذا الكلام يا ولدي؟ أكاد أشم رائحة غير طيبة.
ـــ يا والدي الروائح ألغيت.. الشيء الذي لا يزال سارياً وحتـــى يوم القيامة لارجان.. الفلوس، المني، انظر لزميلك مهران يركـــب نيسان، وزميلك جلال بنى عمارة، وزميلـــك.. وزميلـــك.. نســـيت اسمه.. لا يهم، لديه شاليه في الساحل الشمالي.. أقل واحد في أبنائه

مصروفه لا يقل عن ثلاثين جنيهاً في اليوم، ويركبون التاكسي ويدخلون المحلات الكبيرة ويلبسون المستورد والغالي.
ـ أعوذ بالله.. اخص عليك.. تريدني أن أكون.. هذه آخرتها.
ـ أرجوك يا أبي.. يكفي ما سمعته منك وما سمعته مني.. أرجوك فكر فيما قلته لك.. سلام.
خرج سمير وصفق الباب خلفه بقوة، لكن الباب خبط والده بقسوة في قلبه، وسقط في غيبوبة لحظات.. لقد غاص السكين وغار في الجرح وانتهت الجلسة إلى المزيد من القلق بل الرعب.
عاد منصور إلى وعيه ثم تنهد.. عندما تذكر كلام ولده أوشك على السقوط من جديد في غيبوبة.. رأسه تدور.. الدنيا تدور.. مال على جانبه دقائق.. استغفر ربه طويلاً.. ثم نهض ودخل غرفة النوم.. تمدد على الفراش.. البيت يهتز.. السرير يهتز.. تنهد من جديد ثم هب من رقدته إذ تذكر أنه لم يصل، قرر أن يتوضأ مع أن وضوءه مازال سليماً.. وعزم أن يدعو طويلاً لولده بالهداية.

ألأني أصغر الأبناء أتذكر أمي كثيراً.. أم لأني أكثر من بقيت في حضنها؟.. ملتصقاً بها.. لا آكل ولا أنام إلا معها.. استمر ذلك النهر الصافي والعش الدافئ حتى الخامسة عشرة وربما السادسة عشرة، مع أن أختي نوال التي تكبرني بسنة واحدة فقط كانت معي، نلعب معاً ونأكل معاً.. نتعارك كل دقيقة، ونتصالح كل دقيقة.. ما أجمل الطفولة حتى في العراك.. طبعها صعب، ربما كان ذلك لأنها الوحيدة بيننا نحن الذكور، أنا ورءوف وكبيرنا سيد غير حسني الذي مات، وأفضلنا جميعاً كان حسني، ربما لذلك مات.

بالأمس استيقظت على صراخ أحد أولاد نوال، لعله الأصغر، دائم الصراخ لأنه دائم التطلع إلى ما في أيدي الاثنين الأكبر، وإذا لم يلبيا طلبه أطلق عقيرته وهي حادة وشرسة، وكأن لصوته أسناناً تشرخ الآذان.. نوال طلقها زوجها وجاءت بأولادها تعيش معنا، ولم يكن من حل.. كانت من قبل ذلك تغضب كل أسبوع ونردها، إلى أن ضاق بها زوجها وحلف عليها بالثلاثة وساب البلد كلها لأجل خاطرها وسافر للعراق، لكنه لم يتحمل أكثر من ستة أشهر، فقد شعر أن زوجته أرحم من صدام.

رءوف فر مبكراً من الحي الغارق في المجاري لأن المواسير دائما تنفجر.. أصلحها مجلس المدينة عدة مرات، لكن المقاول الذي بناها من الأساس كان في الأصل بائع بليلة وفشار.. لم يعجبه كاره، والفشار تأخر عليه في الثراء فقرر دخول عالم المقاولات، وكان الصرف الصحي في حينا ينتظره كي ينطلق في مشروع النهب بدءاً من مدرسة مبارك الإعدادية مروراً بالمساكن الشعبية والمسجد القديم والسوق والحي القديم والشونة وحارة الحدادين وورش النجارة والدباغين ومخازن الخشب وورش الفخار انتهاء

بشركة مبارك للصباغة والتجهيز ومعسكر قوات الأمن المركـــزي الخاصة بالمنطقة الغربية.

ما إن خرج رءوف حتى جاءت نوال بجيشها الصغـــير الــذي نتحمله فقط لحلاوة وخفة دم الولد الكبـــير ذي الســنوات الثــلاث ونصف.. ذكاء غير عادي وحيوية. ندهش كلنا لأن مجدي هو ابــن نوال، وابن زوجها جمال.. العصبي المتردد، عبد أمه، التائه الــذي لا يستقر على عمل.. تعجل والدي الله يرحمه زواجه من نـــوال.. ربما كان يريد التخلص منها، وإذا كان قد فعل ذلك لهذا السبب فــلا لوم عليه.

لم تستطع نوال البقاء في بيت الزوجية التعس لأن أم جمال فيــه وأخت جمال العانس التي تشبه أمها في الشكل والجوهـــر، ولا داع لارتكاب مزيد من الذنوب والخوض في أعراض الناس، لكـــن إذا كانت أم جمال مريحة وحنوناً أو لسانها لا يحتاج التقصير إلا بنسبة ٨٠% على الأقل، فما السر في رحيل زوجها لا إلى العراق ولكــن إلى العالم الآخر، بعد أن عاش عمره كله على المقهى ولا يعـود إلا إذا تصور أن زوجته نامت.. لكنها من عز النوم تصحو على نبض السرير وطقطقة الملا عندما يحط المسكين جسمه الضئيـــل عليــه وكأنها متفقة مع الملا على إبلاغها بوصوله.. أبدان تتســـلط علـــى أبدان.. لم ترتح نوال أو تنسجم مع حماتها.

تصورت أن أمي كانت في السرير إلى جواري، تنهمر دموعــها في صمت وتقول:

ـــ أخوك حسني لم يعد بعد.. أيام كثيرة مرت وهو غائب.. قـــم يا ياسر اسأل عليه.

كان حسني قد توفي قبل شهور.. لم يكن له صوت وإن كان لــه رأي.. لم يكن يغضب أو هكذا يبدو.. راض دائماً وودود وأول مــن يقبل القيام بالمهام المنزلية والأسرية.. فإذا مَرض شـــخص أســرع هو بإحضار الطبيب وأسرع بشراء الدواء.. تقــول أمـــي: عندمـــا عانيت الأمرين في ولادتك كان الوحيد المستيقظ إلـــى جـــواري..

يسرع إلى الداية ويسرع إلى أختي، ويجري لإحضار كل ما تطلب شهيدة جارتنا التي تحاول أن تكون داية.. متيمة بالمشاركة في التوليد من قبيل الهواية.

يهوى صيد السمك وتربية العصافير.. تقول أمي: أغلب ما أكلنا من سمك من يده وسنارته.. وكان من أجل تغيير الأنواع يذهب إلى ترع بعيدة وأنهار يركب لها ساعة ويزيد.

عصافيره في الصالة وفي البلكونة حتى الآن.. أوصتني بها أمي.. أقف أمامها طويلاً.. أتأملها وأتأمله معاً.. أراه كأنه داخل القفص، يطعمها بحنانه ونظراته.. يجلس أمامها، يرقب تصرفاته، يتابع عناقها وعراكها وقبلاتها.. تعلقها بأسلاك القفص وقضبانه.. مسكة أظفارها بالقضبان وصعودها عن طريق القبض بمنقارها على الأسلاك وقفزها على سقالات خشبية صغيرة، وكثيراً ما يسألها: مالك يا حلوة.. الحب لا يعجبك؟.. أغيره.. جبت لك عودين جرجير.. يللا بوسي جوزك الطيب.. يقول لي: تعال شاهد الجمال.. ارصد طبيعة العلاقات بينها.. كان العصفوران الأصفر والسماوي يتشاجران، أقول له إنهما يتشاجران، يقول: لا.. إنهما يلعبان معاً وسوف يتبادلان القبل بعد لحظات، وفعلاً.

أسأله: كيف يتبادلان القبل بالمناقير؟

يقول: المناقير ليست عظماً فقط، هي عظم رقيق فيه شعيرات عصبية رقيقة للغاية، ومن ثم تستطيع أن تنقل وتستقبل بعض الإفرازات اللذيذة والمثيرة التي تحرض على الجنس والمتعة، فيرضى مكل منهما بالقفص والقيد وضيق المساحة.. انظر.. الأنثى ذات اللون الأصفر والذيل الطويل، نصف بطنها أخضر.. كائن ضعيف وجميل، عنوان على الرقة وعبقرية الخلق، تلوي رقبتها لتنظف تحت جناحها، وتهرش فوقه، ثم تلوي عنقها لتهرش المنطقة الواقعة بين الرقبة وأعلى الصدر.

فجأة لمح في القفص الثاني محاولات مشبوهة للفرار، كان الذكر الرمادي دائم الصراخ والمستفز دائماً يحاول بمنقاره رفع الباب،

بينما الأنثى الخضراء تتأهب أمامه للخروج.. انزعج حسني وأسرع يربط الباب بسلك رفيع في القفص حتى لا يرفعه المتمرد الصغير.

سألته عن سر انزعاجه الزائد، قال: لو خرج أحدها من القفص معناه أنه سيموت ويموت رفيقه.. دهشت.. فقال: الذي يخرج لن يعود أبداً والصالة مغلقة فسيظل يطير ولن نستطيع الإمساك به، وإذا حاولنا فإنه سينقر ويخدش كل يد تمتد إليه بمنقاره وأظافره وهي أقسى مما تتصور.. ولن تستطيع أن تطعمه، ومن ثم يظل يطير ويتحرك ويتوتر دون طعام حتى ينهار وكذلك رفيقه الباقي في القفص لن يأكل انتظاراً للغائب، ويطول الوقت حتى يكتئب لوحدته وضياع الونس والحبيب ثم ينهار تماما ويذوي ثم يموت.

الحياة محتشدة بالأشياء الجميلة والعوالم الغريبة والطبائع العجيبة.. كلها فيما أظن دون مبالغة خلقت لأجل الإنسان الذي دلله الله ووفر له كل ما على الأرض وسخر له كل ما يحقق له آماله وأطماعه، ومع ذلك فهو مشغول بالبحث عن المال فقط وبعده الغرائز ويمكن أن يقال إن المال أصبح غريزة من الغرائز، وتحول مع الأيام ليصبح غريزة الغرائز وأعلاها.. أقوى من غريزة الأمومة والشهوة والطعام.. وأهم من النوم، حتى غدا الإله الحقيقي لبعض البشر، يتوجهون إليه بالعبادة، وكان يتعين أن تكون العبادة الحقيقية لله ولتأمل عظمته في خلقه، والاستمتاع بمطالعة لغة الروب وعبقرية صنعه، ولكم في كل ذلك جمال حين تريحون وحين تسرحون.

المصري ركب عفريت المال منذ منتصف السبعينيات من القرن العشرين ودمر حياته أو كاد، لأنه ضرب الأخلاقيات في مقتل، وضغط بقوة على زر الطمع والجشع، وهو زر تصعب على القوانين وعلى السنين إعادته إلى موضعه.

السادات رجل محنك وداهية ونظرته صائبة إلى حد كبير، ويريد كل الخير لبلده، لكنه لم يدرك حجم ما يرتكب من جريمة في

حق الشعب، والأسوأ حدث بعد رحيله.. لقد انطلـق المـارد ولـن تستطيع أي قوة أن تعيده مرة أخرى إلى القمقم.

كيف استدرجتني العصافير لهذا الحديث؟.. العصافير التي رباها حسني بقلبه وكامل أحاسيسه ثم مات، هي التي تذكرني بالســادات ورئيس مجلس إدارة الشركة الوطنية للحديد والصلب، حيث أعمل.

العصافير التي كان يكلمها حسني ويناجيها وأنا أتأمله وأتأملـها منذ رحل، هي التي تذكرني بزكريا جارنا.. زكريا عبد الراضي.

منذ سنوات طويلة طلب إليه أحد أصدقائه أن يبحث لشيخ عربي عن زوجة.. فزوجه من إحدى قريباته وطلب عمولة فحصل عليها، وسعى في زواج شيخ آخر من فتاة جامعية ابنة خفير فـي بلدهـم وحصل على عمولة أكبر.. أعجبته اللعبة فمضى إلى القرى التـي يعرفها والتي لا يعرف أحداً فيها.. يصادق بعض رجالها ويصـادق أيضاً بعض سائقي الأجرة العاملين مع الفنـادق وبعـض عمـال الفنادق، وعن طريقهم يوفر الزوجات، المصريات لشـيوخ العـرب ورجالهم سعياً وراء المال، حتى فتح مكتباً ولـه تليفونـات علنيـة وأخرى سرية، كما سعى إليه أهل الفتيات ليبحث لهن عـن أزواج، وأصبح يتلقى العمولات من هؤلاء وأولئك.

قلبي يتمزق كلما تذكرت هذه القصـص التعسـة، وتفاصيلـها البشعة.. في كل مرة قصة ومطاردة وكذب وتحايل.. وفي كل مـرة بلاغ للشرطة وأسئلة وملاحقة وضغط وغياب ضمير ودين وليـس غير عيون تفتش عن الدولار والريال، وغير مهم علـى الإطـلاق مسألة الشرف والعرض والسمعة والسيرة، أيام قليلة وكل ما يقـال حتى الإهانات تذروها الرياح ويتراكم فوقها رماد النسيان، وإذا كان مسير الحي يتلاقى، فسوف يلتقي الحي بـالحي جسـداً بـلا روح، وعقلاً بلا ذاكرة.. النسيان سيد كل المواقف ونحن أولاد النـهارده.. اعمل عملتك وقل "يا حيط داريني".

في كل مرة يجمع زكريا عشرة بنات، يرغب فـي تزويجـهن. يحضر العربي ليستعرضهن، يختار واحدة أو اثنتين.. قد يتزوجـها

أسبوعاً أو شهراً في فندق ويلقي بألفين من الجنيهات لأهلها ولزكريا ألفاً وأحيانا أقل.

يتزوج العربي عل سنة الله ورسوله حتى يشفي ضميره وينقذه من ارتكاب الزنى، وبعدها يرميها مع بضع مئات من الجنيهات، وقد يحملها معه إلى بلده لتبقى عدة سنوات، ثم يرميها مع أولادها على باب الطائرة لتعود بملابسها فقط.. في أحيان كثيرة يحدث هذا، وفي أحيان قليلة تنجح إلى حد ما تلك الزيجة وتبقى الزوجة مع زوجها العربي في بلده مكرمة بعض الوقت وصابرة بعض الوقت وقد تكون معززة طول الوقت حسب ظروف وطباع الزوج.

منذ أربعة أشهر حضر رجل من الخليج، وطلب من زكريا البحث له عن عروسة غير عادية.. أجمل البنات وسوف يدفع أي مبلغ حتى لو بلغ عشرين ألفاً.. سال لعاب زكريا.. فتش في عائلته، لم تكن هناك من تصلح، فكر في ابنته، لكنها لا تزال في الحادية عشرة.. ظلت ذاكرته تعمل بلا توان ليل نهار، ومعها ركضه في القرى حتى جمع عشر بنات، ثم تجاسر وعزم أمره وقرر عرض زوجته الثانية بين طابور البنات المعروضة.

كانت الزوجة الثانية واحدة من المعروضات منذ سنة ونصف، وتزوجها العربي شهرين ثم رماها فأخذها زكريا لأنها كانت جميلة جداً ورفضت كل ذرة في جسده وعقله التخلي عنها لمخلوق فاستبقاها لنفسه وفتح لها بيتاً وأنجبت له بنتاً بعد شهور قليلة لعلها ليست منه، لكنه سعيد جداً بحياته، ومصدر سعادته الوحيد هو أرصدته المتنامية في البنوك نقداً وفي سيارات الميكروباس عينيا وبعض الشقق التي يؤجرها مفروشة ومنها اثنتين لإسعاد البشر من الرجال والنساء.

لسوء أو لحسن حظ زكريا وقع اختيار العربي على زوجته.. كانت خطة زكريا أن يلهف الخمسة عشر ألفاً أو العشرين إذا ضغط ولعب ورسم والتف على الفريسة ثم يهرب من الموقف بزوجته في آخر لحظة. أطال الحبل كلما ضاقت الدائرة، والعربي

واع جداً ومفتوح العينين، ومعه أموال ورجال.. كتب العقد وحمـــل الزوجة إلى الفندق، وزكريا مازال يدبر الخطـــة ويجـــهز وســـائل تنفيذها كما اتفق على تفاصيلها مع زوجته، إلا أنها فشـــلت ودخـــل العربي بالزوجة إلى جناحه وزكريا يلطم ويصرخ أمـــــام الفنـــدق، وتلقى من الرجال والحرس ضربات ثقيلة حطمت عظامه إلا قليـــلاً، وأسرع إلى البوليس عندما أفاق مع الصبح.

كانت الزوجة قد ضربت العربي ضرباً مبرحاً اعتمـــاداً علـــى ضآلته نسبياً، وقوتها ومتانة بنيانها حتى تؤجل دخول الشيخ لليـــوم التالي وهي تحاول إقناعه بأنها زوجة زكريا وهـــو لا يصـــدق أن تكون زوجة زكريا ملكة جمال، فيزداد إصراره على التمسك بها.

عاد في الصباح يتحدث إليها باللين واعداً إياها بأن يعيشا معـــاً العمر كله، وأن يفضلها عن كل زوجاته ويكتب لها قصراً في بلاده وآخر في إسبانيا، وهو الذي سيقضيان فيه شهر العسل.. وهي تقسم له أنها زوجة زكريا، إلى أن اضطرت للبكاء من فـــرط إحساســـها بالإهانة.

عندئذ أدرك العربي صدقها، فقرر أن ينزعها من رأســـه وفـــي الوقت نفسه يؤدب الزوج التيس القواد.

استبقاها في حجرة مغلقة، ومنع الاتصال بها، وأمر بأن يحمـــل لها ما تشاء من طعام وشراب، وأبلــــغ الشـــرطة وتقـــرر حبـــس الزوجين بعد إعادة أموال العربي كاملة إليـــه.. وطلبـــت الزوجـــة الطلاق بعد خروجها من الفندق وقبل أن تدخل السجن، وفقد زكريـــا عقله بعد أيام وتم نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية.

كامل سركيس رئيس مجلس إدارة الشركة مثل زكريـــــا، مثـــل الآلاف غيرهما، تختلف الوظائف والأوضـــــاع، تتبـــاين الأســـاليب والأطماع، وتتنوع الثغرات، لكن الهدف واحد هو المال والمدهـوس بالأقدام واحد هو الضمير والمطعون واحد هو مصر.

كامل بك سركيس يبقى في مكتبه ليل نهار، يواصل العمل فـــي دأب وتفان، فتأمل خيراً في مستقبل البلاد.. نموذج رائع في متابعـــة

نشاط الشركة وحفز العمال على المزيد من الإنتاج، "وقل اعملـــوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.. ولا يضيع الله أجـــر مـــن أحسن عملاً".. الدولة تعتمد عليكم وترى أنكم الحصن الأخير لزيادة الإنتاج القومي".. وفي ذات الوقت يبذل أقصى جهده لسحب أكـــبر قدر من الأموال والإمكانيات والمزايا التي تتمتع بها شركة قوميـــة كبرى في الحديد والصلب تأسست من دماء الشـــعب عـــام ١٩٥٦ وبدأت إنتاجها عام ١٩٥٨ ليصب في شركته التـــي أنشـــأها فـــي ديسمبر ١٩٩١ بعد أن تم تعيينه رئيساً لمجلس إدارة الشـــركة فـــي سبتمبر ١٩٩١، أي بعد أربعة أشهر من تعيينـــه أســـس شـــركته الخاصة وبدأت العمل بعد عام واحد. بلغ عمرها الآن أكـــثر مـــن اثنتي عشرة سنة تغيرت خلالها واستنزفت الشركة الكـــبرى حتـــى تبادلتا المواقع فأصبح إنتاج الشركة الأم لا يتجاوز ٢٩% من إنتـــاج الحديد في مصر وشركته تنتج ٥١% وباقي الشركات ٢٠%، لقـــد تم بناء جدران الشركة الجديدة بأسمنت الأم، ومسلحها مـــن حديـــد الأم، وبعض آلاتها من جسم وعنابر الأم.

إنها العصافير التي كان يرعاها حسني النبيل صافي القلب، الذي أحب الناس جميعاً وكان تماماً مثل أمي ورحل قبلها، إنها العصافير التي تذكرني بأناس كثيرين.. كثيرين جداً، يحيطون بي فـــي كـــل مكان أذهب إليه.. في الشارع والعمل.. والمقهى، وفـــي قصـــص كثيرة يحكيها كل من تجلس معه لمدة دقائق.. القصـــص الوحيـــدة الآن، كلها عن الأحوال الغريبة لعشاق المال ومنهم من سبق ذكرهم ومنهم من كان من بيتنا.. بيت حسني وأمي، حيث كان يوجد أخـــي الأكبر سيد.

(٨)

عالم جبار وجذاب.. ثري وساحر ومجنون.. إذا مـــددت يـــدك وسلمت له نفسك، لم تجدها ولم تجد وقتك، وأفلـــت منـــك عقلـــك وطارت روحك داخلك وخارجك.. جرِّب.

الدكتور المشرف على الرسالة، مشغول جداً في الجامعة وفـــي غيرها، فهو رئيس مجلس إدارة مؤسســـة مـــن مؤسســـات وزارة الثقافة، وعضو مجلس الشورى وعضو المجلس القومـــي للمـــرأة، وعضو المجلس الأعلى لإعادة تأهيل الشباب، وعضـــو المجـــالس القومية المتخصصة، ونائب رئيس نادي مصر الجديدة ومستشـــار وزارة التعليم العـــالي، وعضـــو مجلـــس أمنـــاء اتحـــاد الإذاعـــة والتليفزيون وعضو مجلس الجمعية التاريخية ومستشـــار أكاديميـــة مبارك للعلوم وجامعة مبارك الدولية وأستاذ بعدة كليـــات حكوميـــة وخاصة، ورئيس لجنة إعادة كتابة التاريخ، ومرتبط بكتابـــة عـــدة مقالات أسبوعية لصحيفتين مصريتين وأخريين عربيتين وضيـــف دائم على جميع القنوات التليفزيونية المصرية والعربية، الأرضيـــة والفضائية.

لم أصرح له طبعاً بتقززي منه، ومن مهامه الجســـام والذيـــن اختاروه لها، كأن البلد خلت من العلماء والخبراء. لابد أنه يعـــرف وأصحاب القرار أن هناك مئـــات يموتـــون كمـــداً مـــن الإهمـــال والتجاهل، أكثرهم يفوقونه علماً وجدارة، آثروا الظل على إهـــدار الكرامة.

لفت نظري الدكتور إلى أهمية الرجوع إلـــى الإنـــترنت، ليـــس باعتباره مرجعاً، لكن لفتح الأبواب، وللتنقيب عن أســـماء بعـــض الكتب العربية والأجنبية التي تناولت الفـــترة التاريخيـــة المعنيـــة، والزاوية المحددة التي أركز عليها وهي (حالة الفلاح المصري فـــي

العصر المملوكي والتركي من ١٤٠٠ إلى ١٩٠٠) أي عبر خمسمائة سنة، انزعجت في البداية من طول المدة، وبعد البحث تبين أن حركة الحياة عموماً كانت بطيئة والأيام نسخ مكررة والأحداث متماثلة والتطور محدود.

من سمَّاها شبكة كان موفقاً للغاية، هي بالفعل شبكة.. مجموعة هائلة من الخيوط، يسبقها شعور كامل بأنك حر تفعل ما تشاء.. تفتح نوافذ وأبواب وتطل في عقول وقلوب.. تطالع حركة الكواكب وتنفذ إلى جحر ثعلب أو قاع بحر.. تستخرج الموتى وتعيد سؤالهم.. تغوص في التاريخ حتى ما قبل الإنسان الأول والعصور الجيولوجية وشكل الأرض قبل صورتها الحالية بملايين السنين.

تختار أي موقع وتنهل منه بقدر ما تريد وبقدر ما تستمتع، وبقدر ما تصبر.. مغارة علي بابا اللانهائية، مغارة على شكل غول، عرضه أكبر من عرض العالم، وسعته أعمق من سعة الزمان.. تركض في ساحاته حتى تكل، وهو لازال في بداية الترحيب بك، يمر معك إلى السراديب الأولى والأسرار الطافية على بحار المعرفة.. العلم الجديد خلق الوحش الجديد، والكمبيوتر هو فرانكنشتاين نهاية القرن العشرين وكل القرن التالي إلى أن يظهر غيره.

قدراته المرعبة والخرافية على الاتساع، تجعل من الصعب على البشر تصور مستقبله في العشرين سنة القادمة.

لا نستطيع أن نسمي عالم المعلومات في الإنترنت.. محيط المعلومات، لأن المحيط كيان هزيل بالنسبة لما في الإنترنت.. محيطات كبيرة وصغيرة، مجرات وأكوان وأفلاك ومجموعات معرفية تتوالد وتتوالد وقادرة على الكشف والابتلاع.

دخلت على بعض المواقع العربية التي تعرض الكتب، وبعض المواقع التي يمكن أن توفر لي المزيد من المعلومات عن بعض المفردات، مثل: فلاح، قرية، سلاطين المماليك، الأتراك، العصر الإسلامي، عصر محمد علي، الطبقات الشعبية، الضرائب،

العلاقات المصرية الأوروبية، العصر الوسيط، الإصلاح الاجتماعي، الجواري، القاهرة القديمة، الجبرتي، ابن إياس، المقريزي، العرب، العربان، الفيضانات، المغارم، المكوس، الإقطاع، الحيازات، الوالي، المحتسب، الخولي، الأوقاف.

تمنيت أن تكون رسالتي حول موضوع "دور إنجلترا وأمريكا في إنشاء ودعم الكيان الصهيوني"، أصر الدكتور على موضوع "الفلاح" ثم عرضت عليه موضوع العلاقات المصرية الأوروبية لكنه أصر على الفلاح مؤكداً أهميته، وحاجتنا الماسة لمعرفة دوره في الاقتصاد والسياسة المصرية في ذلك العصر.

موضوع جيد ولاشك، لكني كنت آمل العمل في موضوع معاصر نسبياً لأنه أكثر أهمية وسخونة.. قال الدكتور فيما قال إن موضوعي الذي اقترحته سبقت معالجته، أكدت أنه لم يأخذ حقه، فضلاً عن رفع الحظر في السنوات الأخيرة عن كثير من الوثائق التي تؤكد تورط الدولتين تورطاً مشبوهاً ودنيئاً في زرع هذا الكيان المشكل من مجموعة من السفاحين.. إذا كان يقال أحياناً إن استيلاء الصهاينة على فلسطين هو جريمة العصر، فأرى أنها جريمة الإنسانية منذ خلق الإنسان إلى يوم يبعثون.

معرفتي بالكمبيوتر متواضعة، واستخدامي للإنترنت نادر.. منذ شهور بحثت عن العولمة وعن إدوارد سعيد، وإمبرتو إيكو، وفي اليوم التالي بحثت عن نعوم تشومسكي وروجيه جارودي وفوكوياما، وبعدها بأيام بحثت عن كاسترو وجيفارا وجماعة حماس وحزب الله، واليمن وعلي بك الكبير وجورج آمادو وبورخيس وكونفوشيوس وماو تسي تونج وتروتسكي.. وآخر مرة شهدت بحثي عن منظمة القاعدة وهونج كونج ومارلين مونرو وسبيلبرج وميل جبسون وسيبريا والنمل وعسل النحل وفيروس سي الذي يفري الكبد، فهو الذي قضى على أبي وأمي وأظن ــ وليس من حقي أن أظن ــ أن له علاقة بالشقاء والحزن.

أعرف أن هناك مواقع كثيرة للدردشة، دخلت عليها مرات ولـم تستهوني.. مليئة بالتفاهات والحوارات الجنسية البذيئة، كثير منـها يدور كأنه بين رجل وامرأة في الفراش.. واضح أن معظمها مـن إنتاج مراهقين، يتبادلون في بعضها الشتائم المتدنيـة بشـكل فـج وبشع.. ولا أقصد المراهقين عمرياً فقط.

دخلت موقعاً باسم "المماليك"، أحسبه طبعاً سيحدثني عنهم ويقـدم لي عرضاً تاريخياً لفترة حكمهم مصر وبعـض البـلاد العربيـة، وفكرة عن أصولهم ومناطق نشأتهم وسبل نقلهم وأنواعهم وعاداتـهم وأبرز رجالهم والظروف التي أدت إلى تناحرهم وزوال هيبتهم.. لم أجد شيئاً من ذلك.. كان الموقع معنياً بعرض أفلام جنسية عربية.

تملكتني الدهشة، وسيطر عليَّ في نفس الوقت الفضول وحـب الاستطلاع فمضيت أتطلع دون براءة فأنا مـهيأ نفسـياً وجسـدياً للمشاهدة.. أنا لا أميل أبداً لخداع نفسي أو الآخرين، وهذه مشـكلتي دائماً مع الناس حتى أهلي.. لا أعرف ظـاهر وبـاطن.. سـري وعلني.. الفارق عندي ـ إذا وجد ـ ضئيل.. استفزتني المنـاظر، حركت كامن غرائزي.. أشعلت سيجارة.. نفثتها بسرعة.. أشـعلت غيرها.. المشاهد جريئة جداً ولذيـذة.. أتصـور شـكل المصـور وحركاته.. لفه ودورانه.. صعوده وهبوطه، وقوفه وانبطاحه لكـي يحصل لنا على هذه المواضع والأوضاع، وبهذا العمـق والدقـة.. أخيراً تنبهت أني أبدو كمراهق، وحاولت أن أقنع نفسي أني أكـبر من هذه الأمور، فوجئت أن الساعة تحركت بسرعة.. أفلتت بسرعة أربع ساعات وأنا مشدود ومستنفر ومشتاق وأتمنى.. تذكرت البنـت مزاج.. دخلت الحمام وعاشرت وهمياً ممثلة أمريكية جميلة رأيتـها لأول مرة منذ أيام في سينما كوزمو، وحلمت قبل الفجر بها.

طرقت الباب طرقات رقيقة لكنها متوالية، ثـم رن الجـرس.. نهضت وفتحت مغمض العينين.. اندفعت وهي تقول: أغلق البـاب بسرعة، إنهم يطاردونني.. لم أفهم ولم أسأل ولم أهتـم بالسـبب.. المهم أن أصحو بسرعة وأتأمل هذه الفتاة الساحرة وهـي بقميـص

كريم ممزق الكم وبنطلون أسود قصير ضيق، كيس صغير في يدها، قالت: انظر، وفتحت الكيس الجلدي ذا السلسلة الفضية.. قلبته على الترابيزة فتناثرت محتوياته من الأساور والخواتم والعقود الذهبية، كمية تزن على الأقل نحو كيلو.

قالت بهدوء: سرقتها.

هززت رأسي.. الوضع غريب.. الفجر وفتاة رائعة الملامح وذهب مسروق.. هي التي سرقت.. ما علاقتي بالموضوع؟

قالت: ما رأيك؟ سرقتها.. صدقني.

قلت وأنا أمط شفتي: برافو.

قالت بثقة: خذ ما تشاء.. لكن لا تقل لي: اذهبي.

أخذت نفساً عميقاً كي يساعدني على الفهم، ثم فهمت.

قلت: ألم تقولي إنهم يطاردونك؟

قالت بشبه فرح: نعم.

يبدو أنني لم أفهم.. مع أني تصورت ذلك..

قلت: برافو.

جلست ووضعت ساقاً على ساق.. هزت رأسها وتراقص شعرها المنكوش وزاد تبعثره.

بدت الحيرة عليَّ، فأسرعت إلى الحمام.. صفعت وجهي بالماء وبللت رأسي وعدت إليها.. وجدتها ترتدي قميص نوم شفاف يكشف عما تحته ولا شيء تحته إلا أقل القليل وتزينت كأنها ظلت لدى الكوافير عدة ساعات وتغيرت تماماً تسريحة شعرها إلى درجة أني بحثت عن الفتاة الأولى ذات البنطلون الضيق.. تلفت حولي، فأدركت حالي.. قالت إنها هي فمتى فعلت ذلك؟! لم أجد الكيس البرتقالي الجلد ولم أجد ذهباً على الترابيزة ولم يكن غير الحسناء، وفيها الكفاية.. كل الكفاية.. عدت إلى الحمام فصفعت وجهي ورقبتي وشعري، وفمي بالمعجون وأطلقت رشات من العطر.. عدت فوجدتها تجلس أمام منضدة كبيرة منخفضة وعليها أطعمة ومشروبات وورود وعطرها النفاذ يكاد يحمل الشقة ويطير.. هل

أعود لأغسل وجهي من جديد لكي أفهم.. فكرت في ذلـــك دون أن أفعل فقد صدمتني فكرة أنني إذا ذهبت وغبت لحظة اختفت، هذا ما لا يمكن احتماله.. لا داعي للفهم فهيا إلى العمل.. ياه.

ما أروع هذا الحلم.. أنا راض بأن أعيش حياتي كلها في مثـــل هذا الحلم وسحقاً لأي واقع، لن يكون مهما تحسن وتغـــيرت كـل الحكومات المصرية وحصلت على عشرة دكتوراه بمثـــل روعـة دقائق من هذا الحلم. لقد أعطتني هذه الفتاة التي لم تعد مرة أخـــرى واسمها كما قالت: "لكي" بتفخيم اللام ما لا أتصور أني إذا أسـعدني زماني لأحصل عليه يوماً.. بالمناسبة فيها شبه بسيط من ندى، لكـن مع احترامي لندى اللذيذة هناك فارق.

رأيت أن أعد كوباً من الشاي على وابور السبرتو الأثير لـــديَّ، إذ لا أحب وقفة البوتاجاز الذي أضطر للمثول أمامه حتـــى يغلـي الشاي، وأتخيل دائماً منظري واقف أمام موظف بيروقراطي وضيع يتلذذ بعذابي، مدعياً البحث عن قلم ثم بحثـــاً عـن ورق، وقـراءة الورق، ثم يرد على التليفون ثم.. ثم.. وأنا أتقلب على الجمر منادياً أيوب كي يمنحني بعضاً من صبره الخرافي.

الأفلام لا تنتهي والأوضاع الجنســية والأصــوات.. تأوهـات وتنهدات وغنج ورشف وأهم من هذا جميعه اللحم الذي يتقلب فـــي بحر الغرائز أمامك، وأنت مثلي محروم، سيجارة عاشرة..واضـــح أن المسائل اختلطت علي وأنا أحكي عن أشياء ملتبسة.

غرزت عجلتي..انهارت مقاومتي وضاع الفـلاح الـذي كنـت أحاول تقييم ماضيه للنظر إلى حاضره.. بإرادة قوية ومنهارة فـــي الوقت ذاته استخرجت نفسي من المستنقع، ولمست أزراراً أخـــرى وتحرك "الماوث" تحت يدي اليمنى، وكان هناك "مـــاوث" بداخلـي يشاركه العمل والرأي والاختيار.

قوائم بريدية عربية بعشرات الآلاف.. كيف تكونـت ومتـــى!.. توقفت عند المجموعة البريدية المصرية وتحمل أســماء عجيبـة: ميزو، فضائح، كرباج ورا، قشر الموز، محبو عبد الحليم، زحـــام،

جهاد، إسلامنا، نحن الشيعة، الغجر، إصلاح مصر، ثورة العـــرب، أحلى حب، سارة، كنانة، السهران، زلزال، العسل.

فتحت موقع سارة، وجدته مخصصاً كلــــه لأخبـــار فلســطين.. الموقع يستعرض تاريخ المجازر الصهيونية التي لا تنتـــــهي منــذ أوائل القرن العشرين وعدد المقتولين فـــي كــل مجـــزرة وكذلــك الجرحى وبيانات كاملة بالصور لتجريف الأرض الزراعية وهـــدم المنازل وتفجير محطات المياه والكهرباء.. بقيت مع هــذا الموقــع نحو نصف ساعة، أحسست برغبتي في حرق الكمبيوتــر، والشــقة كلها.. شعرت بالدوار.. أنا الذي أشاهد فقط أوشكت على الانـــهيار وكاد يغشى عليَّ، فما بال أصحابها وشعورهم وشعور ذويهم، ومـــا شعور مقترفي الجرائم، إذا كان لديهم وشعور أصلاً، ومن المؤكــد أن شعوباً كثيرة وبعض المسئولين في العالم يشاهدون.. ولابد أنــهم يستمعون مع كل مجزرة إلى صوت الناطق الرسمي باسم الحكومــة الأمريكية، يعلن استياءه من الفلسطينيين الذين يهربون أمام الدبابات ولا يرضون أن يقتلوا بشكل كاف، والأسوأ وما يعد إرهاباً لابد مــن سحقه قيام أطفالهم بإلقاء الحجارة على المجنزرات الإسرائيلية بمـــا يحول دون أداءها عملها الذي يستحق الشكر.

على موقع "ثورة العرب" دعوة صريحة من ٢٨٩ ألف مواطـــن من مختلف شعوب الأمة العربية للثورة على الحكام وبعضهم طالب بإعدام هؤلاء الحكام.. مواقع كثيرة ينضم إليها عشرات الآلاف مــن المشتركين تدعو نفس الدعوة وتحرض بكلمات غاضبة ضد النظـــم التي حكمت أكثر مما يجب حتى تعفنت.

في موقع "صوت الحرية" شاهدت رســماً كاريكاتوريـــاً ثوريـــاً يشغل مساحة الشاشة عرض فيه الفنان شخصيات الحكـــام العـــرب وقد جلسوا على كراسي فخمة، وتدلت من تحت الكراســـي جــذور تمضي إلى أسفل حتى سابع أرض.

أنا ضعت ولا أستطيع العودة.. لا زورق لدي ولا حتى طـــوق، يعيدني إلى الشاطئ، بينما أنا في قلب المحيط.. أكبر المحيطـــات..

بل أصبحت خارج الكرة الأرضية ودرب التبانة كله.. أضرب في فضاءات لا نهائية من الأصوات والصراخ وألوان التعبير المختلفة والآهات والأمنيات والأحلام، مؤكد أن ٩٠% ممن يتعاملون مع الإنترنت دون الخامسة والعشرين، وكلهم تظلهم خيمة الإحباط السياسي والثقافي والاقتصادي.. تزلزلهم الحياة المعاصرة، خاصةً لأنهم يبحثون عن طريق منذ مدة ليست قليلة، ولما لم يجدوا أملاً في طريق عربي أو قومي أو محلي أو حتى ذاتي، قرروا الارتحال إلى عالم الحرية والتعبير والعري والجنس والسباب والثورة.

إنهم يثورون عبر الأجهزة، إذ لا أمل في ثورة حقيقيةٍ تغير الأوضاع المستقرة بل المترسخة، التي ينام الشباب خصيصاً ليحلم بسقوطها، ويأمل في أن يطلع الصباح فلا يعثر لها على أثر، لكنه مع شروق الشمس يفاجأ بأنها أكثر تمكناً وشراسة وتعفناً وابتذالاً.

سجائر.. سجائر.. أنا في حاجة إلى زجاجتي بيرة، أو ما هو أشد وطأة، من يأخذني من هذا اليم المغرق، من يساعدني كي أجد الفلاح. بحثت عنه كثيراً هو وكل من يمت له بصلة، فلم أجد غير مواقع يفجرها الحاضر، يمليها ويواجهها ويرفع راياتها، حتى مواقع المستقبليات تبدأ من مقولات الحاضر وحالاته وإحصائياته وإمكاناته بوصفه بذور الأيام المقبلة.

في أحد المواقع قرأت ببنط كبير غير عادي، ولابد يقصد أصحابه لفت الأنظار والتوقف أمامه والتفكير فيه.. سبل تغيير أي نظام ثلاثة، أولاها عن طريق الثورة العسكرية (انقلاب).. ثانيها الثورة الشعبية.. أي تجمع الجماهير واحتشادها مع قياداتها والزحف والسيطرة على الإعلام والمؤسسات السياسية وأهم المواقع السيادية.. وثالثها عن طريق المؤسسات الديمقراطية المستقرة.

والسؤال هو: ما الحل في بلادنا التي لن تتحرك فيها الجيوش للانقلاب بسببِ استئناسها والتحكم فيها وإغراقها بالمغريات والمزايا، وثانياً ليست هناك قيادات كافيةٍ ومخلصة للتحرك بالآلة الشعبية والزحف لفرض التغيير.. وثالثاً ليست هناك أية مؤسسات

ديمقراطية ولا مناخ يسمح بتداول السلطة من خلال الحوار السـلمي والصراع الحزبي الموضوعي.. ما الحل؟.

موقع "مشاور" أنشأه بعض الشباب العربي المؤمن بعدالة قضاياه وحتمية الجهاد ويدعو لاستخدام السلاح للتغيـــير، ويوفـــر مواقـــع للتعليم العسكري خاصة التدريب على حمل السلاح بكل أنواعـــه.. وبعض المواقع تطالب الشباب بالتطوع للقيام بعمليات استشـــهادية في فلسطين والعراق.

موقع "فضفضة" محتشد بالكتابات الســـريعة غـــير المتقنـــة أو المدروسة بشكل علمي عن أجهزة لتقوية الأداء الذكـــوري، وعـــن عمليات تجميل، وإعلانات عن مدارس، وبعضـــها يطلـــب أمـــوالاً لمساعدة المحتاجين، والمرضى، وبعضها يعرض رسائل كلها تدعو على بعض الظالمين بالاسم.

توقفت لأضحك وأدهش من رسالة أحد المواطنين كتـب اســـمه على شكل أرقام. وقال إنه حول الحروف إلى أرقام واسـمه (٩، ٦، ٥، ٩، ٢، ٧، ١)، ولم أستطع بالطبع معرفة اسمه.

يا مرحبا يا مرحبا — بكل ألوان الغبا
اصحى يا نايم اصحى — وشوف عصر الوبا
الضرب نازل ع القفا — وفات وقت الطبطبة
كلمتين من القلب — لا هي جنازة ولا مندبة
ما تصدقش التصريحات — ماتغركش أنوار الكهربا
حالة غريبة مرعبة — زحمة وجنان وكركبة
قلوب متقلبة — شرور متحزبة
عقول ذاهبة — ووجوه شاحبة
أيدي ناهبة — وضمائر متخربة
أرض لاهبة — وسماء غاضبة
عيال شاربة — ورجال راكبة
نساء سائبة — وحكومة غائبة
ناس لاعبة — بالحرام والربا

ياللي مش حاسس ح تلوشك عقربا
يا مرحبا يا مرحبا

هناك مقالات بعضها ساذج، وأكثرها تنفيس عن المشاعر، وفيه صفحات من مذكرات فتيات ضائعات، أو يبحثن عن الضياع.. الموقع يكشف للوهلة الأولى عن أن الناس تتحرك فوق بحر هائل من الكمد واليأس.. تفتقد الحوار وتفتقد الأمل.. تفتقد الطريق.. وتفتقد الروح.. تضرب في الظلام والخوف.. الكل يبحث عن خلاص فردي وليذهب الجميع إلى الجحيم.

أكثر المواقع استقبالاً لمريدي الإنترنت، موقع "فضائح" الذي يستعرض حياة بعض المشاهير، ويكشف أسرارهم.. الإقبال عليه كبير جداً.. يدلل بالصور على سلوكيات رجال الأعمال وامتلاكهم للأسلحة ويتوقف عند سهراتهم الجنسية، ويعرض صورها.. حفلات عري كاملة.. سهرات لتناول المخدرات والكحوليات وتبادل العلاقات الجنسية في الفيلات والقصور.. علاقات متقاطعة ومتداخلة، ومصورو الفيديو يلتقطون الأفلام التي تباع وتشترى وتستأجر ويبتز بها البعض أصحابها.. هاهنا وأمام هذه الشاشة يتجمع المحبطون.

الساعة تجاوزت الواحدة.. أغلقت الجهاز.. عيناي ملتهبتان.. ينبت منهما الألم. أحسست أني مخدر وجائع وضائع.. تحركت بصعوبة نحو المطبخ.. بقايا بيض بالبسطرمة.. قطعة جبن وخيارة.. رغيف جاف ونصف.. نصف تفاحة.. حبة طماطم وكوب من اللبن.. برتقالة صغيرة.. أكلت كل هذا وأنا نصف يقظان.. ارتميت على الأرض بجوار الفلاح الذي كان يتسلل إلى جسدي غطيطه.. خامرني بعض الرضا لأنه كان نائماً عندما كنت مصلوباً أمام الجهاز.. أكاد أتحسس الأجسام الداعرة التي تتوهج وتمور بها الشاشة.

ضغطت على زر المسجل.. كان لا يزال محتفظاً بشريط عبد الحليم.. خفضت الصوت وتمددت.. أنصت قليلاً إليه.."لو أني

أعرف خاتمتي ما كنت بدأت".. قلبت الشريط ليبدأ رسالته من تحت الماء.. بعد لحظات اختفى صوت عبد الحليم من الدنيا.. وســــرعان ما أشرق الصباح المنتظم دائماً في الحضــــور وطــرق الأبــواب ضاغطاً على زر يوم جديد.

لم يكونوا بحاجة إلى ملابس تقيهم البرد والنظرات المحدقة، فقد كانوا كذلك وهم في غمرة الحياة والشقاء.. منذ ولدوا وهم عرايا، كتب عليهم الحرمان بكل أنواعه، وهاهم يخرجون بالمئات والألوف من الصحراء الشرقية المهجورة بعيداً عن شاطئ النيل في المنطقة الممتدة من جبل عتاقة حارس خليج السويس إلى أن ترتطم بالصحراء شمالاً مياه البحر المتوسط.

كانوا هناك ما يزيد عن عشرة سنوات عجاف.. وعندما لاحت لي جباههم المعفرة بالتراب وملامحهم المعروقة ونظراتهم الزائغة مع خطواتهم المتحمسة المندفعة نحو الغرب في اتجاه العاصمة، وبهذه الأعداد الكثيفة المضطربة والمتلاحمة.. أدركت أنهم دون شك عمال قناة السويس.. الفلاحون الذين حفروا بالأظافر والأسنان والعظام والأيدي والأقدام تحت سطوة السياط ولهيب الشمس والبطون فارغة تماماً، ليس في أيديهم إلا المقاطف والفؤوس.. يضربون الأرض وإلا شوت ظهورهم الكرابيج، وتمزقت جلودهم لتكويهم مع الضرب الموجع حرارة الشمس.

الطعام لقيمات.. تأتي أو لا تأتي، أما الماء.. أي ماء فهم بعيدون عنه تماماً، فليس غير الماء المالح والسراب الذي يبرق دائماً عن يمين وشمال على امتداد صحراء لا تعرف الحياة إلا نسغها الشحيح في بعض النباتات التي تعيش مثلهم حياة الصبر والوحدة واضطراب الطبيعة وأسئلة الرمال والمطر.

يحمل الماء في الصفائح على ظهور الجمال من النيل، ليصل إليهم بعد أيام وكثيراً ما تعذر وصوله بسبب هياج الريح التي تركبها الشياطين في أحيان كثيرة فتقفز من مكامنها لتقصد مباشرة قافلة المياه حاملة ذرات الرمل الذي يتكاثف ويتكاثف ويصرخ في

الوجوه ويصفع الأبدان ويعمي العيون، فيغطي الرعـــاة وجوهـــهم ويقبعون على الأرض وتبرك الجمال انتظاراً لما تسفر عنه غضبـة الريح.. لساعات طويلة.. ربما ليوم بليلة تضرب الريح فيه الصمت والوحشة وأشباح النبات والرعب المكمور إلى أن تنفثا بالونة الريح المشحونة بالوعد الوحشي ، وهكذا تصل المياه العائمة فوق ركـــام الرمل، وقد لا تصل.. والمئات هناك يتساقطون..والأحياء يتطلعـون بالشفاه البيضاء والحلوق الشائكة والسياط تمزق الظـــهور وتفتـت الحس والشعور.. تلون الحياة بالسواد.. فالأتراك تحت إمرة سـيدهم سعيد ثم إسماعيل، وديلسبس بشوق ينتظر حتى ينتهي الرعاع مـــن الحفر.. مات مائة وعشرون ألفاً.. ما المشكلة؟ في كـــل الأحـوال سيموتون.. في بيوتهم سيلقون الموت أو في الحقول، أو هرباً مـــن الرصاص أو من الجوع أو من العمل في حفر القناة.. آجال مكتوبة فلم الأسى والأسـف وعـلام البكـاء علـى الأرواح المفقـودة؟.. تساقطوا.. تساقطوا.. لا يهم.. المهم أن يرفع الأحياء جثث الأموات بعيداً عن منطقة العمل، فالعمل لابد أن ينتهي لتراه الملكات ويسـعد به الملوك، ويدخل سعيد وإسماعيل التاريخ وهمـا يجـران عربـة ديلسبس الذهبية.

هاهم يتكأكأون بعضهم على بعض في اتجاه العاصمة، ضعفـاء جداً ومنهكون، لكن في عيونهم إصراراً وعزماً.

أراهم يتدافعون سمر الوجوه، بقيت العظام فقط تحـت الجلـد، وبعض الجلد لا وجود له.. وتعرى كل شيء حتى العظام.. مشـهد الهياكل العظمية لهؤلاء العمال الذين تجـاوزوا نصـف المليـون، يمضي بعرض الأفق ودون أن تبلغ نظراتـي أطـراف نهاياتـه.. تصدر عنهم همهمة ودمدمة خافتة، وثمة ابتسـامة باهتـة تشـي بالرضا المجفف، لعله نابع من أنهم ينظرون إلى العاصمـة وإلـى المستقبل، ولعله يتفجر من نفوس عزمت على الفعـل والمواجهـة، ولعل السبب جلاء المدى وصفاء الأفق وعناق السـماء الحنـون.. ولعل السبب سلامة الرؤية وانطلاق العيون دون صفعات الريـاح

ورمالها القارصة، ولعل السبب غياب الألم وخلو الأبدان من طلب الطعام أو الماء أو حاجتها إلى الراحة.. إنها أرواح فقط مثل حالتي، لكنها آثرت أن تحمل معها الأبدان ليتعرف عليها من يراها دون بيان.. لقد أنقذها الموت من السياط والعنت والإهانة وسحق الكرامة.. من اليقين أن منهم من طلبوا الموت لإنقاذ النفس والجسد من التمزيق والدفن باسم الحياة.

تقدموا.. تقدموا.. نحن في انتظاركم.. لا ندري بالضبط سر عزمكم لكن سعادة تغمرنا إذ نراكم.. تقدموا.. تقدموا.. مضى الكثير من الوقت قبل أن تتقدموا.. فتقدموا أيها العراة الحفاة.. يا صانعي خير البلاد.. تقدموا، مازال المجال أمامكم لتصنعوا شيئاً وتأملوا في المستقبل برغم رحيلكم.. تقدموا.

كم هو رائع إحساسك بالخلاص من شرك.. كنت أحس بشـــكل مبهم أنه منصوب بإتقان قبل أن أقع فيه بساعات طويلة، وأدرك كـم هو قريب الحدوث.. أكاد أحدد مكانه وزمانه، لكنني كنت أمضـــي نحوه مسلوبة الإرادة.. أراه وأحس بخطاي المتوجسة ولا أقاوم، بـل أتأهب كي أرضى وأروض النفس على ألا تنـــهار.. فليـس بعـد التداعي انهيار.. شيء غامض يدفعني لاستقبال النهاية المجهولة.

أغمض نوافذ عقلـــي وأتقـدم.. أضطـرب وأرتـج وأرفـض المقاومة.. جلست على المنزلق الذي ترمي بي نهايته إلى نـــهايتي، كان اعتقادي المبهم أيضاً أن الشرك جزء لا يتجزأ من طريقـــي.. فأنا أستشعر يوماً بعد يوم نفاذ رعوف إلى عالمي.. لقـــد واربـت الباب بعد أن طرقه طويلاً، وهاهو بثقة وصبر يتسلل إلى ســاحات قلبي المرتعد.

يجرني وأترك نفسي لقبضته ذات الطعم الحريـــف.. خـامرني شعور غامض بأن أكون فريسته، ما الذي ألقى في روعـــي هـذا الشعور؟.. كيف أرضى أن أفقد إنسانيتي لأكـــون مجـرد قطعـة صلصال في يديه؟.. فكرة هيمنت عليَّ فجأة بأني لا أفقد إنســانيتي بل أكسبها وأستعيدها وأستخرجها من عتمة الركود والوحشة.

منذ أيام وشعوري المتوثب للاقتراب منه والارتباط به لأغـــدو كياناً ضئيلاً في فلكه المترامي يتسلل من روحي إلى جسدي، شعور شامل يغمرني فأستمرئ الإذعان لغوايته.. تتحول الكلمات التـي أود أن أقولها له، وتضطرب بها شفتاي إلـــى نبضـات راغبـة فـي الملامسة واللثم.. تذوب مشاعري في بدني فيقشعر جلـدي وتنبـت على سطحه المحموم نداءات تبلغ أصداؤها المســتور مـن بدنـي فتتحول من صوت وبري ناعم إلى كتابة على صــدري وظـهري

ورقبتي وفخذي، وكل أعضائي وأعصابي ودمائي.. نمل يتمشـــى.. يمس بخطواته الرقيقة ولمساته الذكية نبضات المشـــاعر وحـــروف الحنان الجميلة المنتشرة على مساحات وجودي الذي كان عدماً مـــن قبل.. وجودي الآن أرض حقيقية جياشة بالرغبة في أشعة شــــمس صباحية وبهية.

دعاني لرحلة إلى القناطر.. شرطي الوحيد للموافقة ألا يدخـــن.. وعدني بالتفكير.. رفضت بشدة.. قال: ثلاث فقط طـــول اليـــوم.. ركبنا الباخرة من أمام التليفزيون.. كان يحمل كيساً من خـــوص.. ملأه بكل ما تصور أننا بحاجـــة إليـــه، ولا أظنـــه نســـي شـــيئاً.. الساندوتشات.. البرتقال.. الشاي واللب.. الكـــاميرا..والكوتشـــينة. الكرة، قال:

ـــ لا يبقى غير الماء والعصائر.. نجدها هناك.

الحب طائر صغير غامض رائع الألوان والتكوين، بللوري كأنـــه خلق من ضوء يسكن الروح ثم يكبر في حضنها حتى يبدأ كتابتـــه على الجسد وينسج الشرنقة المحيطة بمنقار شفاف له وقـــع ممتـــع ورهيف، وسرعان ما يذوب في الروح وتغـــدو الـــروح محـــض عشق.. لست أدري من المجنون الذي قال هذا الكلام الـــذي كنـــت أحسبه من قبل لغواً ودجلاً. على أية حال أنا لم أتحقق من صدقـــه، لكن ثمة نقر على زجاج قلبي ويد خفية تعالج أكرة باب روحي.

لبست فستاناً سماوياً محبوكاً ومجسماً من أعلى ومتســـعاً مـــن أسفل يناسب القعود على الخضرة.. لملمت شعري وشبكته بتوكـــة بلاستيك على شكل عصفورين يقبضان بالأظافر الصغـــيرة علـــى شعري. ارتديت حذاء خفيفاً ومنخفضاً لا أكاد أشعر بـــه وتـــأهبت للجري ولعب الكرة.. جاءت الدعوة في موعدهـــا فمـــا أحوجنـــي للركض والزلزلة إلى حد العرق.

تحركت الباخرة واحتواها الماء من كافة الجوانب.. رحبت بنـــا النسائم النهرية وصفت السماء واتجهت العيون إلى الشمال تتـــأهب لاستقبال يوم جميل.. وسرعان ما تعجل الشباب قـــدوم الســـاعات

الحلوة بالطبول والتصفيق والرقص والغناء.. أين تسـكنين أيتـها البهجة؟ قليلون من يعرفون الطريق إليك.

عرض عليَّ الطعام. رأيت التأجيل.. مد يـده ليمسـك يـدي.. سحبتها، قلت له: دعني والنهر والماء والطيور.

احترم رغبتي ومضى يصورني من عديد الزوايا، طلـب مـن شاب أن يصورنا معاً.. انشغلنا في متابعة الرقص البهيج.. يضـوب بالأقدام العفية ركام الملل والأيام العكرة، وينفض بقوة غبار الكسـل والعفن.

وصلنا، ومضينا نتمشى بين الزهور.. الأحواض منسـقة فـي أشكال بديعة.. الجمال الرباني تطلقه لوحات الزهـور.. الياسـمين والورد البلدي والأوركيديا.. الزنابق والفل والبنفسج والنرجس، وما لا أعرف من تلك المنظومة الفاتنة.. لف ذراعه حول خصـري.. سرنا معاً.. كنت في حالة نفسية طيبة.. لم يشهد بيتنا لأسبوع كـامل أي إزعاج ولم يتسبب سمير الساكت دائماً في إثارة التوتـر.. ولـم أقلق كما كنت من قبل لغياب فرص العمل.. وإن كنـت أنتظرهـا بشوق.. شوق غريب، فلم أكن إبان الدراسة أهفو للعمل مثل حـالتي فور أن انتهيت منها.

تأهبت لقضاء يوم سعيد يصبح لنا ذكرى.. لا أنكر أني تمنيـت أن يكون محطة مهمة في مسيرة علاقتنا التي آمل أن تتوطـد وأن أدخل كهفه الواعد، وكهف الرجال عموماً الذي لاشك يفضي لمزيـد من الاكتشاف.. رءوف رجل محترم ومكافح وصاحب إرادة ويعتمد عليه.. وهذا ما تريده المرأة قبل غيره.. رجل بلا رأي ولا فكـر لا يعتد به ولو امتلك الملايين.

اعترف لي بأنه يدهش لحاله، فقد كان كثير العلاقـات.. ومنـذ رآني تخلص من كل من عرف، أو على الأقل تخلص من الـنزوات والتجاوزات، هكذا قال.. وأبقى على صداقات بريئة ليس فيها غـير كلام وسلام ولقاءات عابرة تفرضها المعرفة القديمة أو القرابـة أو المجاملة.

قال إنه أصبح لي وحدي، وأظن أن إقباله المخلص والحماس عليَّ وسؤاله الدائم عني، ولهفته على بقائي تدل على أنه صادق، ولا بأس من الحذر.. فالرجال من السهل سقوطهم تحت تأثير النساء، والنساء لهن أساليب وحيل.

عند شجرة ضخمة تكاد تحجب ما بعدها.. توقفنا.. التقط لي عدة صور ثم دنا وحاول عناقي.. تملصت.. اختطف قبلة، هددته بأني سأتوتر وأفكر في العودة.. نجح في اختطاف قبلة ثانية.. نظرت إليه شذراً من وراء قلبي، فلم أكن أقصد ما قلته تماماً إلا لكي لا ننجرف كثيراً في هذا الطريق، ويهمني امتلاك روحه لا جسده.. الحب عند المرأة فيما أظن يأتي أولاً وثانياً وربما ثالثاً، أما الجسد فرابعاً، لكن للأسف يأتي الجسد عند الرجال أولاً وثانياً ثم قد يأتي الحب، أرجو أن أكون مخطئة.. الحذر مطلوب في كل الأحوال.

علا وجهه جمود مفاجئ عندما كشرت بحدة، ثم ابتسم وقال:

ـ ألم تلومي نفسك على موقفك مني؟

ـ لماذا ألومها؟

ـ موقفك غير طبيعي.

ـ كل تفكيرك في العناق والقبل.

ـ هذا هو الحب.

ـ يا شيخ..أهذا هو الحب؟

ـ صدقيني.. لا طعم للحب دون عناق.

ـ هذا رأيك، وليس الحب.

ـ دعك من رأيي ولنناقش الموضوع بصراحة.

ـ تفضل.

ـ أليس الحب يعني اندماج شخصين.

ـ اندماج روحين.

ـ وأين يقيم الروحان.. أليس في جسدين؟ هل تأتي روحك وروحي للتنزه في القناطر وشم الزهور والتمتع بالمشاهد دون

الجسدين؟ هل الروحان هما اللذان يذهبان إلى المأذون وينجبان الأولاد؟

ـ كلامك لعب بالألفاظ.

ـ كلامي هو المنطقي.. إن بحثت عن الحقيقة، فليس هناك كيان اسمه جسد مستقل وروح مستقلة إلا في الموت.. والحياة تعني اندماجهما.. الروح موجودة في إصبع القدم كما هي في الأذن والبطن والقلب والرئتين.

ـ لاحظت أنك مادي، والحب بالتفسير المادي إباحية.

ـ غير صحيح يا ندى.. افهميني.. الحب العذري ناقص، والحب الكامل هو الذي يتضمن العنصرين المادي والمعنوي.. الجسد يؤجج الروح.

ابتسمت ساخرة من كلامه.. تأكدت أنه غير مشغول بأفكاره لكنه مشغول بلف حبله حول جسدي.. ورمي شبكة حيله على عالمي لاصطيادي.. قلت:

ـ أول مرة اسمع شخصاً يقول إن الحب العذري ناقص.. الحب العذري صاف ونقي.. مترفع عن الغرض، وليس بحاجة لإكماله بعنصر آخر.. لذلك فهو خالد.

ـ الحب يا ندى لا يتحقق إلا باتحاد ذكر وأنثى.. اتحاد بين جسد وروح.. الحب هو إضاءة الجسد بنور الروح، وإنضاج الروح على لهب الجسد.

كلامه بدا معقولاً، لكنه لا يزال مؤرقاً لي إذ يسبح فوق ظنوني، قلت:

ـ ألا ترى أن الحب يموت بعد الزواج؟

ـ لأنه يتحول إلى عادة وواجب، ولو تنبه الزوجان المحبان إلى ذلك لأصبح الزواج عشاً رائعاً، وبقي الحب خالداً.

ـ فكيف إذن يقاوم الزوجات العادة والواجب؟

سكت لحظات.. بدا كأنه فوجئ بالسؤال، سرعان ما أجاب:

ـ أن تكون اللحظات متجددة ولا تقع في التكرار، وقبل ذلك أن يكون هناك تسامح وحسن تقدير وحسن ظن.
ـ تعترف.
ـ نعم أعترف.
ـ فمن المسئول الأول عن موت الحب أو خلوده.. الرجل أم المرأة.
ـ كلاهما.
ـ الرجل هو المسئول.
ـ كلاهما.
ـ الرجل.
ـ مادمت تصرين على أنه الرجل، فإني أرى أنها المرأة لأنها نبع الحب الحقيقي.

هجم عليَّ المجرم بغتة والتهم شفتيَّ اللتين كانتا في انتظاره.. عانقني بقوة لذيذة،، أدخلني في أحضانه.. اضطربت لحظات عندما ضغط ثديي بضلوعه.. انتقلت إلى صدري نبضات قلبه، لم أستطع أن أخلص شفتي من شفتيه الغليظتين الدافئتين المتمرستين.. كانت يداه الكبيرتان تدلكان عظمي بصلابة حنون، تمسحان ظهري المتكلس من برودة الوحشة والحرمان.. واصل التهامي وهو يقلب في شفتي بحثًا عن لذاذات خفية ويداه تعملان بمهارة في عجن عظامي.. الآن فقط أدركت أن الحب روح وجسد.. بدني الآن ينتفض ويتمرغ على عشب الغرام ولا يفارق.. يرتعد رعبًا لكنه يستدفئ ويغذي بالحنان الفياض فراغات النفس المستوحشة.. جسدي وروحي مغموسان في كيان رءوف النابض.. يغمرني برجولته المشبوبة وحبه المتوهج.. ما أروع أن يضمني هذا الرجل بعاطفته المتقدة.

شرعت أتنبه أني بداخل شرنقة تحيط بي من كل ناحية، كما كانت الباخرة في البحر.. تنبهت أن مؤخرتي وظهري إلى الشجرة.. اكتشفت أن شفتي لازالتا في شفتيه.. يمتص ما بهما من

رحيق، وأنا كذلك.. تتغير أوضاع الشفاه يميناً وشمالاً.. يكفي هــذا الآن.. كان عليَّ أن أتنفس.. فجأة دفعته بقوة، كأني غريق يخـــرج من الماء دفعة واحدة باحثاً عن روحه على سطح الحياة ويضـــرب بأعضائه ليقاوم السقوط والنهاية.. تنفست بعمق وتنفس.. ردني إليه رداً جميلاً، ثم خاصرني وسرنا هادئين.. يضغط بكفه اليمنى علـــى يدي اليسرى وقد استسلمنا لعبير الزهور ومشهدها الآســـر الــذي يرطب الأعصاب، ويضيف إلى الدنيـــا الجميلـــة لمســات عذبـــة ومتفائلة.. بدت الزهور كالأطفال متوردة الوجوه.. تعلمت المشـــي حديثاً، فانطلقت خطواتها القصيرة الخائفة متأهبة بـــالأيدي لتقبــض على ما يحميها من الارتطام بالأرض.. الزهور كالطفولة تتحـــرك في اتجاه البهجة والأمل، ودهشت لأني زرت القناطر مرتين مـــن قبل ولم تكن بهذا الجمال والبهاء.. كانت الأشجار والأطيار وبعض ما يظهر من صفحة السماء تتأملنا بافتتان، بينما النســـائم الصافيـــة العطرة تتمسح فينا باستمتاع، وتلعقنا ثم تمضي لتحط على كل مـــا تقابله بعضاً من رحيقنا.

جلسنا وأكلنا.. لعبنا وشربنا..تلامسنا وتداعبنا وتراكضنا ووقعنــا فوق المروج والروابي المتألقة بالخضرة.. ثـــم تهامســـنا وتبادلنـــا بعض الحب اللذيذ، وتدانينا وانتشينا، ثم شرب ســـيجارة، وعبرنـــا ساعة فوق أحوال أهالينا.

الفستان السماوي يساعدني على الحركة ويلتف مـــن حولـــي إذا جلست.. أما الحذاء فقد خلعته منذ عدنا من العناق عنـــد الشـــجرة الكبيرة.. ضاقت المسافة بيني وبينه.. تمنيت ألا تنحني الشمس نحو الغروب.. قال العفريت نكتاً كثيرة، وعلق تعليقات ســـاخرة علـــى الناس الذين نعرفهم والذين يمرون بنا وعلى العشـــاق الآخريـــن.. سخر من كل شيء دون ازدراء أو تحقير لمجرد الدعابـــة.. فكـــره حاضر جداً، وقفشاته ذكية للغاية.

كنت بحاجة للضحك والمرح والانطلاق.. التمرد على الوقـــار والرصانة.. تصورت أني لم أضحك منذ ولدت، تفتح جسمي للدنيـــا

وللحب وللحياة.. المرح الجميل يركض بداخل عروقي وأعضائي، يرج جسدي وينفضه، فتتساقط منه اللحظات التعسة والمواقف البائسة، تتناثر فيه ذرات الفكر الأسود والشكوك والكوابيس والرؤى اليائسة. أصبحت أكثر صفاء وتأهباً للأمل.

قذف بي رءوف إلى قلب السماوات، دورني فيها عدة دورات حتى كدت أغيب عن الوعي.. الفستان يطير معي في دائرة واسعة وساقاي عاريتان تشربان من نداوة الأفق، وأنواره الجياشة.. شعري انفك وطار حريصاً على أن يلحق بالفستان الفرحان.

تلقاني رءوف أخيراً بين يديه، وظللت في أحضانه حتى هدأت نفسي.. ثم وسدني الأرض بين الخضرة الرحيبة والحنان المرصع بالحب.. امتلأت السماوات بقلوب كثيرة جداً صغيرة وحمراء مشعة، تصدر عنها زقزقة خافتة.

تنفست بعمق وأغمضت عيني، حط فوقي وأوسعني من شفتيه قبلات ممتدة وعميقة، تختلف عن القبلات الأولى التي افتتحنا بها يومنا العلامة.

قلت له: كف عن تقبيلي. قال: أنا كالطفل أتذوق الدنيا بشفتي.. كم أود أن أكون كما أنا فلا أنهض.. كم أود أن أكون فريسته الوحيدة.. كم أود أن يقضي عمره في التهامي قطعة بعد قطعة.. ماذا نريد من الدنيا غير أن نموت حباً؟، وإذا لم نمت فليسكرنا الحب.

تأهبنا للعودة.. شعرت بهشاشتي.. كان جسدي متحللاً، مفككاً كالنهار الحميم الذي أفلت منا على عجل.

سرت معه كالمنومة.. صعدنا الباخرة.. مضت تشق المياه وأنا منومة لا أقدر على تذوق المشهد الجديد.. أنظر في شرود إلى سطح الماء المتدفق، يعانق الباخرة ويداعبها ويدغدغ حديدها وأخشابها، ويتلمس بشفاهه طلاءها، وهي تتقلب بتلذذ وتهتز تحت وقع لثماته، وأنا كالمنومة أو نصف شاردة ونصف مشغولة بالأفكار

والأحلام.. كيف فتحت له الباب على مصراعيه ليتمرغ في حدائقي ويمزق عشبي؟!.

أحاول أن أعيد على خاطري وأعضائي وحواسي طعم غزواته ونبشه في صندوق جواهري.. أبتسم وأنا ساهمة ومخدرة.. أنا لست أنا.. ربما كنت الباخرة.. وربما شخصاً آخر يبحث عن ذراته.. عن روحه المحلقة.. عن جسده المفتت.. حقاً.. إن في الجسد أزرار الروح ومفاتيحها.. بل الروح لا وجود لها إلا من خلال الجسد.. ربما كان ذلك صحيحاً أو غير صحيح.. المؤكد أنني لم أفتح له الباب، بل هو الذي فتح لي باب الدنيا.

فوجئت أني أصعد معه سلم بيته.. تسمرت قدمي على درجات السلم في الدور الثاني.. لم يحدث أن مر بي هذا الموقف.. لو لمس أحد أكرة باب غرفتي مجرد لمسة وكنت في عز النوم لقفزت من سريري.

شجعني على المواصلة.. قال إنه سيضع الكيس، ويغسل وجهه ووجهي ثم يوصلني.. لن يتركني.. لقد رحلت الشمس والمغرب الآن يؤذن.. هززت رأسي.. لم أجد صوتي ولا حتى إرادتي.. أمسكني بحنان وسحبني، مضى من جديد يتحدث عن أهمية ثقتي به.. عن الشخصين اللذين أصبحا شخصاً واحداً، وعن أهمية العثور على الطريق الذي يجمعنا معاً.. العمر يمضي، ويتفلت ونحن في غفلة، يجب أن ننتقل إلى الجزء العملي من حبنا.. الجزء الفعال الذي يفضي إلى الغد المسحور.. الجزء الذي يدفعك ويدفعني للحياة، ويجعلنا نواجه أيامنا المقبلة.

يبدو أني فقدت الوعي من جديد. فوجئت أني أمام باب شقته في الدور الرابع أو الخامس.

استقبلتني رائحة السجائر المكمورة.. وروائح كثيرة مختلطة تنبعث من المشهد الفوضوي الذي اصطدمت به نظراتي وأفزعني.. لا شيء في موضعه.. جلست على أول كرسي رأيته.. برر ما أراه بكلمات عشوائية.

الكتب على الكنبة.. الأباجورة علـــى الأرض مائلـــة.. أطبـــاق متعفنة فوق المنضدة وعلى الكنبة، ستارة على الشـــباك ســاقطة.. قطع من خبز جاف على الأرض.. لمبة السقف مضاءة، ربما نسيها منذ الصباح.. الأرض منقوشـــة بالأحذيـــة والشباشـــب.. أعقـــاب السجائر متناثرة في كل مكان.. كومة كبيرة من الصحــــف تطـــل سفوحها من تحت الكنبة.. كرسي بثلاثة أرجل مسنود إلى الحـــائط.. الحائط المواجه.. تشغل نصفه على الأقل لوحة كبيرة فاقعة الألـــوان للسيد المسيح معلقاً على صليب ضخم.. كفاه مدقوقتان على الخشـــب بمسامير ضخمة، جسده الضامر يتدلى في إذعان وانهيار ورأســـه كذلك.. إلى جانبه مسيح ثان وثـــالث ورابـــع، وآخـــرون خلفـــه.. كثيرون جداً بعمق اللوحة.. العتمة تشمل الجميع.. المســـيح الأول والرئيسي تتضح تماماً ملامحه.. آثار السياط تمـــزق الجســـد فـــي خطوط متقاطعة وملتفة. على الحائط الآخر لوحة لامـــرأة عاريـــة أبدع الفنان رسمها.. تأملتها لحظات، تصورت أنها تكـــاد تســـحب الملاءة الخضراء على فخذها الطري الممتلئ. اللوحة كانت مائلـــة. تحتها كمبيوتر على ترابيزة تغطي جانباً منه قطعـــة مـــن قمـــاش أصفر. بقع كثيرة على الحائط الأيمـــن الـــذي امتـــلأ بالمســـامير وحفرها.. كل شيء حصل على أضعاف نصيبه من الأتربة.. هـــذه هي الصالة فما حال المطبخ والحمام والحجرتيـــن؟.دخـــل الحمـــام واغتسل، ثمة توتر يسكنني وارتياب، عاد يجرني ويواصل كلماتـــه الوادعة الجميلة الندية. تسللت إلى روحي وأنا كالمنومـــة إلـــى أن فوجئت به يساعدني على خلع فستاني من جسدي المتشنج، وتعـــثر الخلع مع اضطرابه وعجلته.. دفعته بقـــوة وأســـرعت باختطـــاف حذائي الذي لم أضع فيه قدمي إلا عند مدخل العمارة المظلم. لممت رأسي بأستك نقود ورقية كان في جيبي، وفي الشارع تبينـــت أنـــي نسيت كيس نقودي وتوكة شعري.

أسرعت أجري. أجري وأنا غير متفهمة لما كان يجري. لم أكن مستاءة أو ساخطة، ربما لأني أصبحت خـــارج اللعبـــة القاتلـــة..

أحسست فقط بضرورة الاندفاع إلى بيتي ومغادرة المنطقة الملتبسة حيث يعد لي الشرك بإتقان.. كنت دون وعي مقبلة على تجربة مختلفة وصادمة.. تجربة مرعبة.. تجربة في حجم زلزال يحطم كل شيء ولا يبقي إلا الخراب، ومع ذلك لم أستشعر الغضب من رعوف.. كنت فقط قوية جداً لدرجة الإصرار الشديد على سرعة العودة إلى البيت.. بيتي الآن برغم كل ما فيه هو الحياة الحقيقية والسلام.

فاجأني الهجوم من مفترس كبير ومن المؤكد أنه محترف.. طبيب بارع وجراح مشهور. كان قد خدرني تماماً بسحر الكلمات وحلاوة اللمسات.. كل الرجال كذلك.. يا ويل البنات.. يا ويلي.. لحقت نفسي في آخر لحظة قبل أن تقبض عليَّ أنيابه.. أكبر الانتصارات في الوجود تكمن في الإفلات من الفخاخ المرعبة.

وقفت على محطة الأتوبيس أمام هيئة الكتاب على الكورنيش. أرتعد كأني عارية في عز الشتاء. تناوشني بصمات يديه، وشفتيه على بدني وعلى رقبتي حتى بداية هضاب صدري الذي كان يسرع بالانضمام إليه والنداء عليه. كان كل شيء يمضي نحوه في غفلة مني وفي تواطؤ مشبوه.. مناطق كثيرة ومحمومة من جسدي الآن تتحسس يديه وأصابعه التي رحلت وبقيت علاماتها ووهجها المدمر، بالضبط مثل الرضيع الأعمى الذي يتحرك بغرائزه نحو الثدي أو الضرع.

الميكروباس سيصل الآن وليس معي نقود.. ما العمل؟. قبل أن أفكر في حيلة، واثقة أني لن أصل إلى فكرة، رأيته قادماً يركض من بعيد تسبقه سيجارته يحمل أشيائي المنسية. عينان زائغتان، لما اقترب بدا لي جلياً ما بهما من ذعر. المحطة خالية.. أخذني في أحضانه وضمني بحنان.. رفع إليه شفتي وقبلهما برقة زائدة، كان طيباً ومرهفاً ومعتذراً.. لا.. لم يكن معتذراً.. كان يود أن يوقع في نهاية اليوم على قلبي بإمضائه ويرفع رايته على أرض أنوثتي.. كان يود أن يطمئن أن كوب اللبن أصفى كثيراً مما كان.قلت له بلا

كلمة اطمئن.. كنت قد ألقيت عتابي على قارعة الطريق.. تركتـــه كي تحمله الريح بعيداً قبل أن تقع عليه عينــــاه الصافيتـــان غـــير النادمتين.

استدعيت فجأة أمام عيوني صورته وهــو فـــي بيتــه متعجــلاً ومضطرباً.. يبدو غائباً من فرط التركيز وهو منهمك فـــي إعــداد مشروعه الجنسي.. هاأنا الآن خارج خطته الجهنمية.

حدقت في السائق. تصورت أنه رءوف.. تنقلت نظراتـــي إلـــى باقي الركاب المتناثرين.. توقعت أن يكونوا جميعاً رءوف. كنـــت أشعر بأنه يحيط بي وأني سأرتطم به حيث أسير.. قلت لنفسي: هـذا الذي قبلني بحرارة، أمسك قلبي بخطاف قلبه وثمة شك في أن أنساه يوماً.. عند وقوف الباص نهاية الخط، أملت أن أجدك في انتظاري، تلقاني مرحباً بعينيك العسليتين، وذراعاك ممدودتان أمامك وشـعرك الناعم كأن الريح حاولت اقتلاعه.

كنت في انتظاري على أي حال.. هكذا فكرت وأنا أرى دنيـاي خلال عينيك، وعندما بلغت غرفتـــي ودخلتـــها شـعرت براحـــة واطمئنان لأني فوق الفراش، وتذكرت أني برغم عبثـــي ونزقـــي والفيضان الذي غمر جداولي وكاد يغرقني في متعة غير مســبوقة، لم أفقد شيئاً مهماً ولم ينكسر زجاجي، ووجدت قلبك يتمشى فوقـــي مثل عصفور أخضر حتى حط على صدري ونـــام. وإذا بصـــوت الصياد الذي كان يبسط شبكته بالقرب من مسرح غرامنـــا الجميـــل على روابي القناطر يجيء ملفوفاً غناؤه بغلالة من الشـــجن (ديـــل حشيش الجبل من قلة الراعي.. يا مين يجيب لي حبيب آخده علـــى دراعي) الصياد الذي لم يصطد إلا سمكاً كان يطمع مـــن قلبـــه أن ينال الرضا من القدر ويهبه حبيباً.. كان صوتـــه شـــجياً وعميقـــاً وحنوناً، استعدته عدة مرات، أو استعادني وربَّت على روحي.

بعد أن تزوج سيد تغير جذرياً.. ربما كان كذلك منذ البداية إلا أني لم أدرك حقيقة صفاته لصغري، ولم يكشف الوالدان عن معدنه المادي، مع أن أبي اختار له اسمه تيمناً باسم سيد جاب الله شيخ المسجد، بحر العلوم والفقيه المشهور والعابد الناسك الزاهد الورع.

سيد أخونا الأكبر ناظر مدرسة ابتدائية. انتقل إلى شقة جديدة لا تبعد كثيراً عن شقتنا التي عشنا فيها جميعاً في شارع مهابة بالبراجيل منذ أكثر من ثلاثين عاماً، حين كان أبي يتاجر في الجمال مع عمي، ثم مات عمي وتخلى أبي عن التجارة.

العصافير التي لا تكف عن اللثم طيلة النهار والزقزقة، وتفصل بمناقيرها القشرة عن حبة الفلاريس أو الدنيبة أو البنئ، بمعدل مائة حبة في الدقيق بمهارة فطرية مذهلة، تذكرني بسيد كما تذكرني بكامل سركيس وأمثالهما ممن يقيمان على الضفة الأخرى المواجهة لضفة العصافير وأمي وابتهال.. بضدها تتميز الأشياء. والفكرة تستدعي مثيلتها أو نقيضها أيضاً.

سيد لا يفكر في التلاميذ ولا في التعليم ولا في الكتب ولا في نظافة المدرسة أو ما يباع للتلاميذ من خارج الأسوار.. لا يراجع المقررات ولا يطل في الكراسات ولا يتابع المدرسين، ولا يحاول المشاركة ببعض الطلبة النابهين في مسابقات، ولا يطمئن بنفسه على الأنشطة الثقافية، ولا يهمه إذا كان التلاميذ يذهبون إلى المكتبة أم لا، ولا يعرف إذا كان هناك أولاد بارعة في العزف أم لا. لا يهمه إلا شيئان لا ثالث لهما.. أن صورة الرئيس فوق السبورة في كل فصل، وكيفية جمع أكبر قدر ممكن من المال.

تلميذ يود الانتقال من المدرسة إلى مدرسة أخرى عليه أن يدفع مائة جنيه.. يدسها فوراً في جيبه قبل أن يستل قلمه ويوقع على

طلب النقل. تلميذ يود الانتقال من مدرسة أخرى إلى مدرسة مبارك الابتدائية وناظرها سيد فرحات أبو المجد عليه أن يدفع أولاً مائة جنيه.. يدسها في جيبه ثم يوقع. مدرس يعطي للتلاميذ دروساً خصوصية، يعطي كما يشاء.. المهم أن يدفع المعلوم، ومثله من يعطي المجموعات.. المخصصات المالية التي قررتها الوزارة للنشاط الفني، يأخذها ويقدم فواتير تشير إلى أنه سلم للمدرسة فرشاً وألواناً وأحباراً ولوحات وخيشاً وأقلاماً ومسامير وبراويز وغيرها، ويأخذ مخصصات النشاط الرياضي ويجهز الفواتير التي تدل على أنه اشترى الكرات والشباك ولوازم الجمباز والملابس والهدايا والدروع والميداليات وغيرها.. ولا شيء في المدرسة غير الجلبة والركض والضجيج.. ويحرص سيد جداً على أن يكون الكل في أبهى صورة ونظام إذا كان هناك تفتيش.. وقد أكرم بعض معاوني المسئولين في الإدارة لإبلاغه بأي تفتيش قبل إتمامه بوقت كاف.

أخيراً توصل إلى فكرة جديدة.. يحتكر توريد الشيكولاتة والبسكويت والبونبون والملبسات، وكل ما يريده التلاميذ من أقلام ومساطر وأساتيك لتباع في الكانتين لحسابه..وهو لذلك دائم الحركة لا يهدأ.. يتابع فقط أموره المالية ومصادرها التي لا تتم في الخفاء، بل أمام كل العيون والآذان.. وإذا اشتكى أحد للإدارة التعليمية، تصل الشكوى في النهاية إليه بعد مرورها على ثلاث شخصيات قيادية عليا، والمختص بالتحقيق لا يحقق.. لأنه يحصل على بعض الإكراميات من أخي الأكبر سيد فرحات أبو المجد، فيؤشر على الطلب أنه بعد المعاينة والتحقيق وسؤال الزملاء تبين أنها شكوى كيدية ولا دليل عليها وشهد جميع المدرسين والتلاميذ بحسن الإدارة وطهارة اليد، والتفاني في خدمة العملية التعليمية بوصفها قاطرة التنمية في البلاد التي تصبو إلى المستقبل وتمضي نحوه بخطى ثابتة اعتماداً على جهود المخلصين من أمثال المربي الفاضل سيد فرحات.

كلما خطرت سيرة سيد ببالي وأثارت جراحي أطل وجه أمي ليضمدها ويهدئ لهيبها.. صعب جداً أن يحرم الإنسان من أمه، إذا قدر له أن يحرم من أبيه.

قررت فجأة الغياب دونما أسباب، وأوسعت مساحة قصيرة للوداع..سقط أبي بعدك. لم يسمح لنفسه أن يأكل بعدك أو يشرب، قرر فقط أن يعتزل في حجرته جالساً أمام صورتك، باكياً ومهمهماً.. متحدثا إليك.. قائلاً:

ـ سامحيني يا رزقة.

بدا كأنه يحس ببعض الذنب تجاهك من فرط عنفه وصخبه وأوامره الدائمة ومطالبه التي لا تنتهي، ورغبته في ألا يكلف أحداً بالعمل والخدمة إلاك، وكان قليلاً ما يتحدث إلينا ولا يكاد يعرف شيئاً عنا.

قد يحسب البعض أن الأم لازمة للطفولة فقط، هي ألزم للشباب أمثالي حين يكون بحاجة شديدة إلى حضنها.. حضن الحنان والعقل والحكمة والمشاركة.. حضن دافئ منير، قارئ للأفكار، يحس بك، يعرف حالاتك وأنت حائر وأنت في ضيق وأنت ساخط أو سعيد، وأنت معذب أو عاشق.. وأنت حاضر أو مسافر.

لولا أن ابتهال نسخة منك.. من حسن حظي.. لكانت المصيبة مضاعفة.. يقطع القدر من ناحية ويوصل من ناحية، يقضي الله بأمره ثم يلطف فيه.. يخرج ويداوي الجرح نفسه دواء لبعض ما يخفي علينا من أمراض وعلل.

ابتهال زميلتي في الشركة.. الجمال والوداعة والعقل.. دماغها سابقة دماغي،، وقلقها يساور قلقي، مخاوفها تخرج بالضبط في الوقت الذي تتحرك فيه مخاوفي، ونبضات قلبها دائماً على موعد مع نبضات قلبي.. العثور على النصف الآخر شيء رائع وأحياناً مذهل من كم السعادة الذي يغمرهما به ومن حولهما.. من بشر وحيوان وجماد.. الحب ليس لك وحدك مع أنه يغمر قلبك أولاً.

قالت لي ربما عدة مرات:

ـــ أعرف أنك يمكن أن تقول في نفسك، لو كانت ابتهال أجمـــل قليلاً، مثل سعاد حسني مثلاً.
ـــ ولماذا سعاد بالذات؟
ـــ تقول بعض الزميلات أني قريبة الشبه بها.
ـــ صحيح.
ـــ كنت أود أن أكون جميلة، مثلها تماماً كي أجننك.
ـــ ومن قال لك إني لست مجنونا.
ـــ لا أريدك مجنوناً فقط.. أريدك مجنوناً بي.
ـــ حصل وغلاوتك.
ـــ يزداد جنونك إذا كنت أجمل.
ـــ أنت أجمل مما تتصورين.. السمرة ليست ضد الجمال.
ـــ يرى البعض أنها تقلل من الجمال.
ـــ الجمال مجموعة من العناصر.. مجموعة تكونـــها الملامـــح المنظورة وتناسقها.. ومجموعة تنشأ من العوامل غـــير المنظـــورة مثل خفة الروح والثقافة والحيوية والتفاؤل والإرادة.
تسرع بالسؤال:
ـــ وأنا؟
ـــ أنت تتمتعين بالمجموعتين.
ـــ تبالغ.
ـــ أنا عادل وموضوعي.. العبرة بالنسب.. فأنت في المنظـــورة تحصلين على ٧٥% وفي غير المنظورة ٩٥%.
ـــ خليهم ٩٠%.
ـــ لن أتنازل عما قدرت.
نضحك ونرضى.. تسأل ابتهال عن أخبار رءوف وندى فأقول:
ـــ ضاقت المسافة بينهما كثيراً.. لكن الرسالة شـــاغلة رءوف، وحالة سمير شاغلة ندى.
ـــ ألم تجد عملاً؟
ـــ تبحث وتقرأ الصحف ويتوسط لها بعض أقاربها بلا جدوى.

ــ ربنا يسهل.
ــ كل شيء بأوان.
ــ ناس كثيرة كلموني عن مقالك "رسالة إلى أمي".
ــ من.. أعرفهم؟
ــ بعض أقاربنا.. أنا "يادوب" عرفت بابا وخــــالتي وأخواتــي وجارتنا، قلت لهم: خطيبي نشر أول مقال له في الأهرام.
ــ قلت ربما يساعدني نشر المقال ومقالات أخرى على إثـــارة موضوع كامل سركيس.. طبعاً عارفة إن فرج حسن الرسام هو من أشار عليَّ بضرورة نشره.
ــ عارفة.
كنا نجلس في نادي الجيزة الاجتماعي في شارع البحر الأعظـم، والدها عضو فيه.. الجو جميل، والنيل يجري لا يعبأ بما يجري. سألتني:
ــ أنت فعلاً تحاول إثارة موضوع سركيس.
ــ طبعاً.
ــ معركة غير متكافئة.
ــ المعارك لا تعرف عدم التكافؤ.. لا يفكر صاحب الحق فـــي غير الحق.. أم لديك شك؟
شردت لحظة ثم قالت:
ــ أنت تعرفني.. مؤمنة بأهمية المقاومة جداً.. وبأن المســألة لا تحتمل السكوت.. لكن
ــ اطمئني.. جمعت مستندات لا "تخر" الماء.
ــ عن؟
ــ عن مكتبه الذي تكلف تجديده ثلاثة ملايين جنيه.. عن كميات الحديد التي خرجت من المخازن لحساب مشروع العامرية ومدينـــة السادات ولم يصل إليهما شيء.. خرجت الكميات على الورق فقــط وسلمت لمهندسي المشروعين على الورق فقط، وحرر المهندســون

أذونات صرف للكميات للمقاولين الذين أكدوا أنـــها وضعـــت فـــي الأساسات.

ــ ودليلك؟

ــ بيان بأسماء السيارات النقل وأسماء الســـــائقين واعترافـــات محررة من بعضهم بالكلمة والصوت، إنـــــهم نقلـــوا الحديــــد إلــــى مشروعات أخرى تابعة لرئيس مجلــــس الإدارة وذكـــروا أســـماء السائقين المشاركين الذين رفضوا الإدلاء بأي كلمة.

ــ الرأي العام لا يهتم إلا بالعمليات الثقيلة.

ــ هذه الكميات تتجاوز قيمتها مليوني جنيه، ومـــــا نقلـــه إلــــى شركته يتجاوز اثني عشر مليوناً.. ثمن أجهزة ومعدات تم تشــــكيل لجنة لتكهينها نظراً لانتهاء صلاحيتها، ولدينا أرقام شاسيهاتها وهـــي تعمل الآن ومنذ سنين في شركته.

الخسارة الثقيلة التي يجب أن يشنق بسببها هي تقديـــم خطابـــات تعتذر فيها الشركة الوطنية عن عدم قدرتها على الوفاء بمشروعات كبيرة في مصر وبعض الدول العربية، وقيام شركته بتنفيذها وتصل إلى نحو ٧٩ مليون جنيه.. هذا بالإضافـــــة إلــــى حصولـــه علــــى عمولات أذون استرداد تبلغ حوالي عشرين مليون جنيه.

ــ أنا أتمنى أن يلقى العقاب الرادع ولكن أخشــــــى أن يصيبـــك ضرر.

ــ الأستاذ زكي مدير الحسابات رجل وطني ومخلــــص، لكنـــه طيب، لذلك يمدني بالمستندات ويشـــجعني، يعـــترف لـــي بأنـــه لا يستطيع مواجهة رئيس الشركة وأنه يخجل منه ومن غيره إذا ســئل عن أي شيء.. ويؤكد أنه غير محـــــارب ولا يعـــرف إلا الــــورق والأرقام.. رجل صادق.. وفي بيته له نفس المواقف.

ــ أعرف أنه شرابة خرج.

ــ ليس تماماً.

ــ لست أنا التي أقول.. بعض زميلاتي في العلاقـــــات العامــــة صديقات لزوجته.

ـــ البيوت أسرار.

ـــ المهم أنه معك مائة بالمائة.

ـــ مادام الورق سليماً وكامل التوقيعات فلا اعتراض لديه.. هذه مشكلته ويعلم جيداً أن السرقات لا تتوقف وتم توريط عدد كبير فيها، لكنها محكمة ومسبوكة وعين الرئيس حمراء فلا أحد يفتح فمه، ومع الأستاذ زكي مدام نينت رئيسة قسم التكاليف تنبهت لرائحة الخلل والسرقة وعاونتني كثيراً.. اطمئني.. أيام قليلة ويكتمل الملف واتفقت مع كريم صبحي على نشر الموضوع في "النهار".. فرج حسن أبدى شكوكه في إمكانية نشره في الأهرام.

ـــ تعرف أننا لا نحس بكل ذلك في إدارة العلاقات العامة.. ليست لدينا أية مستندات،وإن كنت ألحظ التكاليف الكثيرة جداً على استقبال الوفود وسفر مندوبينا للدول وحفلات كل أسبوع، وهدايا وفواتير فنادق وانتقالات وبدلات، غير الإعلانات في أكبر الصحف والدعاية والتهاني والتعازي والمقالات مدفوعة الأجر، نعدها نحن في الإدارة وتنسب إل أحد الصحفيين فيحصل على مكافأة كبيرة وندفع للجريدة ثمن المساحة عشرات الألوف.. ميزانية الإدارة ضخمة من أجل رسم صورة جميلة للشركة ورئيسها.

أحسست بثقل في رأسي وطرق.. أمسكتها وأنا أفكر في كلام ابتهال.. تنهدت ثم قلت:

ـــ في الوقت الذي يعاني فيه العمال من توقف الأجور أحياناً، وتأجيل صرف الأجور الإضافية، وضعف احتياطات الأمن الصناعي، والإهمال في رعاية العمال وحمايتهم من الأخطار.. وخطوط الإنتاج ينقصها الكثير، وافتعال حرائق في المخازن والورش، غير تعطل بعض سيارات النقل والأوناش وتركها متعطلة والسماح باستئجار سيارات أخرى من شركة أخيه التي تحمل اسم زوجته أو من الشركة الثانية التي تحمل اسم ابن أخيه.

ـــ ياسر.. نقطة نظام.. تكلمنا كثيراً عن الشركة العامة ولم نتكلم كلمة عن شركتنا.

أبتسم وأشعر بالحرج وأبدو مقتنعاً برغبة ابتهال، لكني أقاوم:

ـ أليست هي أيضا شركتنا؟

نضحك معاً.. وأمد يدي فأمسك يدها.. عندئذ يحمر وجهها وتشعر بالراحة، تنتعش روحها وتضيء ملامحها.. أدرك أن سعادة أي امرأة بالإمكان..

ـ الستات في كل مكان وزمان واحد، وفي كل الأعمار أيضاً.

ـ كيف؟

ـ البنت تحب تكوين البيت، حتى وهي في الثانية من عمرها.. تختار أن يكون محور لعبها بناء بيت وتأثيثه وما إن تقترب من المراهقة حتى تفكر في الأمومة وتفكر في البيت ككيان خاص وبالرجل الذي يشاركها فيه.

ـ تكوين المرأة فطري لا علاقة له بالأفكار الجديدة عن المساواة وحرية المرأة.

ـ لا.. لا علاقة لكل ذلك بالإحساس الغريزي لدى المرأة، هي تشعر من أعماقها بغريزة الأمومة مرتبطة بإطارها وهو البيت، فلكي تتحقق الأمومة تحتاج بالطبع إلى بيت، وكلما كان البيت مجهزاً وكبيراً وجميلاً ومريحاً، كانت الأمومة متحققة ومتألقة، وكل شيء بعد ذلك يمكن التفاوض حوله.

ـ أنا مندهشة..كيف عرفت هذه الأمور؟

ـ في بيتنا، كنت ألعب دائماً مع نوال، وأذكر أن أمي دخلت عليها وهي تحمل صندوقاً.. نادت عليها.. وكان عيد ميلادها الخامس.. فتحت نوال الصندوق بمعونة أمي.. وصرخت فرحاً عندما وقعت نظراتها على ما فيه.. كان طقم أواني مطبخ كامل.. حلل صغيرة.. على كل منها غطاؤها.. مغرفة نونو.. بابور جاز صغير في حجم دواية اللمبة.. وهون خشب (صلاية) وطبلية في حجم منفضة سجائر صغيرة، والأطباق عليها مثبتة وكل طبق في حجم غطاء زجاجة الكولا، وهناك أيضاً مخرطة وملاحة وبراد صغير للشاي.

ابتهال تضحك سعيدة بهذا العالم وتقول:
ـ رأيت هذا الطقم عند سوسن ابنة خالي، وكنت أذهب خصيصاً لألعب معها به، وطلبته عدة مرات من أبي، لكنه كان ينسى.. أنتِ تعرف أن أمي ماتت بعد ولادتي بشهور.
ـ طبعاً لازم ينسى.. هذا النوع من الألعاب يصعب على الرجل أن يتذكره بحكم مشاغله وتجارته، وربما يتذكر الأب ألعاب البنتين أكثر.
ـ لم يكن بالإمكان أن يتذكر بعد أن تزوج.
ـ لا داع لأن تقولي: ما لم يحققه لي أبي حققه لي أنت، وتطالبينني بطقم حلل صغيرة.. نونو.
ـ سأطلب طقم حلل ولكن ليس نونو.
نضحك ونكتشف أن عامل النادي لم يحضر عصير المانجو الذي طلبته ابتهال ولا عصير البرتقال الذي طلبته.
ألتفت حولي فألمحه. أطرقع له بإصبعي، يلحظ الجرسون الطويل الأسمر، يبتسم يقول من بعيد:
ـ فاكر.. دقيقة واحدة.
أمسك يدها وأحدق في خطوط كفها.يدها طرية صغيرة.. أتصور الخطوط شراع مركب، فأقول:
ـ ما رأيك.. نفسي أركب مركباً.
ـ الآن؟
ـ نعم.. نحضن النيل ويحضننا ساعة قبل الغروب.
ـ ألن تكف عن مفاجآتك؟
ـ أحلى ما فيّ.
ننهض سوياً.
ـ أنت تحب النيل.
ـ جداً.. لا أشبع من النظر إليه.. غذاء روحي الحقيقي.
ـ وأنا.
ـ أنت روحي ذاتها.

قربت يدها من يدي، فأمسكت بها.. تمنيت أن لا يضطرني الجرسون إذا عاد بالعصير للعودة والجلوس وضياع الرحلة النيلية.

لمحته قادماً عبر البوابة، قررت تجاهله.. لفتت ابتهال انتباهي قائلة:

— رشوان الذهبي ووراءه كامل دياب.. ما رأيك نسلم عليهما؟
— لا.. لن أسلم.. امشي عدل ولا تنظري إليهما.
— كتاب كبار.. مالك يا ياسر؟
— لا شيء. فقط لا أود أن..
— أنت في بداية تعارفنا حدثتني عن إعجابك بما يكتبان.
— كان ذلك قبل عامين.
— لم ألحظ تغيراً على كتابة رشوان أو دياب.
— لم يكن تغيراً وإنما اكتشافاً.. حدثت عدة أمور وأثيرت قضايا، لم يعجبني رأيهما فيها.. كانت سلبية تماماً.. رشوان مثلاً يعترض على كفاح الفلسطينيين، ويرى أن الانتفاضة خسارة.. والعمليات الاستشهادية إرهاباً وانتحاراً.. دياب يتحدث في كل مناسبة عن أن مصر فرعونية وليست عربية.. أفكار سطحية.
— الآراء تتطلب نقاشاً لا عداء أو تجاهلاً.
— لم تنته المشكلة عند هذا الحد، ولكن المزعج حقاً أساليب النفاق التي يجيدانها، ومجموعة أخرى من المفكرين والكتاب والصحفيين.. يتملقون المسئولين، ويذكرون بالسوء كتاباً مناضلين أمام من يطمعون في الحصول على رضاهم.. كتاب شرفاء تبددت أعمارهم في السجون وفي مواجهة المدعين والعملاء، أصبحوا في نظر السيدين الفاضلين من أعداء النجاح ومن الحاقدين.. بل إن آراءهم في بعض الشخصيات التاريخية التي تعد في مقدمة رموز الأمة، ونماذج عالية في الثورية والكفاح.. هم الذين أضاعوا البلاد وورطوها في أوضاع ثقيلة ومواقف حرجة بددت إمكانيات الوطن ووضعته تحت طائلة الاستعمار، فأحمد عرابي ليس الوطني الذي قال لا للحاكم المستبد وأعوانه، بل هو الذي سلم البلاد للإنجليز،

وسعد زغلول لا مبرر لما يحاط به من هالة وتقدير، وبعد أن كانوا يمجدون في القطاع العام بوصفه العمود الفقري للحياة الاقتصادية المصرية، الآن يهاجمونه بضراوة.

ــ المسألة لا تستأهل كل هذا التحامل.

ــ مثل هؤلاء المثقفين الذين يقدرهم الشعب، أكثر ضرراً من السياسيين المتقاعسين عن الديمقراطية،أو الذين لا يجيدون شيئاً غير الخطابة وتوزيع الوعود البراقة.

شدتني من إسورة القميص:

ــ ياسر.. ياسر.. نقطة نظام.

ــ نعم.

ــ أنت متحامل عليهم..كأن بينك وبينهم ثأراً.

ــ أنا لا يغيظني إلا المثقفون الذين يأكلون على كل الموائد، كانوا يوماً أكبر من يدافع عن الاشتراكية ثم أصبحوا من عتاة أعدائها.. لعنوا الأمريكان الذين هدوا حيل العرب وأوقفوا نموهم، ثم تحولوا ١٨٠ْ فأصبحوا يؤيدون المشروعات الأمريكية في المنطقة.. هم من ضللوا الشعب وضللوا الرؤساء.. المفترض أن معظم رؤساء الدول النامية جهلة وقليلو الخبرة، خاصة العسكريين منهم.. فماذا فعل المثقفون أمثال الذهبي ودياب؟

عادت تشدني من قميصي:

ــ ياسر.. ياسر.

ــ نعم.

ــ أنت متحامل.

ــ مثال واحد فقط ولن أفتح فمي..الذهبي وحامد نجم وطلبة المداح عارضوا المسئولين في وزارة الثقافة وهاجموهم بضراوة.. نددوا بالإهمال وسوء حالة الآثار، وتراجع الكتاب، وانهيار السينما، وعندما دعاهم رئيس الوزراء في اجتماع.. أكلوا وشربوا وجلسوا مع السياسيين في القصور وحملتهم السيارات الفارهة إلى اللقاء وأعادتهم إلى بيوتهم.. بعدها رأوا أن الحكومة على صواب، وكل

شيء في أحسن حال، ووعدوا بالتعاون مع الوزارة، ورد كل هجوم عنها، فليس بالإمكان أبدع مما كان.

ابتهال شدتني من قميصي لثالث أو رابع مرة:

ـ ياسر.. ياسر.. نقطة نظام.

ـ نعم يا ابتهال.

ـ أنت متحامل عليَّ.

ـ لماذا؟

ـ ألم تلاحظ أنك لا سقيتني العصير ولا كلمتني عن بيتنا ولا قلت لي كلمة حب، ولا ركبنا المركب ولا..

ـ آه صحيح.. إذن هيا بنا إلى السينما.

مضينا نضحك وانطلقنا إلى السينما.. قلت لها: تعالي ندخل ملك الخواتم.

قالت: لا.. سهر الليالي.

كنت أتمنى أن آخذها بين أحضاني في السينما.. ولكن العيون كلها حتى من في الشاشة كانت علينا.. أو هكذا تصورت.. دائما تؤجل رغباتي تلك العيون التي أحسب أنها تراقبنا.. بعد الزواج لن يهمني.

"وما أدى إلى ازدياد سوء سيرة هؤلاء الولاة وكثرة ظلمـــهم، أن تولي هذه الوظيفة أصبح في الدولة الثانية من اختصاصات اســتادار السلطان، الذي كان له السلطة العليا في الديوان المفرد الذي كـــانت له أراض منتشرة في معظم الولايات، فصار الاستادار لا يولـــي إلا من بذل له المال، ولا يقنع بذلك بل يؤجر للولاة بلاد الديوان بأعلى إيجار ويحصله منهم شهرياً، فصار دأب الولاة سداد ما عليهم مـــن أي وجه كان، فشرعوا في الظلم وحماية المنسر وقطـــاع الطـــرق ونهبوا أموال الفلاحين بكل ما تصل إليه قدرتهم، لكن هذا لا ينفـــي وجود بعض النماذج الحسنة من الولاة ـــ وإن كان في حكم العـــدم ـــ الذين اهتموا بشئون ولاياتهم وعملوا على صيانة ما بـــها مـــن الجسور ووسائل الزراعة التي هي أهم مـــوارد الدولـــة، والســـبب الرئيسي بالإضافة إلى عوائد التجارة في ثراء المماليك الباهظ"، فلـم يكن هناك لا سياحة ولا بترول ولا تصدير ولا قناة الســـويس ولا صناعة ولا عمالة في الخارج.. الكل يعتمد على الفلاح.

أما معظم الولاة (٩٥% على الأقل) فقد تفننوا في إذاقة الفلاحين أنواع العذاب، من ذلك ما ابتكره أحد الولاة من تثبيت "خوازيق" في الأرض ورفع الفلاح ببكرة على صاري، ثم يـــترك الحبـــل فجـــأة ليسقط الفلاح على أحد تلك الخوازيق فيخرج من جسده حيث يقـــع، ومنها أن يعلق الرجل منكساً ويرمي عليه بالسهام حتـــى يمـــوت، وربما نفخ في دبر الفرد بالكير حتى تخرج عيناه وينفلـــق دماغـــه، وقد تلف على أصابع الرجل الخرق المغموسة في القطران ويشـــعل فيها النار.

كما وجد من الولاة من ينعل الرجل في قدميه كما ينعل الفـــرس (لتركيب حدوة) ثم يؤمر بالمشي عليها، وقد يعلق الرجل بخطـــاف

حديد من فكه ويترك حتى يموت، بل إن بعض ولاة المنوفية أوقف رجلاً بين خشبتين ونشره من رأسه، كما صلب ثان، وسلخ ثالث وهو حي".

"لم تكن عملية جباية الخراج في البلاد تتم سلمياً وبهدوء، فليست هناك أي رحمة أو شفقة في جمع الضرائب، فمن لا يستطيع الدفع وأحياناً من يطلب منه ذلك عدة مرات في العام ــ كان يبيع ماشيته فإذا لم يدفع أخذوا ولده أو أخاه أو أحد أقاربه ووضع في السجن حتى يسدد الفلاح ما عليه، ولذلك كان الفلاح يتحين الفرصة لكي ينجو بنفسه في حالة عجزه عن السداد فيهرب تحت جنح الليل ولا يعود إلى بلده أبداً، وقد امتلأت سجون العصر المملوكي عن آخرها ومعظم السجناء من الفلاحين يعاملون معاملة أصحاب الجرائم، حتى أن السلاطين عندما كانوا ينعمون على المسجونين في المناسبات الدينية كحلول شهر رمضان، كانوا يطلقون سراح جميع المسجونين عدا الفلاحين وأصحاب الجرائم الثقيلة".

"صارت سنة أن يفرض كل سلطان عند خروجه للحرب أموالاً تجبى من قوت الشعب، سيما أهل القرى الذين تحملوا العبء الأكبر في ذلك نظراً لتواجدهم على الأرض الزراعية مصدر النفقة على الجيش، ولم تكن المسألة قاصرة على الأموال ولكن أيضاً على الجمال والأبقار، أما المشروعات مثل إقامة الجسور والخلجان فيجمع لها الأموال والرجال والأبقار، ثم تعاد إليهم الأبقار بعد العمل والإنهاك لدفع ثمنها من جديد، وهذا ما كان يدفع الفلاحين للتفريط في الأرض وهي أعز عليهم من حياتهم وما يملكون، فيهرب بعضهم إلى المدن ليعملوا فعلاء" يرفعون الأحجار والرمل والأسمنت لبناء البيوت.

أما في أيام المجاعات ومعظمها ناتج عن تقصير الفيضان، فيضطر الناس من قسوة الجوع إلى أكل القطط والكلاب والحمير (نحن نأكلها الآن من جشع التجار لا من نقص الفيضان) وربما اضطروا إلى أكل الجيف والإنسان والحيوان والجراد (نحن نأكلها

الآن أيضاً بسبب حاجة بعض التجار إلى سرعة مضاعفة المكاسب وشراء أغلى السيارات والعمارات).

أما في حالات الرخاء فيأكل أهل الريف "البصارة" وهي مكونة من الفول المدشوش والملوخية الجافة، وكذلك العدس والفول المدمس والويكا "البامية" ومن طعامهم الغالب "الخبيزة" التي لا تكلفهم شيئاً غير البصل والكزبرة وتنبت في أطراف الزروع وعلى حواف الحقول وربما نبتت في المقابر وعلى جسور الترع. كما يأكل أهل بحري القلقاس في الشتاء وكذلك الكشك، والسائد أكل المش بالدود والسوس والجبن الأزرق الذي طال تخزينه، وقد يأكلون الفسيخ في الأعياد (أغلب هذه المأكولات لا تزال مأكول معظم الشعب).

أما الملابس فالفلاح كان يقضي غالب وقته وليس عليه غير أطمار بالية رثة من "لبدة مشروطة" و"خلقة مقطعة" مما يجعله شبه عار، وكان منهم من يلبس "القحف" وهو طاقية طويلة تصنع من الصوف أو من شعر الماعز، والبعض ينتعل في قدميه المراكيب والأغلب حفاة، ويبيت في منزل من طوب اللبن مسقف أخشاب السنط وأفلاق النخيل والجدران مطلية بالوحل، ومعظم الفلاحين ينامون على أفران يستدفئون بها في الشتاء لعدم توفر الغطاء، وفي الصيف يرتمون في وسط الدار أو فوق السطوح أو أمام الديار ولا تفتأ تطاردهم الحيوانات القارضة كالفئران والعرس، والزاحفة كالسحالي والثعابين وتعشش في أجسادهم أسراب القمل والصيبان والبراغيث، ويتعرضون لقرصات البعوض والذباب والذنابير.

وعندما تنهار بعض الجسور يقوم المباشرون بجمع الفلاحين مقيدين في الحبال للعمل بعيداً عن ذويهم بلا أجر وبقليل من الخبز المقدد وكثير من الضرب".

هذا ليس رأيي ولا رأي أي مصري، بل ذلك بعض ما ورد في كتب الرحالة الفرنسيين والإنجليز، ومعظمهم تميز بالصدق والدقة والموضوعية، ولم يكتب أحدهم إلا عن معاينة مباشرة، ومما يؤكد

صدق ما ذهبوا إليه اتفاقهم جميعاً على اختلاف جنسياتهم وأزمانهم طوال القرون الأربعة من السادس عشر حتى التاسع عشر.

لقد جمعت أكثر من سبعين كتاباً بالعربية فقط تتضمن معلومات من مثل ما سبق عرضه كتبها رحالة ومبعوثون وقناصل، وهناك كتب أخرى لم تترجم بعد، سأحاول الحصول عليها وقراءتها وعرض ما يهم منها.

لو كانت مديرية التربية والتعليم بالجيزة قبلت انتقالي لهيئة الكتاب لارتحت وأنجزت.. البيروقراطية تضرب في هذه المديرية بالذات.. كل من فيها معقدون.. يجيدون وقف حال المدرسين وينزعجون إذا حصل أحد على ميزة أو تحقق له بعض ما يريد.. كل موظف من الإداريين يقول: هذا لا يكون أبداً إلا على جثتي.

وافق رئيس هيئة الكتاب على نقلي، بل وعدني بالعمل سكرتيراً لسلسلة تاريخ المصريين التي يشرف عليها د.عبد العظيم رمضان.. أي أنني سأكون في المكان المناسب جداً.. من حيث العمل ومن حيث الاطلاع كما أشاء في دار الكتب الموجودة في نفس المبنى.. لابد من عمل قائمة بأسماء من يعطلون المصالح وتعقيد الأمور وخلق العقبات وابتكار المعوقات وتجميعهم في مكان بعيد.. ربما تكفيهم بالكاد الصحراء الغربية.. وبدلاً من إطلاق النار عليهم تركهم هناك دون طعام أو شراب.. وبعد فترة سيتحولون إلى عقارب.. سرعان ما يأتون إلينا مرة أخرى.. إذن فلا مفر من إطلاق النار عليهم.. أنا مضطر لهذه النهاية.

(١٣)

دفع العجلة الرمادية ذات العجلات إلى مقر عمله. هناك تحت عمود النور في المنطقة الخالية من الحركة، البعيدة نسبياً عن مجمع العمارات الأربعة ومداخلها..الحركة عموماً خفت، فالساعة الثانية بعد منتصف الليل، هذا موعده لبدء العمل في هدوء وتركيز.. عمل حساس يحتاج إلى صبر شديد وإلى خبرة تضر به العجلة والتهور، عمليات الفرز والتقييم لا يتعين أن تفسدها القرارات السريعة فسوف تتوقف عليها مصائر أسرة.. سعادتها أو تعاستها، وهو رب هذه الأسرة.. تعتمد عليه في توفير غذائها وكسائها وألعابها أيضاً.

هيا بسرعة.. ثلاث ساعات لا تكفي لفحص محتويات عربتين كبيرتين، سعة كل منهما لا تقل عن متر مكعب من المخلفات.

أسرع بدفع الثانية إلى الركن البعيد الهادئ،وتحول إلى الأولى فقلبها على الأرض.. لم يكن قبل عامين يستطيع أن يحركها، فقد كانت من الحديد، ومنذ غيروها إلى البلاستيك استطاع أن يقلبها ثم يعيدها كما كانت وقد فقدت ربعها على الأقل.

هاهي الليلة عامرة بما لذ وطاب من القمامة، بعضها يصلح وبعضها لا يصلح، مع اعترافه بينه وبين نفسه كأستاذ كرسي القمامة في جامعة الشوارع وخبرة تتجاوز عشرين عاماً أن القمامة كلها صالحة.. وأن هناك بيوتاً مفتوحة منها، أي أنها سبب رزق أرسله الله إلى مئات البيوت، لكن ذلك لا يكون إلا بعد تجميع أكبر قدر منها، والاستعانة بعمالة كبيرة تتمتع بالمهارة والخبرة.. لكنه لا يريد أن يتوسع.. هو لا يأمل إلا أن تكون في حدودها كعمل إضافي من الثانية إلى الرابعة فجرا، وقبل أن تصل السيارات الكبيرة لابتلاع محتويات العربات الصغيرة.. بعدها يصلي الفجر ويخطف ساعتين نوم أو ثلاثة ثم يتوكل على الله إلى محطة المياه.

بدأ هذا العمل الإضافي السري بعد شهور قليلة مـــن زواجـــه، واستمر مجرد هواية لمدة عامين بعد وصول ولده الأول "بشــرى".. نظرات عابرة، تقليب خفيف يكتفي بالربع الأعلى من العربة حيــث يجري فحصه على الواقف.. نظرة في الصنــدوق ونظــرة علـــى المارة.. مواعيد غير منتظمة.. خجل.. عدم فـــهم طبيعـــة بعــض المخلفات، وكيفية الاستفادة منها. ظلت زوجته تجهل عمله الســري، إلى أن وصل الثاني فقرر الاحتراف والاعتراف..انزعجت زوجتــه في البداية، لكنها مع ثقل النفقة وثقل البطن بالضيف الثالث، وبعض الطموحات المتواضعة ولا دخل غير الراتب، نكست رأسها وقـــالت له: ربنا يعينك علينا.

أمدته هذه الكلمات بشحنة غريبة.. قرر العمل بوعي وإخـلاص، وتذرع بمزيد من الصبر والعناية بكل قطعة أو كيـــس أو لقمـــة أو حتى ورقة، وبعد أن كان واقفاً جلس، وأسقط على الأرض كل مـــا في العربة، وكانت النتيجة تستحق العناء.

مرتبه ١٦٥ في الشهر تكفي لإفطار أولاده السبعة، فقـــد جـــاء الولد بعد الولد والزوجة تتمنى على الله ابنة، والله لا يريـــد، ظلــت رغبتها في الإنجاب تتوالى حتى وصل العدد نصـــف دســـتة مـــن الذكور في عين العدو، وأصدر قراره الذي لا يستطيع أحـد رده إلا زوجته بأن تتوقف مسألة الإنجاب، لأن الأولاد شـــهيتهم مفتوحـــة بشكل غير طبيعي، ولو ملأ الغرفة طعاماً لنسفوه في لحظات، لـــم تعترض الزوجة، لكن الله قرر أن يهبها ــ ولو بالخطـــأ ــ بنتـــاً، رغم أن اللولب كان حكومياً جيداً غير قابل للاختراق.

المرتب يكفـــي الإفطـــار، أمـــا الغـــداء والعشـــاء والملابـــس ومصروفات المدارس والانتقالات وأجرة الشقة والعلاج والأدويـــة والكهرباء أو أي طوارئ فلا يوجد ما يواجهها.

كان يتمنى من كل قلبه ــ ولو أن هذا حرام ــ أن تكـــون فـــي عمله فرصة للرشوة أو السرقة أو الانتفاع على أي نحو، وكم تمنى أن يعرف شيئاً عن تزوير الأختام والمستندات والتوقيعات.. وكـــان

يشعر بالضآلة لأنه لا يملك القدرة ولا المهارة ولا القلب الحديد لمخادعة حتى بائع الفاكهة والتقاط حبة تفاح أو برقوق أو أي ثمرة من تلك الثمار التي لا يعرفها.. وفكر عدة مرات أن يشتري ما يشاء من البضائع ثم يدعي أنه سدد الثمن، ويقسم على ذلك بكل المقدسات، لكن حتى ذلك لم يتمكن من فعله، فما هو الحل؟.. هل أصبح الحرام صعباً إلى هذه الدرجة والحلال من المستحيلات؟.. هل أدى ارتفاع ثمن الحلال إلى رفع سعر الحرام؟!!.

المشكلة أنه كان يود أن يوسع رزقه من خلال عمله في المرفق، لكن طبيعة عمله ليس فيها ما يعين أو يفتح باباً لذلك، فهو المسئول عن قيد الشكاوى في الدفتر ومتابعتها مع الإدارات المعنية.. طلب مراراً أن ينتقل إل إدارة التحصيل ليمر على البيوت والمحلات والشركات يحصل الفواتير، وكل مرة كان طلبه يرفض بسهولة وسرعة ودون قراءة.. مدير إدارة التحصيل يرفض بحجة أن عنده ما يكفي من العمالة.

إنه بحاجة إلى ثلاثة أضعاف الراتب لكي ينام الأولاد في هدوء، طبعاً دون أي محاولة للاقتراب من اللحم، لأن وجبة اللحم تتكلف على الأقل أربعين جنيهاً بحيث لا يتاح للفرد من العشرة بمن فيهم أم رزق إلا قطعة وحيدة في حجم البيضة، وزوجته الشاطرة التي أنضجتها الظروف أو الوراثة، تزيد الزيت في طاسة القلي كي يمس كل واحد لقمته حيث تم تحمير هذا الطعام اللذيذ النادر، ولو أراد رزق أن يأكلوا اللحم أربع مرات في الشهر فألف جنيه ربما تكفي، وهو يحمد الله ليل نهار وتحمده معه زوجته وأمه لأنه لا يدخن السجائر أو على الأقل لا يشتريها.

يرمي رزق الشامي شقيق منصور الأصغر نظرات أولية على الكوم الكبير.. نظرات تحاول تحديد الأشياء التي تملأ المكان بلا داع.. جرائد.. عجلة كاوتش ممزقة.. كراتين فارغة أو يتم تفريغها ولا تصلح لوضعها تحت المراتب النحيلة أو فرشها على الأرض.. من الوضع واقفاً وفي دقائق قليلة يستطيع تخفيض الكوم إلى نصفه

ويكون قد ألقى بسرعة تلك الأشياء الهائشة غير ذات النفع داخل العربة، ثم يجلس على الرصيف العالي لبدء العمل في مرحلته الثانية والمهمة.

تمتد يده لالتقاط الزجاجات الفارغة، يركنها على جنب، وكذلك كل ما يمكن اعتباره عدة، جزء من خلاط أو ملف كهربائي، موتور ثلاجة أو جزء من موتور.. ريش مروحة، جنزير عجلة.. قفل.. قلب ساعة.. مفاتيح بوتاجاز.. شريط فيديو أو كاسيت سليم.. مسامير تصلح للورق.. كالون قديم.. أكرة باب.. حلل أو أطباق.. براويز.. أدوات سباكة مثل الحنفيات والمحابس والكيعان والنبل.. مقابض.. دش عادي أو سماعة.. لي صالح.. هكذا يخف الكوم الجديد إلى النصف ليبدأ العمل في المرحلة الثالثة الأطول والأهم والأكثر تعقيداً.

في هذه المرحلة يرفع كل ما هو أقمشة وملابس.. كلوتات.. سوتيانات.. بنطلونات.. فانلات.. جوارب.. ويقلب كل قطعة بسرعة، فيلقي في العربة ما لا يصلح ويركن على جنب ما سيحمله مع الأخذ في الاعتبار ما يمكن أن يرقع أو يغسل وتستكمل أزراره، يلقي إلى العربة حفاضات الأطفال، ويستبقي أوراق الكرنب والقرنبيط ومخلفات الخضراوات كالسبانخ والكوسة والبطاطس لأكل الدواجن التي تربيها حكمت.

باقة الورد التي جفت، لا تحول عجلته دون أن يشمها، وفي كل مرة يتوقع أن يشم رائحة طيبة، كل أعصاب أنفه لا تجد إلا رائحة أقرب إلى رائحة الدخان أو الحريق أو التراب، فيستدرك رافضاً سب الورد وأصحابه:

ـــ ربما كانت له رائحة عندما كان طازجاً، والحدأة لا ترمي الكتاكيت.

يبتسم في سره دون أن تتغير ملامحه المشغولة وعيونه المحدقة والتي تسبقه لفحص الأشياء بصورة غير منتظمة.. يقول:

ـــ لعل كثرة الشم أفرغت الرائحة.

عندما وضع فلسفة وخطة الفرز وقسم مراحلها، رأى أن تنقسم الأهداف إلى مجموعتين، مجموعة لتلبية الاحتياجات العاجلة أو اليومية، ومجموعة لتلبية الاحتياجات الآجلة.. أشياء ذات نفع آني، وأشياء يمكن أن يكون لها نفع على المدى الطويل.. كما أن في المقابل هناك تقسيماً متداخلاً قائماً على أساس المستفيد، فإما أن يكون الشيء مطلوباً للاستخدام الأسري له ولأهل بيته، أو تجهيزاً لبيعه للغير.. المسألة ليست عشوائية وإنما عمل جاد ومنظم يحكمه العلم والإدارة والخبرة، ومن يخلص في عمل يفتح له صدره ويلهمه الأفكار والمنافع.هذا مفرش مطرز جميل، سليم إلا من ثقوب قليلة وشخبطة عيال بأقلام جافة حمراء وزرقاء، يمكن محوها، وهذا طبق صيني كبير مشطوف من الحرف في حجم نصف إصبع، لكن الورود المرسومة في وسطه رائعة، براد شاي ألومونيوم كبير وسليم بلا يد، يمكن تركيب يد ولو ربطها بسلك.

في الأسبوع الماضي وجد رخصة سيارة عليها صورة سيدة ذات وجه جميل ممتلئ بالخير والرفاهية.. في الصباح سأل السُّيَّاس والبوابين حتى توصل إلى شقتها.. ذهب إلى العمل في مرفق المياه وهو مشغول بالرخصة وصاحبتها والمبلغ الذي ستدفعه.. كل ملامحها تشي بالعز والكرم.. أمثالها لا يصحون من النوم في الثامنة أو التاسعة.. سيغادر محطة المياه في الحادية عشرة.. لا.. في الثانية عشرة..

ــ بهذا أضمن صحيانها وتناولها الفطور والشاي بالحليب أو..

دق الجرس.. خادمة سمراء فلبينية فتحت الباب بعد لحظات.. سأل عن السيدة إلهام.. لماذا تريدها؟ سألت الخادمة بلكنة محطمة.. قال رزق: أريدها في أمر هام.. الشقة عبارة عن قصر.. لم يتصور أن تكون هناك شقة بهذا الشكل مهما هندسوها وجملوها.. الأثاث فخم جداً.. يشغل كل المساحة التي تمتد بعيداً.. لعل الشقة بعرض العمارة كلها.. السجاد سميك جداً يشبه الفرو.. لوحات كبيرة وجميلة على الجدران.. الأثاث يغلب عليه اللون الذهبي..

كرانيش ذهبية في أطراف السقف.. براويز ذهبية.. أطراف الستائر ذهبية.. تصور رزق أن كل شيء من الذهب أو مطلـــي بـــالذهب، حتى ما كان لونه أخضر أو أسود يمكن أن يكون من الذهب.

الجدران تنتشر عليها لوحات فيها ورد كثير.. كبـــير وصغـــير حتى السقف.. والسقف نفسه به نقوش وورد أبيض بارز، ونجـف.. التحف في الأركان إلى جانبها شمعدانات وتماثيل صغيرة معدنيـة.. على الأرض كلب صغير أبيض جميل.. عندما وقعت عيناه عليـــه لأول وهلة كان ساكناً.. لم يتوقع أن يكون خلقة ربنا.. حسبه لعبة.. لكنه لاحظ نظرات التعجب في عيني الكلب، خاصة أن رأسه أيضـاً تحركت يميناً ويساراً، يحاول أن يتعرف على هذا المخلوق الـــذي يقف قرب باب الشقة.. باب الشقة عريض وضخـــم وثقيـل، مـــن الداخل يتكون من مربعات صغيرة من المرايا.. أظهرتـــه المرايـــا كشيء ممزق وبلا شكل.. كومة مـــن المخلفـــات.. نبـــح الكلـــب فاعتدل.. نباح صغير ورفيع وطيب:

— لولي.

نادته الخادمة، أسرع إليها ووقف إلى جانبها لحظة، ثـــم عـــاد ينظر إليه ودخل إلى عمق الشقة من وراء برافان خشبي أرابيســـك معشق بالصدف.. المكان تشمله رائحة عطرة.. موســـيقى خافتـــة تحيط به وترطب روحه.. لا يدري من أين تأتي؟ لعلها تأتي مـــن السقف، حيث أضواء خافتة تخفيها كرانيش وتماثيل بارزة لأطفـــال عرايا. لفت نظره صورة تكاد تكون بـــالحجم الطبيعـــي للنصـــف العلوي لضابط شرطة يتفجر حيوية وجهامة، خاف منه وتحول إلـــى النوافذ.. ستائر سميكة مكشكشة بكثافة، بعضها ســـماوي وبعضـــها أزرق.. أعمدة صغيرة مذهبة على جانبي الستائر.. لم تحضر حتـــى الآن السيدة إلهام، وكلما مر الوقت شعر بالاضطراب والقلق وأيقـــن بإمكانية الإخفاق.طاف برأسه في لحظة شك عميق وسخيف أن ثمـــة شركاً يعد له ويتناسب تماماً مع عكس ما يطمح إليه، فهؤلاء النـــاس الأثرياء يعرفون كل شيء، وكثيراً ما يتأهبون لصد محاولات أمثاله

للاقتراب ونيل الرضا.. لام نفسه على الظن وقال إن تأخرها ربما بسبب تعودها على العري وتحتاج للستر أمام الغريب.

كان قد توقع خروجها بعد دخول لولي، فلابد قد أنبأها هو الآخر بأن كائناً غريباً بالباب.. كانت الخادمة بعيون الصقر ترقبه.. وكان يحس بنظراتها تثقب ملابسه وتفتش في رأسه وعينيه وتجري وراء نظراته.. فكر أن يعاكسها بأن يحول نظراته بسرعة من اليمين إلى الشمال ومن أعلى إلى أسفل ويتابع نظراتها بشكل خفي، لكنه قرر ألا يفعل حتى لا تقف ضده بأي صورة أو توحي للسيدة بفهم ما.

أخيراً طلعت.. سيدة ممتلئة وعالية.. أجمل من الصورة.. عريانة الصدر والكتفين، ترتدي قميصاً بلون الكناريا.. شعرها ملفوف في بكر اصفر.. دوائر دوائر.. قالت له: نعم.

قال: حضرتك الست إلهام رستم؟

قالت: نعم.. تفضل.

تقدم إلى أقرب كرسي، أسرعت تقول:

ـ لا.. تفضل بالكلام.. نعم.

حدق في شفتيها المكتنزتين المرسومتين.. فراولة أو كرز كما يقولون، ليس عليهما أي طلاء.. خطفته رغماً عنه استدارة الكتفين عندما يهما بالهبوط إلى الذراعين.. لكن الصدر أهم.. مساحة كبيرة من اللحم الأبيض المتوهج.. الصحة والعز تتجلى في كل منطقة.. عاد إلى الوجه المستدير كطبق البنور يزينه أنف صغير وعينان واسعتان يشغلان نصف الوجه برموش سوداء طويلة.

بدأ يبحث في جيوبه عن الرخصة بيديه فقط، فقد كانت عيناه قد سقطت إلى الساقين، لأن القميص قصير.. ضربت يداه باضطراب في جيوب حقيقية وجيوب وهمية لأن القميص كان قصيراً جداً، والساقان الدسمان الملفوفان الصاعدان تدريجياً باللحم الأحمر الممتلئ دون ترهل.. وفوق الركبتين تتغير الصورة، فلحم الفخذين مثير.. الكلام لا يخرج، ويداه تضربان في الجيوب حتى خرجت الرخصة أخيراً من جيب البنطلون:

ـــ اخلص.

قدماها مختفيتان في دغل من الفرو الأبيض يشبه تماماً لولي وله أيضاً عينان غطى إحداهما الشعر المتهدل.

قال:

ـــ رخصة سعادتك.

ـــ نعم.

ـــ الرخصة.

ـــ يا بني انطق.. لا وقت لدي.

رن جرس.. تجمد ينتظر الحركة التالية.. الجرس يرن من جديد رنيناً رقيقاً موسيقياً راقصاً لا يحتاج إلى راقصة تتجسد أمام أصحابه ليشيع جو الكباريه.. لقد حدث هذا بالرنين وحده.. كان عليه أن يقبض على أعصابه ولا يهتز، وكانت السيدة كذلك.. حاول أن يتصورها في غير وجوده فأقسم بكل الكتب أنها سترقص وأنها ستتفوق على أعتى الراقصات.

رفعت يدها إلى أذنها.. لم يكن قد لاحظ التليفون الصغير الذي بيدها.. تتحدث في التليفون الذي بحجم ذقنها:

ـــ صحيح.. عرضتها للبيع؟

ـــ ..

ـــ نصف مليون لا ينقص مليماً.

ـــ ..

ـــ في الجراج. تفضل شوفها.

ـــ ..

ـــ العنوان عندك في الإعلان.

رزق في حالة رضا كامل.. التليفون الصغير ذو الزمن الصغير أتاح له فرصة أطول بعدة ثواني أن يشاهد النسوان ويتأمل البدن المشع، خاصة الكتفين والصدر. وأحس أن مصر فعلاً أم الدنيا.

عاد لولي للنباح الصغير المبرسع كأنه يقول لها: خلصينا من هذا الغريب..ظل رزق مرتحلاً مع الجمال الذي يتمثل له في امرأة

ناضجة، بل في قمة النضج..تبدو في الثلاثين، لكن أمثالها من الأغنياء لابد في الأربعين.. الخير الكثير يطيل فترة الشباب والعافية، لكي يشبع أصحابها من الهناء ويغرقوا في النعيم قبل سن الشيخوخة الذي يأتي في العادة متأخراً..

انتهت فجأة من التليفون وقد توترت من لجاج السائل على الطرف الآخر:

ـ سأقضي النهار معك.

ـ أبداً يا هانم.. رخصة سعادتك.

ـ مالها.. إنت من المرور؟

ـ وجدتها.

ـ أي رخصة يا مجنون؟

ـ رخصتك يا هانم، حتى بالأمارة اسم حضرتك.

أشارت إليه وقالت بعجلة قبل أن ينطق اسمها إذ أن لسانه مؤكد غير نظيف:

ـ سش.. أرني.

تنبه إلى أنها لم تكن في يده، فقد نسي أنه أعادها إلى جيبه. أخرجها ومد يده بها.. كان يخشى إن بقيت في الهواء مكشوفة أن تفقد سريتها ويفقد بالتالي أهمية جهده.

ـ آه.. فعلاً بحثت عنها..لكنها قديمة.. عملت غيرها.. شكراً.. تفضل.

حاول أن يجلس على أقرب كرسي، اندفعت بسرعة:

ـ تفضل بره.

ـ أي خدمة يا هانم.ـ ..

ابتلع ريقه. بدا حائراً.. أهكذا تنتهي المقابلة دون حتى كوب عصير.. أي عصير.. مانجو.. خوخ.. مشمش أو حتى ليمون مثلج.. دون خمسة أو عشرة جنيهات.. المفروض عشرون جنيهاً، ولا جنيه أجرة المواصلات. حدجت فيه بازدراء نظرات الضابط المعتز بنسوره ونجومه.

تحرك كالمنوم وخرج ببطء، كاد الباب الثقيل السميك المدفوع بقوة أن يخبط ظهره، أحست الشقة كلها بطول المدة التي مكثها غريب ملوث كان الكل بسبب وجوده يقفون على أعصابهم وينتظرون لحظة انصرافه خاصة لولي والخادمة وباب الشقة ذو المرايا الصغيرة التي كشفت تمزقه إلى شظايا لا تعني شيئاً لو اجتمعت في كومة كبيرة.

فكر أن يجلس على البسطة لحظات، لقد كان يعول كثيراً على هذه الزيارة في أن توفر له وللأولاد غداء جيداً.. تذكر بغتة كلبهم الأبيض الصغير.. لعله يأكل أشياء طيبة وصغيرة يحددها بنفسه.. نقله الكلب إلى الفرو الأبيض الذي تنام فيه أصابع قدمي المرأة الجميلة التي يبدو أنها زوجة محافظ أو وزير وربما رجل أعمال من الذين يملكون خمس سيارات على الأقل وعمارتين ومصنعين ولهم نقود كثيرة يفشلون في حصرها، ويحتفظون بها في البنوك دون أن يتصور ربما أن البنوك هي التي تحفظ أموالهم عندهم ولذلك فهم أثرياء، والبنوك أحياناً تكون فارغة.

صعد إلى السيقان درجة درجة، وعلى أقل من مهله، الفلوس الآن لا تعنيه وإنما هذه النعومة والحلاوة والاحمرار والزبد ورائحة الشهوة ووهج الجمال العاتي.. زوجته طريه ولطيفة.. لكنها تفوح بروائح غريبة حتى لو نثرت العطر قبل الاقتراب منه.. صعد مع السيدة أو عليها حتى وصل إلى البكر الأصفر الذي حوله يلتف الشعر البني بينما تمرق فيه خصلات شقراء.. حاول أن يتخلص من المشهد المثير، لكن المشهد لم يرحمه، فاستسلم.. روض نفسه تدريجياً على نسيان المكافأة، والاكتفاء النظري بلذة التذكر.. تذكر كل شيء رآه.. قال في شبه يقين:

ـــ المفروض ألا يقبل الناس جميعاً العيش أقل مما تعيش إلهام رستم..وكل الرجال لا يقبلون الزواج بأقل من جمال وجسم إلهام، ولا يربى إلا كلب إلهام.. على الدولة أن تعمم نموذج إلهام بكل ما هي عليه وما لديها لتحقق أدنى مستوى للرخاء في البلاد.. هل يا

ترى نحتاج إلى ألف عــــام حتـــى يحـــدث هـــذا؟.. يحـــدث أو لا يحدث..يومها لن أكون موجوداً.

تنهد رزق بعد أن لاحظ أنه بدأ يخرف ويمكن يخطئ في حـــق المسئولين.. فبدأ ينزل درجات السلم محاولاً ألا يقع، وكـــان مـــن المتوقع أن تفلت قدمه كما أفلتت رأسه، ومضى يفكـــر فـــي إلـــهام وعالمها الجميل الذي يدفع الإنسان لحب الحيـــاة والانتمـــاء للدنيـــا وحب الوطن والدفاع عنه.

طلع إلى الشارع خارجاً من البوابة الحديدية الضخمة.. شـــوعت صورتها الفاخرة وملحقاتها تتراجع رويداً رويداً ليفكر في زوجتـــه وصراخها بالليل بسبب آلام حادة في كليتيها، وعدم قدرتـــها علـــى العمل، كما كانت من قبل، مع أنها لازالـــت صغـــيرة، لـــم تتعـــد الأربعين، أنجبت خلالها تسعة، مات منهم اثنان وبقي ســـتة ذكـــور وبنت، بالإضافة إلى أمه التي فضلت العيش معه وتجاوزت الثمانين لأنها لا ترتاح في زوجة منصور.

لقد غرق في الذكريات.. أسرع يلقي علب الســـجائر ومنـــاديل الورق والخرق القديمة وعلب الكبريت.. والقطن الملوث والأقـــلام المنتهية، علب الأدوية والأكياس البلاستيك حتى وجد سوتياناً ســـليماً استبقاه لأم بشرى، وفردة شبشب لها وجه جميل، بحث عن أختـــها حتى وجدها مقطوعة، يمكن إصلاحها بتسخين سيخ ولحمها. وجـــد حذاء يصلح لأصغر الأبناء وكراســـتين بـــهما بعـــض الصفحـــات المملوءة بالكتابة. مزق المكتوب ورماه ووضع الباقي مع البضاعـــة المحمولة. وجد بعض الكتب المدرسية. وضعها على جنـــب لعلـــها تنفع أولاده.. وقبعة سليمة ركنها.

وجد كيساً فتحه، كان مملوءاً بلحم الكباب المأكول.. مـــد يـــده وأخرج بعض العظام.. قلبها تحت عينيه، لاحظ أن العظام لا تـــزال تحتفظ ببعض اللحم.. فرح به.. أغلق الكيس ووضعه جانباً.. كـــان الكيس في قاع العربة، حمد الله أن القطط والكلاب لم تسبقه إليـــه..

سيفرح الأولاد إذ يغيرون قليلاً طعم البصارة والخبيزة والجبن والعدس والباذنجان المقلي.

وجد كيساً به أرز بالبندق والجوز واللوز والصنيبر.. وقع على مثله من قبل.. ضمه إلى كيس اللحم.. عثر على كيس به قشر لب وسوداني، لم يجد فيه ما يصلح فرماه في العربة. وجد ميدالية محفور عليها صورة لاعبين يتصارعان، وعلبة خشبية جميلة مكسور بابها، ومخلوعة إحدى مفصلاتها وأكرة نحاس ومقبض باب.. رمى النظارة المخلوع ذراعها.. وقعت عينه على كراس صغير وأنيق مجلد بغلاف أبيض سميك، مكتوب عليه باللون الذهبي بخط كبير "دفتر مذكرات".. وتحتها بخط يد صغير مكتوب بقلم جاف أحمر:

"دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني

وكل ثانية أعيشها بعيد عنك عمر ضايع مش راجع تاني"

كان بداخل الدفتر بعض الأوراق المنزوعة من الدبابيس أو ربما مضافة إليه لأنها ليست بالضبط شكل الورق الداخلي، فتح بعضها وبص فيه.. كان بداخله أوراق رقيقة وناعمة، لها رائحة جميلة وبها ورد ملون في الأركان وقلوب صغيرة في أسفل الصفحة.

وقعت عيناه على عبارات في ورقة نصفها مقطوع.. جذبته من بدايتها: "شفايفك مش ملكك، دي ملكي أنا.. مش من حقك تبوسي بيها أخوكي أو أبوك أو حتى أمك.. شفايفك أنا اللي علمتهم يبوسوا إزاي، والحلاوة اللي فيهم عرفوها بعد ما عرفوا شفايفي.. أول مرة وآخر مرة أعرف إنك بُسْت حد غيري.. وعلشان تبوسي ابن عمك حتى لو كان حسب كلامك عمره عشر سنين، ده معناه تعوضيني عن أعصابي اللي تلفت بميت بوسة في أقرب وقت، لازم تتصلي بي يوم.."

المفروض أن يكتمل الكلام في ورقة ثانية، لذلك قرر أن يضع الدفتر في جيبه.. مؤكد سيفيد منه، مرة عندما يستمتع بكلام الشبان

الذين لا يحسون بالدنيا مطلقاً وما يجري فيها، وهذه الحالة بـالذات تسعده.. كم تمنى أن يظل طفلاً أو شاباً غير مسئول، على أن يكون جيبه معمراً بالنقود وساعتها لا يهم أي شيء في الدنيـا.. يركـز الإنسان في البحث عن الحب والمتعة والجري واللعب والضحـك، وسوف يفيد من هذه الخطابات لعلها تصلح للحصول على بعـض المال. تذكر إلهام رستم فتراجع مؤقتاً عن فكـرة الاسـتفادة مـن أصحاب الخطابات، هذا إذا عرفهم.

كان قد عثر على جاكت منذ عدة أعـوام أثنـاء عمليـة فـرز مشابهة، وآثر الاحتفاظ به ليشاركه القيام بهذه المهمـة النبيلـة، إذ يمتلئ بالجيوب الخارجية والداخلية، ويبدو أنه جاكت ضابط جيـش، **جيوبه منفصلة عن الجاكت نفسه وهي تكاد تكـون معلقـة فيـه**، وحجمها كبير، يمكن أن يضع في أي واحد باجور سبرتو مثـلاً أو موتور خلاط، وقد يتسع لكيس أرز أو ميكرونة سـباجتي كـالتي وجدها الليلة والأولاد يحبونها جداً، وكم من مرة طلبوها من أمهم.

عثر بكيس استبشر منه خيراً وعاد مسرعاً إليه مخلفاً ذكرياتـه.. لما فتحه وجد به كم كبير من أحشاء الدواجن التي لا نفع لها. ألقـاه بسرعة في العربة فقد كان فيما يبدو متخلفاً منذ أيـام وذا رائحـة بشعة. لابد أن صاحبته نسيته في ركن من مطبخها.

لمحت عينه في آخر حدود الفرشة العريضة كيسـاً بـه أشـياء ملونة فأدرك أنه يمكن أن يكون طعاماً شهياً، مد يده على طولها فلم تبلغه.. مال بجذعه حتى كاد ينام علـى القمامـة.. قبـض عليـه بأصابعه. فتحه فوجد به كمية كبيرة من التفاح والعنب، بعضها فسد وبعضها لا يزال سليماً، وبعضها نصف مأكول.. شكر الله على مـا وجد، وآمن فعلاً بالقول الذي يردده كثـيراً شـيوخ المسـاجد، أن رزقك المكتوب لك سيأتيك حتماً فلا تتعجل ولا تغضب.

وجد لعب أطفال على شكل عربة ومهرج وقرد يصفق وكلـها عاطلة.. ركنها لأولاده على جنب.

أعاد من جديد تخفيض القمامة الهائشة.. صور ممزقـــة وورق وعلب كثيرة فارغة كان بها يوماً بلوبيف وسلمون ولانشون وعلـب ورقية لعصائر وألبان وزبادي.. لم يكن يلقيها بســرعة دون تــأمل وفحص، فلا بأس أن يلتقط بلسانه لحسة زبادي وأن يمــد إصبعـه ليسحب قطعة اللانشون التي في القاع، وإذا لم يطلها أخرج قلماً من الأقلام التي عثر عليها، فحرك به البقايا في اتجاه فمــه المفتــوح، ورفع علبة اللبن إلى أعلى فمه فليسقط فيه بعض القطــرات. عــثر على أرغفة كثيرة بعضها يصلح وبعضها تعلوه طبقـــات العفونـــة، بعضها جاف وبعضها طري، بعضها لا يزال في أكياس لــم تمتــد إليه يد. جمع كل ذلك في كيس. أم بشرى طلبت إليه أن يهتم بالخبز ولا يترك لقمة لكي تطعم الدجاجات التي تربيها في مســقط النــور لتبيض، خاصة أن البشائر بدأت مؤخراً تظهر، فقد وجدت بيضتيــن صغيرتين بالأمس عليهما آثار دماء.

وجد سيجارتين تم تدخين نصفيهما، أشعل واحدة وعاد يخفـــف الكوم، حتى وصل إلى النهايات المتناثرة على الأرض، وهنا تعــود أن يحرك الأشياء الصغيرة بإصبعه، ويفتح إلى أقصاهما عينيه، فقد عثر منذ شهور على خاتم صغير وفردة حلق مــن الذهــب ودبلــة فضة، وخاتم ربما من الحديد به فص أزرق كبـــير، لكــن حلقتــه واسعة جداً.. حاول أن يتصور سمك إصبع صاحبه، فهو لابد فـــي حجم إصبع قدمه الكبير.. على الأقل.

لم يجد بين القمامة الدقيقة شــيئاً ذا بــال، معظمــها مســامير وصواميل وإبر وكبريت وأمواس حلاقة وبلي.. جمع البلي ليلعـــب به الأولاد.. برايات وأساتيك وأشياء كثيرة.. قرر أن يكتفـــي بمــا حصل عليه من هذه العربة، ثم أسرع يقلب العربة الثانية.. فحصــها على عجل، حصل على بعض الأشياء المهمة وأشياء عادية ليـــس فيها ما يلفت. أعاد كل ما تبقى إلى العربة، وأعادهمــا معــاً إلــى موقعهما المعتاد.

أسرع يجمع حاجياته التي استبقاها على جنب، حملها إلـــى داره في عربة صغيرة يمكن طيها كان قد وجدها مكسورة الـــذراع فـــي إحدى عربات القمامة وهي تخص السيدات حين يذهبن إلى الأسواق ويحملنها بما اشترينه.. أصلح الذراع وأصبحت رفيقته في المهمـــة الليلية وتستطيع أن تحمل له ما يمـــــلأ بـــانيو حمـــام أو جردليـــن كبيرين.. هيا.. هيا.. الفجر أذن منذ ربع ساعة.. الصلاة خير مـــن النوم ومن..أي شيء آخر.

(١٤)

لماذا..

أحفظ هذه العبارات بالذات عن ظهر قلب؟

"على مثقفي الأمة أن يتفحصوا بموضوعية ودقة منظور جهلـــها المفجع ولابد ستتولاهم رعدة عندما يدركون طول المســـافة التـــي تفصل بينهم وبين مجد أسلافهم".

"لابد أن تؤدي الفوضى المادية، في غياب نسق سياسي محكـــم **إلى فوضى اجتماعية وفوضى إنسانية، مع صعود صارخ لنمـــاذج** طفيلية رديئة تعيد إنتاج الأنساق الجاهلة والصفيقة التي لا تملـك إلا الاتجاه نحو مزيد من الفوضى الشاملة".

كل أسئلتي تبدأ بأداة استفهام واحدة.. لماذا؟ لماذا جفت الحيـلة؟.. لماذا لم تعد غير خريف متواصل؟.. في الكلام والمنام.. في العمـل والفرح.. في الصمت والضحك.. في الشباب والشـــيخوخة، حتـــى وجوه الأطفال تلاشت منها تلك اللمعة البراقة.

لماذا جفت الحياة؟.. مع أن الأصل فيـــها العذوبـــة والرقـــة.. الحيوية والأمل.. لماذا أصبح غير سار بـــالمرة، مـــا كـــان ســـبباً للسرور؟.. المولود الجديد.. ركوب زورق في النيل.. طعام لذيـــذ.. عناق أحباب.. طفولة بريئة.. شقاوة ذكية.. زواج.. نجاح.. لقـــاء بعد غياب، لابد هناك تغير مفاجئ في التركيبـــة الإنســـانية.. فـــي كيمياء الروح. هناك ولابد مادة خفية تسللت إلى الخلطة أفسدت كـل التفاعلات التي كانت تفضي إلى البهجة وانفجار القلوب بالانشراح.

سوف أبذل جهدي وابتهال لمقاومة الجفاف، ونمســـك بخيـــوط الحياة، لن نبتئس أو نبكي أو نيأس. الرضا بالقليل فلسفة قادرة علـــى حماية أتباعها من غول المادة.. التوجه نحو المعنويات.. الحـــب.. الصراحة.. التعاون.. السماحة.. التحمل.. ممارســـة الـــهوايات..

الرحلات والقراءة.. الأمل في مستقبل أفضل يرتبط برحمة الخالق ومحبة المخلوقين.. يرى رءوف وغيره أني رومانسي.

مرَّت عليَّ نينت في مكتبي، وسألتني عن الأخبار، قلت لها بإيجاز:

ــ النشر غداً.. سأشتري الجريدة الليلة.

ــ متأكد؟

ــ اتصل بي صديقي الصحفي وأبلغني أن الموضوع طبع بالفعل.

ــ كبير أم في ركن صغير.

ــ كبير جداً، مفرود على نصف صفحة، بالصور والمستندات.

لوحت لي بيدها، وهي تقول:

ــ على تليفون بالليل.

ماذا يكون حال مصر لو لم تكن هناك صحافة نشطة وجريئة وحرة؟.. شباب الصحفيين بالذات يقومون بحملات شرسة ومفاجئة ضد مختلف أوكار الإجرام، ومهما كانت قلاع البيروقراطية والفساد حصينة، فمعاول الصحافة قادرة على هدمها مهما كانت ضرباتها ضعيفة.

كريم صبحي صديقي منذ أيام الطفولة.. كنا معاً في الفصل وفي الشارع وفي فرقة كرة القدم وفي معاكسة البنات وفي المكتب، وفي تبادل النقود القليلة، وفي الإذاعة التي كان يتولاها، وينقلب بنفسه ويعد معظم مادتها.. وكنا معاً في صيد السمك وفي الدروس الخصوصية والرحلات.. نادر جداً أن تكون لي صورة مع أصدقاء وهو غائب عنها.

لا يكاد يتغير الإنسان مهما مر بتجارب.. كريم من صغره محب للكتب وكان يحرر لنا في الابتدائية، مجلة الحائط وأنا معه مشجعاً فقط ومعيناً، وفي الإعدادية حرر مجلة من ست صفحات باليد وساعدته بالرسم، هوايتي التي اختفت بعد دخولي كلية

التجارة.. وكان يفاجئنا بالأخبار ونحن في الإعدادية، فلم يكن يلقانا في أي مكان إلا ويقول:

ـ ألم تدروا بما جرى؟

ـ ماذا جرى؟

ـ الأستاذ نصيف.

ـ مدرس الإنجليزي.. ما به؟

ـ أخيراً سيتزوج.

ـ مستحيل.. تجاوز الخمسين.

ـ وصلني الخبر بنار الفرن.

ـ إشاعة.

ـ من أمه.

نضحك جميعاً، فكيف يعرف ولد صغير مثله خبراً من سيدة تجاوزت الخامسة والسبعين ولا تغادر منزلها، فيقول بثقة:

ـ لا تسألوني كيف؟.. الصحفي لا يسأل عن مصدر معلوماته، وإلا انتهت بجفاف المنابع.

ـ ..

ـ ألم تدروا بما جرى؟

ـ ماذا جرى؟

ـ علية الأخصائية الاجتماعية.

ـ ستسافر إلى السعودية.. قديمة.

ـ لا.. وقعت بالأمس في السوق، وتبعثر كل ما كان معها.

ـ تحدث كثيراً للسيدات.. ويقوم الناس بمساعدتها ولم البطاطس والطماطم.

ـ هنا المشكلة.. فقد كانت تحمل كيساً به سمسم وكيساً به فول مدشوش، وكيساً به حلبة وقرطاساً به فلفل أسمر وآخر به كزبرة.

ـ يا نهار أبيض.. هذا يعني أنها بحاجة إلى عشرة يعملون لمدة أسبوع في الجمع والالتقاط.

تتوالى التعليقات الشقية ويتحول الخبر إلى حفلة للضحك ويتذكـو زميلنا سامي أن أبلة علية سمينة، وأنها يمكن أن تكون قد جرحـت أو حدث لها ما يسيء. نبدأ في لم قماش الضحـك المفـرود علـى مساحة أجسادنا وبراءتنا.

ينبهنا كريم إلى أنه لم يكمل خبره. بالفعل لم تستطع أبلة عليـة أن تنهض من الأرض، وأن سيدة تعرفت عليها واستأجرت عربـة حنطور وأسرع كثرة من الرجال يحملونها إلى العربـة، ورافقتـها السيدة إلى منزلها ولم تنقطع عن التأوه والبكاء.

نكتشف أن أبلة علية لم تحضر إلى المدرسة اليوم. يفكر بعضنـا في زيارتها فيعترض كريم خشية أن يسبب ذلك حرجاً لها، يقصـد حرجاً له، ومع ذلك أتزعم مع مؤمن فكرة زيارتها وننجح. سـعدنا لأنها كانت تضحك باستمرار.

كريم هو الذي حمل إلينا وإلى أهل بهجت الزيات خبر انتحـاره بعد أن رسب في الإعدادية ولم يستطع مواجهة أهلـه، كـان قـد وعدهم بأن يكون الأول.. أبوه عصبـي جـداً وغـاضب دائمـاً.. يعصف بمن يخطئ من أبناء أسرته خطأً بسيطاً كأنه شخص مثالي، مع أنه أكثر من يخطئ.

ذهب بهجت إلى كريم ودعاه لمشوار حتى النهر. هناك طلـب منه أن يرجع فيبلغ أهله أنه انتحر من فرط إحساسـه بفشـله فـي تحقيق أملهم فيه. بدأ في خلع ملابسه، وطلب من كريم أن يسـرع، سأله كريم: هل أنت جاد في الانتحار؟ قال بهجت: لا طبعاً، لكنـي أخشى غضب أبي.

أسرع كريم بإبلاغ الأسرة، ولم يكن أبوه بالبيت. فزعـت أمـه وأخواته البنات وأخوه الكبير، انطلقوا متعثرين إلى الشاطئ حيـث وجدوا ملابس المنتحر، سقطت الأم مغشياً عليها وولولت البنـات.. وقف راشد شارداً يتأمل الملابس ومياه النهر والمنطقة المحيطـة.. بدأ يحاصر كريم المضطرب بالأسئلة:

ــ كيف عرفت أنه انتحر.. هل رأيته؟

ـــ نعم.
ـــ لماذا لم تمنعه؟
ـــ حاولت.
ـــ أين بقية ملابســـه؟.. الموجـــود.. قميـــص وفانلـــة داخليـــة وبنطلون.. أين الحذاء والشراب واللباس؟
ـــ انتحر بها.
ـــ خجل أن ينزل إلى النهر عارياً!
صرخت فيه أخته، وكانت مع الباقيات يحاولن إفاقة الأم إلـــى أن ضاق بهجت المختبئ وراء الشجرة الكبيرة بالمشـــــهد.. حـــاول أن ينادي لكريم.. فلم يفلح في لفت انتباهه:
ـــ بس.. بس..
سمع راشد البسبسة وتقدم إلى أخيه.. أمسكه من رقبتـــه وهـــزه عدة هزات، وصفعه كفين ثقيلين.. لم ينطق بهجت ولم يبـــكِ لكـــن لونه تحول إلى الأصفر وغاضت تماماً من وجهه كل الدماء. أحنى رأسه حياء وإحساساً بالذنب، فاكتشف أنه لا يزال يرتـــدي اللبـــاس والشراب والحذاء.
ـــ ساقط وكذاب وغير مقدر للمسئولية.. هيا يا بنات.
عادت الأم إلى الوعي أو عاد إليها، ورأت بعينيها ولدها الـــذي تحبه حباً زائداً وعميقاً.. صرخت:
ـــ ابني.. ضنايا.. سلامتك يا حبيبي.. فداك الإعدادية والثانوية.
ألقى بنفسه بين أحضانها ولأول مرة منذ سماعه بنبـــأ رســـوبه ينهار باكياً. احتضنته أخواته.. وتركهم راشد غاضباً إلـــى عملـــه الذي تأخر كثيراً عليه.
حكايات كثيرة وذكريات تدغدغ القلب، وتحمـــل الـــروح علـــى بساط سحري من البهاء والبهجة وحب الحياة.
كم هي حلوة ونضرة أيام الصبا، وكم كـــانت لذيـــذة الأخطـــاء الصغيرة التي تغيظ الآباء، وتحمر لها الوجوه الثائرة، كـــم كـــانت رائعة لقاءات الأقارب والأصحاب، حتى النزاعات والخصومـــات

تطفو الآن على أسطح الذاكرة كالفقاقيع التي كنا نطلقها من غابة رفيعة مغموس طرفها بكوب به ماء ومسحوق الصابون.. فقاقيع تكبر وترقص وتطير.. تتداخل وتتعانق.. تطبع عليها الشمس قبلات ضوئية ملونة، ثم لا تلبث أن تنفجر وتختفي وتتجدد بدلاً منها بالونات الضحك الغض الغرير.

أنحني فوق المكتب، واضعاً نظراتي في تفاصيل المستندات المراد قيدها في دفتر اليومية. أتنبه على نقر أصابع الأستاذ زكي مدير الحسابات على مكتبي.. يدعوني لمصاحبته تلبية لدعوة المدير. أسأله عن السبب يمط شفتيه. أنهض وأمضي معه كالمخدر.. يطلب المدير المالي رأيي في قبول ترقية.. أسأل عنها.. فيقول:

ــ وكيل فرع الشركة في المنيا.

انزعجت من العرض.. رأيت عدم التعجل في الرفض.. اضطربت.. لعب الفأر في عبي.. طلبت مهلة.

ــ خير البر عاجله.

ــ هناك ظروف خاصة بالأسرة تحتاجني شهراً على الأقل.

ــ سنسهل لك كل شيء.. لا تحمل هماً.

ــ ..

ــ رئيس الفرع طيب لكن التسويق ضعيف.. الرجل الذي يعتمد عليه تنتهي خدمته بعد أسبوعين.. الفرع يحتاج إلى دماء جديدة.. أهم فرع في الصعيد كله.. لابد أن يأخذ الشباب فرصته في تولي القيادة.

هل يكون الخبر قد تسرب إليهم.. الليلة سينشر كل شيء ويعرف كل واحد في الشركة وضعه وخاصة سعادة الرئيس وأعوانه، وطبعاً المدير المالي المعين رقم واحد.

نظرت إلى زكي، ونظر إليه المدير.. سأله عن إمكانية الاستغناء عني، قال بهدوء محاولاً إمساك العصا من المنتصف:

ـ من جهة الاستغناء عنه، صعـــب. ومـــع ذلـــك فمصلحتـــه ومصلحة المؤسسة أولى بالاعتبار.

أظن أن أي شخص مكان زكي كان لابد أن يجيب نفس الإجابـــة الدبلوماسية.

ـ إذن على بركة الله.

ـ أرجوك يا سيادة المدير.. امنحني فرصة للتفكير.

ـ متى تعطيني كلمة؟

ـ بعد أسبوعين.

ـ تكون خربت مالطة.

ـ لابد أن..

ـ بعد يومين تنطلق يا أستاذ وترفع رأس المؤسسة.. ســـتذهب ومعك صلاحيات مدير فرع غير المزايا المادية.. بـــدلات وســـكن وسيارة ومصروفات ضيافة وأجر إضـــافي.. ســـيتضاعف دخلـــك ثلاث مرات على الأقل.

ـ أشكرك على الثقة، ولكني مازلت أطمع في فرصـــة كافيـــة لتسوية بعض الأمور.

ـ اليوم الاثنين.. السبت الســـاعة ١٠ تكـــون علـــى مكتبـــك.. سأتصل بك هناك.

في السر افتتح رئيس مجلس إدارة الشركة منذ عام شركة جديدة لإنتاج حديد التسليح ليحتكر السوق تماماً، ليرفع السعر مـــن ١٢٠٠ جنيه إلى ٣٢٠٠، وأغلق بعض خطوط الإنتاج فـــي الشـــركة الأم، فقل الإنتاج، وأصبحت شركته القديمة والجديدة هما أكبر الشـــركات المنتجة للحديد.. لم أعلم بأمر الشركة الوليدة إلا منذ أســـبوع بعـــد كتابة الموضوع وتسليمه.. الشيء الغريب أن أحداً لا يسأل ولا يهتم من المسئولين كأن الموضوع لا يخصهم ولا يزعجهم.

بالمناسبة، رئيس مجلس الإدارة شخص لطيـــف جـــداً، صوتـــه منخفض وحساس وكريم ووسيم وليس في مصر شخص مـــهم إلا وجامله وهنأه أو واساه، متزوج من بنت وزير، وأختـــه تزوجـــت

بشقيق وزير، وأخته الثانية زوجة نائب رئيس تحرير جريدة قومية، وابنة أخيه شريكة لشقيق أحد الوزراء السابقين وأخوها متزوج من ابنة رئيس مجلس إدارة بنك السلام الدولي و.. و..

طبقات كثيفة من العلاقات الرسمية والعائلية والمالية وكم هائل من المصالح المشتركة الذي يجعل من عائلة سركيس دولة داخل الدولة. وأنا كما قال كريم أضعف من نملة إزاء جباله الراسخة، وأنا لا أحاول اللعب مع الذئاب، بل الأسود والنمور والتماسيح، مباراة غير متكافئة كما يقول فكري نمنم زميلي في إدارة الحسابات.

مكتب المدير المالي أحد المكاتب التي تم توسيعها وتجديدها وتغطت كل جدرانها بالخشب وأرضيتها بالباركيه والسجاد والإضاءات الخلفية، وتليفزيون مفتوح دائماً، وثلاثة تليفونات وترابيزة اجتماعات ودائرة تليفزيونية مغلقة تصور كل ثقب في الشركة والمصنع.. على أحد الجدران خريطة لمصر وخريطة للمؤسسة وعلم مصر ونباتات ظل في أصص فخارية، والأصص داخل أواني كبيرة ذهبية اللون.. النباتات لامعة الخضرة كأنها تدرك أنها في مكتب المدير المالي، وربما من فرط العناية بها.

أمر الرئيس بنقل مكتب المدير المالي من الدور الخامس إلى الثاني ليكون إلى جانبه.. وأزيحت خمس إدارات في هذا الدور لتوسيع مكتب الرئيس الذي ابتلع غير المكتب الأصلي أربع حجرات، وأضيفت إلى مكتب المدير المالي حجرتان كبيرتان، قسمت واحدة منهما إلى قسمين، قسم به سرير ودولاب صغير وثلاجة، وقسم به حمام فاخر مجهز بالعطور والفوط والصابون والشامبوات ومرآة بلجيكية ضخمة.

ما إن دخلت مكتبي حتى قالت زميلتي إن ابتهال سألت عني، وشخص اسمه كريم صبحي، قال سيتصل مرة ثانية، قبل أن أفكر في سر اتصال كريم رن جرس التليفون.. وسمعت صوته:

ــ خبر مؤسف.

ـ قل بسرعة أوقعت قلبي.
ـ رئيس التحرير رفض نشر الموضوع.
ـ يا نهار أسود.. لم؟
ـ الوزير اتصل به وطلب رفعه لحين التحقيق داخل قطاع الأعمال.

لم أستطع أن أعلق.. الهواء اختفى من الحجرة.. لا أقدر على التنفس.. فقدت السمع لحظات.. كان ثمة من يتحدث كأنه مدفون تحت الأرض.. أغلقت السماعة.

ـ الوزير اتصل.. إذن فقد عرف سركيس.. أشم رائحة خيانة.. أحد الصحفيين أبلغه. كان يمكن أن تكون الضربة ساحقة. أفلت منها الوغد وبدأ الهجوم فوراً.. نقل المذكور في أقرب فرصة إلى أبعد مكان ممكن.

رن جرس التليفون من جديد:

ـ أنت زعلت.. لا تكن أهبل.. في مصر مائة جريدة.. أسبوع على الأكثر، ويكون منشوراً في أكبر جريدة معارضة.

تنهدت وقلت:

ـ شكراً يا كريم.
ـ العفو يا سيدي.. اجمد.. لا تكن عظمة طرية.. لم نبدأ الشغل بعد.
ـ لازم نوقفه عند حده وننقذ البلد منه ومن أمثاله.
ـ سيقف طالما نحن واقفون وصابرون.. إذا كنت تنوي أن توجه ضرباتك للفاسدين فضع عمرك وراحتك على أهبة الاستعداد للتضحية.. حضر نفسك للنقل والعزل والسجن والحصار.

يتكلم بثقة وحماس. لديه الحق.. لقد بدأت بالفعل المعركة وهلت بشائرها.. طلبوا نقلي.. لن أنفذ.. سأقاوم.

ـ ياسر.. آلو.. ياسر.
ـ ..

ـ ياسر.. سينزل الموضوع.. الأحد القادم.. في العربـــي.. وإذا لم ينشروه، سننشره في الوفد أو في صوت الأمة أو في الأســبوع.. اختر ما تشاء.

ـ كنت أتمنى في جريدة مثل الأهرام أو الأخبـــار أو النـــهار.. توزيعها كبير.. مليون نسخة على الأقل.

ـ الباب عندما يفتح شبراً، سيفتح بكامله بعد ذلك.. اطمئن.

ـ شكراً يا كريم. سلام.

ركن السيارة الليكزاس بجوار سور مدرسة مبـارك الإعداديـة للبنات وصعد إلى الدور التاسع حيث شقته المطلة على النيل بيـن كوبري الجامعة وكوبري عباس.. كانت قد سبقته الأطعمة الفـاخرة والورود وزجاجات المزاج العالي الذي لا تمتد إليه إلا يد الباشـوات والنخبة القليلة من الفنانين.

يستمتع جداً بصداقته لأشهر راقصة في مصر.. مايسة.. نـالت شهرة سريعة رغم المدة الوجيزة نسبياً في الوسط، لا تزيـد علـى عشر سنوات.. صعدت.. صعدت بسرعة ثم تربعت، تنافسها فقـط زيزي والفرق شباب مايسة الذي يمنحها نقاطاً أكثر.

فادي شوقي راسخ.. الابن البكري والمدلل لأحد كبـار رجـال الأعمال.. لا شيء يستعصي عليه أو يعز.. أي شيء فـي الدنيـا يستطيع بالتليفون ـ مهما غلا ـ أن يشتريه.. وأن يأمر فيحضـر في الحال من أي مكان بالعالم.

علاقته بمايسة حققت له توازناً نفسياً وجسدياً غير عـادي.. لا يريد شيئاً من الدنيا.. مايسة فقط ثروة هائلة.. جمال وحيوية.. جسد فاتن.. حب جارف.. تموت في أصابع قدميه.. مطيعة وتسـتجيب له.. تأخذ كل الأمور ببسـاطة.. لا تطلـق لسـانها بالسـباب أو الإهانة.. سلمها الشقة لتكون سكناً لها ومكانـاً للقـاء.. ولقاءاتـه مجنونة.. أقنعها بذلك.. يوم يجيء إليها يصبح يوماً للجنون والحـب والهبل والرقص.. لا عقل ولا أدب ولا ملابس ولا تليفونـات ولا زوار ولا مواعيد.

ترقص كما يشاء، ويرقص معها وحولها أنى يشاء.. يتعابثـان ويتراكضان يستمتعان ببعضهما وبـالخلوة والصفـاء والانطـلاق اللذيذ..يتبادلان النكات والمشروبات.. يطعم كـل منـهما الآخـر

ويتقاذفان بالفاكهة وبالوسائد وبالقبلات.. ساعات من اللهو الجميـــل والمجون.. منذ أن تصحو عصر السبت ـــ يوم عطلتـــها ـــ حتـــى صباح الأحد ملكه.. كل شيء له وكل شيء لها. لا يصدر منـــهما أي سلوك طبيعي أو كما هو سائد بين البشر.

مرت سنة وثلاثة أشهر لم يتعكر الحليب الأبيض الشـاهق.. ولا انكسفت الشمس الساطعة.. ولا اختفى من لياليها القمـــر.. أهداهـا الشقة، لكنها لازالت باسمه، ووعدها أن ينقلها إليها رسمياً بعـــد أن يتزوج. لم تجسر على طلب الزواج منه.. وترى الأمر كذلك أفضل وألذ وأكثر حرية، والعشيق أضمن من الزوج.. لا يفكر إلا فيـــها.. ليس ثمة امرأة في عالمه غيرها.. والده فقط هو الذي يصر علـــى تزويجه ببنت من بنات العائلات أو على وجه الدقـــة بنـــات كبـــار المسئولين في الدولة الذين يمتلكون القدرة الفورية علـــى إصـــدار قرارات لا ترد.

الشقة ثمنها مليونا جنيه تتجاوز مساحتها المـــائتي مـــتر بنحـــو عشرة أمتار.. قاعة الاستقبال وحدها مائة متر، بها شرفتان علـــى النيل، كل منهما عشرة أمتار (٢x٥م)، مؤسسة بما يناسب قصـــراً وليس فيلا.

الذي لا تعرفه مايسة أن البواب لديه أوامر مشددة بالإبلاغ عـــن أي غريب يدخل الشقة، معه أرقام التليفونات الخاصة بفادي، ويـــا ويله ـــ حسب كلامه ـــ لو أفلت منه شخص، وله لقاء ذلك مرتـــب شهري يسيل اللعاب.

أكل فادي مع البلطية مايسة وشرب نصف زجاجة "بلاك ليبـــل" ومزمز وقزقز، وتقافز معها فوق الفراش الطائر، وصعـــد وهبـــط واعتلى وانطلق وهاج وماج ثم خلد إلى النوم وخلدت.

استيقظا معاً في نحو التاسعة ليجلسا في البلكونة يرقبان أضـــواء القاهرة تسطع على صفحة النيل.. تتمشى الزوارق الصغيرة فـــوق المياه الراقصة تهدهد العشاق.

يتحدثان.. يتضاحكان.. يتراكضان.. ينزلان إلى البانيو حيث المياه الدافئة المعطرة بالصابون السائل وارد فرنسا وألمانيا.. يتبادلان القبلات.. ترعى الشفاه على كل مساحات الجسدين.. لا يستثني عضو أو منطقة.. يتقلبان ويتعانقان ويندمجان، ثم يحملها من الماء ليضعها عارية على السرير ويصب فوقها نصف زجاجة عطر، ثم يجاورها قليلاً ويتناجيان بنعومة ويتلامسان بحنان ومودة صافية.. ما أروع الجسد الذي تضمره روح الحب والشباب.. يمتلئ الكأس بالحليب.. يقومان إلى المائدة حيث الورود والشموع.. تغمره الأطباق الجاهزة خارجة من "الفويل".. ساخنة كأنها تخرج من الفرن.. ومن السلطات أشكال وألوان.. طعام يكفي لخمسة من الجياع.. يأكلان بنهم.. ثم ينتقلان إلى الشرفة لتميل على صدره وتشرب "البلاك ليبل" وتدخن سجائر الحشيش وتلتقط بين الحين والحين حبات الفستق وقطع الجمبري المغمور في البيرة.

جمدت قلبها وطلبت منه ما فكرت فيه طويلاً وأحست بأهميته وضرورة أن يتم.. هكذا دلها مستشارها الخاص أسامة راضي الصديق المخلص.. قالت بكل أدب وحذر:

ـــ إذا وافقت يا فوفو.. سأكون سعيدة سعادة الدنيا والآخرة.

ضحك عندما ذكرت له "الآخرة".. تساءل:

ـــ سعادة الدنيا نعرفها فما هي سعادة الآخرة.. أتودين بناء مسجد؟

ـــ لا.

ـــ أعرف أنه لا.. لأن ظروفي المالية لا تسمح ببناء مسجد.. أي شيء آخر ممكن.

ـــ حلاوتك لما تركز,, هات قبلة تحية للمخ الكبير.. أنا قصدي لما أفتح باب رزق.. يرتاح بالي في الدنيا، يدعو لي الناس فأرتاح في الآخرة.

ـــ شوقتيني.

ـــ أنا يا سيدي أريد أن أفتح مكتباً صغيراً للتجارة.. شركة "يادوب" في شقة صغيرة في مكان مناسب.. أبيع وأشتري.. أستورد وأصدر..

ـــ تستوردي.

ـــ أستورد الأساتيك ورمل القطط السيامي وصمغ وكراريس وصبغة للأحذية، فوانيس رمضان، وورق كوتشينة وسجاد صلاة.. كله من الصين.. دبابيس إبرة، أمشاط، فلايات، لعب بلاستيك.. نظارات بلاستيك.. أقلام.. حفاضات أطفال.. كله من الصين.. كله من الصين.

ـــ بسيطة.. الأسبوع القادم لا.. الأسبوع التالي يكون عندك شركة باسمك في شارع شمبليون.. شوفي تحبي تسميها إيه.

شرعا معاً يقترحان الأسماء ويضحكان.. كل منهما يضحك بما في رأسه.

قبل الفجر يحين اللقاء الثالث والأخير.. الإيقاع مختلف والأداء في روية وتمعن وعزف هادئ على موسيقى خافتة لأجساد شبعت، لكنها لمحت بقايا في قيعان الكؤوس، فآثرت أن تلعقها في تلذذ.. لا في نهم المفجوع، وجشع المحروم.. اليد تمسد البدن، تمر في رقة على الأعضاء المسترخية، لا تبتغي استنفارها ولكنها تضع توقيعها وتمهد للوداع.. عناق ممتلئ يدرك أنه الأخير، فمن حقه لعق الأطباق المنتهية، يسيطر على الجسدين والشفتين بالذات إحساس مبهم بهيمنة الأيام القادمة حيث الفراق والغياب ولا يجدي معها التليفون.

ـــ حياتي.

ـــ روحي.

ـــ خلاص.. اليوم كله انتهى.

ـــ الساعات هربت.

ـــ لو كان السبت يصبح سبتين.

ـــ مفروض يكون السبت ثلاثة أيام وأربع ليال.

ـ لا.. أربعة أيام وخمس ليال.
ـ تعالي في حضني.
ـ أنا في حضنك.
ـ حضني من جوه.. خشي في قلبي.
ـ خش أنت في كياني.
ـ كل حاجة لها نهاية.
ـ لا يقال كلامك عن حبنا.
ـ أقصد يوم السبت.
ـ حبنا دائم.
ـ أخاف تتغير بعد زواجك.
ـ زواج صوري.
ـ قصدك زواج مصالح.
ـ تمام.
ـ زواجنا بدون ورق.
ـ لكن أقوى.
ـ "يا ترى ليه"؟
ـ زواج حب.
ـ لا داع لكلمة زواج.
ـ عندك حق.. لا داع "لنتمحك" في كلمة زواج.
ـ العشق أحلى وأطول عمراً.
ـ ليس فيه سيد وعبد.
ـ ولا رجل وامرأة.
ـ شخص واحد بجسدين.
ـ روح واحدة في جسدين.
ـ تمام.
ـ الفجر سيؤذن.
ـ يؤذن.
ـ ننام.

ـــ لن أنام.. سأظل مستيقظة حتى وأنت نائم.
ـــ لابد أن نكون معاً في كل شيء.
ـــ ستغيب عني ولابد أن أحتفظ بصورتك لأطول مدة ممكنة.
على صدره حطت رأسها.. ترجمت له معاني دقات قلبه.. تحدثا لحظات.. شرعت الأصوات في التراجع، والكلمات تتقطع وتتحشرج حتى تلاشت و.. ساد الصمت ولم يبق غير عبق اللقاء الغرامي العارم.. ثمة دخان وهمي يتصاعد من حطام المعركة الجنسية التاريخية الأسبوعية الكبرى.
استيقظ فادي فجأة وإستيقظت مايسة.. قال لها:
ـــ هيا بنا نخرج معاً.
ـــ نستحم أولاً.
ـــ هيا بنا إلى الحمام.
لم تكشف له عن إرهاقها ورغبتها العميقة لتقول له إنه مجنون.. عليها أن توضح له حالته التي تصل أحياناً إلى درجة مرعبة.. يبدو كأنه يفر من شيء أو يختفي من شبح يطارده.. لم تستطع أن تكتم الكلمة رغم أنها لا تود هدم عشه وتتجنب كل أسباب هروبه أو غضبه.. لقد جربت مرة واحدة منذ شهور غضبه، ولم يكن ثمة سبب لذلك، لكنها أسرعت بتعديل كلامها بحيث يرضيه، إذ أدركت أن غضبه براكين، لو أطلقت حممها لأحرقت العالم.. لذلك لاذت بصمت مثل الشطة في حلقها.. لزمت المهادنة دائماً، فقد كانت تحس أنه سند كبير لها.. استطاعت أن تضرب به بعض خصومها.. وتوسط لها لخراب بيوت بعض من أرادوا أن يلحقوا بها الشر، ومن أردن إزاحتها بأساليب سافلة.. وهو إلى جانب ذلك مصدر مالي كبير وثابت دائم التدفق والإغداق.
قالت له في الحمام وهي تقبل حلمة ثديه البنية الصغيرة وتعبث بالثانية:
ـــ أنت يا حبيبي مجنون رسمي.
ـــ أنا؟

ـ كنت رحت في النوم.
ـ لا يجب أن ننام.. لابد أن نكون يقظين دائماً.
ـ لازم أرتاح.. عندي شغل بالليل.
ـ ألم نقل أن السبت سنجعله مؤقتاً سبتين؟
ـ مؤقتاً.
ـ طبعاً.. سيكون ثلاثة.
ـ أنت مجنون وأنا لست مثلك.. أنا غلبانة.
ـ أنت غلبانة.. طب تعالي.
هجم عليها عناقاً وتقبيلاً ثم حملها إلى الفراش.. جرت منه إلى الأرض وفوق السرير واندفعت إلى الصالة وهو وراءها.. عريهما اللامع يبرق ويشارك الشمس المشرقة صباحها الشبابي الجميل.. أخيراً لحق بها، فقالت وهي تختبئ في جسمه الضخم الدافئ:
ـ هيا نلبس.
ـ نعم.. نسيت.. هيا نلبس ونخرج.
أسرع على الطريق بالجاجوار الجديدة الذهبية الميتاليك.. فتح السقف وعلا صوت الكاسيت.. رقص أولاً وهو تارك المقود وطلب إليها أن ترقص.. رقصت.. طلب منها أن تقف فلا يصلح الرقص قعوداً.. وقفت ورقصت لحظات.. ثم تراقص على كوبري ٦ أكتوبر بالسيارة.. اتجه يميناً بقوة وتحول إلى اليسار.. وهكذا كادت تسقط فجلست.. مضى يرقص تاركاً المقود، ثم يرقص ويمسك بالمقود ويرقص السيارة حتى فوجئ بضابط يطارده بالدراجة النارية حتى أوقفه..
طلب الرخص.. رفض فادي.. طلب الرخص من جديد.. رفض فادي، وقال له أن يبتعد ويبعد دراجته وإلا حطمها.. أصر الضابط على الرخص، قال فادي أخيراً:
ـ سوف أعطيك الرخص إذا قلت لي اسمك.
ـ الرخص أولاً.
ـ اسمك أولاً.

ـ بم يفيدك معرفة اسمي؟

أطل فادي على الدراجة.. حفظ رقمها.. رجع بالسيارة مترين.. ضغط بكل قوة دواسة البنزين.. انطلقت في شبه قوس.. ضربت الضابط الأسمر الطويل فأوقعته على الأرض وضربت الدراجة فأوقعتها وانطلق بأقصى سرعة طالباً من مايسة أن تشعل سيجارة.

قالت له: اهدأ يا فوفو.. ورجعني.

قام الضابط بمساعدة عدد من أصحاب السيارات الذين شهدوا الموقف.. عاد إلى وحدته المرورية.. كتب مذكرة شاكياً وواصفاً تصرف صاحب السيارة رقم ١٠٧٧٧ ملاكي القاهرة.. قبل الظهر كان منقولاً إلى الإسماعيلية.

(١٦)

"يا رئيس الديوان.. إذا نزلت إلى بحيرة العدل فستبحر على صفحتها مع ريح طيبة، ولن يتباطأ مركبك ولن يصيب ساريه ضرر، ولن يجرفك التيار، وسيأتي إليك السمك المتوحش وتحصل على أسمن الطيور. أنت أب لليتيم، وزوج للأرملة، وأخ للمرأة المطلقة، وعون لمن فقد أمه. فأقم العدل لأنك أنت محل للثناء.

تأمل.. أنت أشبه بمدينة بلا حاكم، وجيش بلا قائد، وسفينة بلا ربان، وجماعة بلا مرشد. تأمل.. إنك كالصياد الذي يروح عن نفسه وينصرف إلى ما يهوى.

كان جسدي ممتلئا وقلبي مثقلا، وكل ذلك خرج من جسدي، فالماء المختزن يندفع من الثغرة المفتوحة في السد. وبالمثل فقد انفتح فمي لكي يتحدث. لقد أفرغت مائي وتخلصت مما كان يثقل جسدي، وغسلت ملابسي المتسخة.. لقد نشرت همومي أمامك كلها.

أيا رئيس الديوان العظيم.. أنت سيد السماء.. لديك غذاء كل البشر.. يأتي من عندك الفيضان.. أنت مثل حابي الذي يكسو الحقول خضرة ويعطي التربة الخصوبة. ولقد محي الخير، وانتهى زمن كان المرء يستطيع أن يسير فيه ليلاً ويتجول نهاراً ويسمح له أن يقف مطالباً بحقه.. إن القليل الذي يمتلكه الفقير هو نسمة الحياة بالنسبة له، فمن يسلبه هذا القليل يكون كمن يكتم أنفاسه".

كانت هذه بعض فقرات من شكاوى الفلاح الفصيح "خو إن أنوب" من وادي الملح (النطرون) وكان قد رحل ومعه حميره قاصداً المدينة ليبيع محصوله، وفي الطريق هاجمه لص واستولى على الحمير وما تحمله من خيرات، فرفع الفلاح شكوى إلى رئيس الديوان الذي أعجب بطلاقة لسانه وبلاغة بيانه فأخبر الملك خيتي الثالث، فاستمتع بها الملك، وطلب إليه أن يكتب شكوى ثانية،

فأعجبته وكان يتسلى بسماعها مراراً، ثم يطلب شكوى ثالثة ورابعة حتى التاسعة.. عندئذ نظر في أمره وأصدر قراراً بإنصافه.

رفض الدكتور المشرف على الرسالة هذا الجزء الذي تصورت أنه شكل من أشكال التأصيل التاريخي لمشكلة الفلاح منذ عهد المصريين القدماء وطالب بالتركيز فقط على فترة البحث.. لم أقتنع برأيه، لكني أذعنت ورفعت هذا الجزء، وتابعت العمل.

يقول الرحالة الفرنسي فولني:

"الفلاحون أصل سكان مصر يعيشون في بؤس وشقاء تنتشر بينهم الأوبئة والمجاعات، يعاملون معاملة سيئة، فإذا أراد شخص تحقير شخص آخر يطلق عليه لفظ "فلاح" ولا ينعم الفلاح بثمرة جهده فنراه منصرفاً إلى العمل كارهاً، يعيش في فقر مدقع. غذاؤه رديء. طعامه الأساسي الخبز والبصل، ويسعد إذا تخلل طعامه بعض اللبن الرائب، أما اللحم فلا يتذوقه إلا في الأعياد الكبرى، وملابس الفلاح بسيطة تتكون من قميص من الخام الأسود وعلى رأسه طاقية من الصوف أو الكتان، ويظهر في الحقول عاري الذراعين والساقين والصدر وأغلب الفلاحين لا يلبسون السراويل. مساكنهم من طين يضيق صدر المرء من غرفها لأنها غير صحية، تكثر بينهم أمراض الصدر، ولكنهم مع ذلك لديهم نخوة ويتسمون بالعناد ولا يحتاجون إلا إلى التوجيه حتى تصبح شجاعتهم رهيبة، وانظر إلى الفتن التي يثيرها أحياناً أبناء الشرقية فهي نار تحت الرماد لا تنتظر إلا الانفجار، وهم عموماً بسبب أحوالهم القاسية أجدر بالشفقة من الاحتقار.. إنهم دائماً مستعبدون ولا أسلحة لديهم ويجهلون فنون القتال إذا فكروا في الثورة ضد المماليك، كما أن مصر السهلية المسطحة يسهل فيها تفريق الجماعات عكس البلاد الجبلية التي تكسب شعوبها نشاطاً وحيوية.

إذا كانت مصر قد بلغت أقصى درجة من التدهور السياسي والعسكري والاجتماعي فلن ينقذها سوى التدخل الأجنبي، ويمكن

أن تكون فرنسا هذا البلد، فتدخل فرنسا سوف يؤدي إلى شفاء مصر من أمراضها الحالية".

أما الكونت دانتريج فيتحدث عن محمد أبو الذهب الذي خان علي بك الكبير وانقلب عليه وحكم مصر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر:

"إنه طاغية متوحش ويشبه نيرون في قسوته، وحبه للقتل وسفك الدماء، فقد قتل في يوم واحد ستين فلاحاً تحت أقدام الأفيال، وليس فيمن عرفتهم من ينسى أنه كان يتنزه في النيل ولما رأى مجموعة من الفتيات الجميلات هاجم إحداهن.. صرخت الفتاة واحتمت بأبويها، فأسرع عبيد "أبو الدهب" بانتزاعها من يد أهلها، ونقلوها على ظهر مركبة، حيث أمر باستدعاء أهل الفتاة فخشي والدها من عقابه وارتمى عند قدميه يطلب العفو لأنه لم يكن يعلم شخصيته وأنه دافع عن ابنته ضد العبيد الذين هاجموه، لكن "أبو الدهب" أمر بإغراق الرجل وزوجته في النيل برغم صراخ الفتاة الهستيري".

أما نوبار باشا فيقول عن الصراع والتناحر بين حكومة مصر ودائنيها على أموال الفلاحين: "عصفور يجلس فوق غصن شجرة وإذا بصقر ينقض عليه ويختطفه، وبينما يحلق الصقر والعصفور بين مخالبه يراه أحد الصقور فيطمع في الاستيلاء على نفس الفريسة ويدور القتال بين الطائرين الكاسرين، وهما الخديوي والدول الدائنة. مصر مثل عظمة كبيرة وثمينة يرغب فيها كلبان فرنسا وإنجلترا، ولا يتجاسر أحدهما على اختطافها لخوفه من الآخر، لكنهما يتربصان ويحملقان الواحد تجاه الآخر ويزمجران، وأثناء ذلك يتسرب سرب من النمل (اليهود واليونانيين وجند الخديوي ورجاله) لينهش العظمة ويسمن منها".

أما المستشرق الفرنسي "بريس دافن "فيكتب عن فلاحي مصر:

"أطلق الفلاحون على محمد علي "ظالم باشا" لفرط ما نالهم من التعذيب على أيدي مأموريه، وهو يحدث في كل يوم تقريباً، لهم وللتجار أيضاً من أجل جمع أكبر قدر من الأموال.. فلم يكن من

عمل لمحمد علي غير التفكير في بنـــاء الإمبراطوريـــة ودعمـــها بالمشروعات الصناعية والزراعية والطموحات الحربية، وكل ذلــك يلزمه العمل ليل نهار في جمع الأموال من الفلاحين والتجار، ولـــم يتعرض الفلاحون للتعذيب في أي عهد كما تعرضوا له فـــي عـــهد محمد علي، ولم يكن ذلك إلا من أجل المـــال فقــط، فمــن الكــي بالقرميد الأحمر المحمي في النار إلى تسمير آذانهم، إلـــى تمزيــق أجسامهم بضرب الكرباج.. لقد كان محمد علي يســـتوحي المثــل القائل "إنما الشعب كالسمسم، ينبغي أن تسحقه لكي تســتخرج منــه الزيت".

ويستطرد: في كل شارع أو حي من شوارع وأحياء مصر مـــن أسوان إلى الإسكندرية ستجد هذا المشهد صباح مساء:

فلاح أسمر ارتدى جلبابه الوحيد، ولف رأسه في عناية بملفعتــه ليبدو كاسياً وإن ظل حافي القدمين، إنه يتشبث بآخر ما بقي له مـــن مظاهر الاحترام، هاهو ذا بين رجال الشـــرطة الفخوريـــن بزيـــهم التركي القشيب، وهم رجال شـــديدو البـــأس، مفتولـــو العضـــلات والشوارب، لا عمل لهم طول النهار إلا الطعام والتدريب بحمـــاس حتى يستطيعوا بكفاءة وأعلى درجات الغلظة ضرب المصرييـــن.. طرحوه أرضاً ونكسوا رأسه، وعروا ساقيه ورفعوهمـــا، فوجــدوه دون لباس، مكشوف العورة، فأوثقوا الثياب إلى الفخذين.. وأوثقـــوا القدمين كي لا تفلت ضربة من الضربات المائة التي مضى يتبـــادل توقيعها بالعصا شرطيان متخصصان في هـــذا الفـــن مـــن فنـــون التعذيب.. وعبثاً يسجد أمام رئيسهم شيخ جليل ذو لحية بيضـــاء أو تاجر محترم ذو جاه.. يستوي الرئيـــس مســـترخياً علـــى أريكتـــه الوثيرة، يستروح في لذة أنفاس النرجيلة، ترطـــب قلبـــه توســـلات الشيخ المتشفع حتى ليبدو كأنه لا يســـمعها، ولا تبلغـــه صرخـــات المعذب: هذا العقاب أقل مما يستحقه فلاح أو تاجر عجز عن دفـــع الضرائب شبه اليومية التي يحتاجها الباشا".

لولا مسحة من القلق، ودرجة زائدة مـــن الانطوائيـــة والتوتـــر والخوف المبالغ فيه من المستقبل وكل ما هو مجهول لكانت نـــدى نموذج لزوجة رائعة، وهي على أية حال لا تقل كثيراً بســـبب مـــا ذكرت، لأنها طيبة القلب وجميلة مؤهلة للحـــب.. لونـــها القمحـــي وعيناها الواسعتان ورموشها الطويلة وأنفها الدقيق الصغير وذقنـــها المحفورة بصرة جذابة والامتلاء المقبول فـــي مواضـــع العطـــاء كالصدر والردفين وربلتي الساقين.. كل هذا يرضيني ويحرضنـــي عليها ويدفعني نحوها.

المعطيات وإن كانت لا تشي بأيام متألقة السعادة، لكـــن اليـــأس عدو الحياة، وزواجنا سيساعد في تشكيل عالم جميل صغير تنقصـــه الكثير من العناصر والإمكانات، لكني قادر على إســـعادها، وهـــي كذلك.

يجب أن نفتح باباً جديداً يغير حياتنا ويسمح للضياء والأمـــل أن يطلا بكثافة ويحركا الراكد.. أنا متفائل وروحي متوثبـــة، وســـوف أغمرها اليوم بحالتي.

(١٧)

أشرقت عليَّ الشمس وأنا أهبط من سيارة يقوها سمير.. السيارة تابعة للشركة التي يعمل بها. أشعة الشمس رقيقة والصبح طازج وناعم.. الأبواب كلها مقفلة والنوافذ مغمضة العيون.. لا يتحرك من المخلوقات إلا الكلاب والسهارى العائدون أمثالنا.

لم تستطع السيارة الشيروكي أن تدخل الحارة.. تركها سمير في شارع مبارك، واتجهنا إلى البيت الذي كان الطريق إليه كالعادة صعبا ومقززاً وأنا مجهدة وأكاد أتفكك إلى قطع.

لم يكن جسمي فقط هو المجهد.. أعصابي. روحي. كل ما فيَّ سواء أكان معنويا أو ماديا.. عقلي كان مثل كرة الإسكواش، لا تضربها المضارب فقط ولكن تضربها الجدران أيضاً والأرض.

علامات استفهام كبيرة بدأت في الطلوع منذ وصلنا بوابة القصر في العاشرة مساء على طريق مصر إسكندرية الصحراوي. القصر يبعد نحو ٣٥ كيلومترا عن القاهرة.

كل مشهد كان يجر سؤالاً حتى مياه الشرب والأرض والمباني والناس.. لم يكن معي إلا سمير ومعظم أسئلتي لا يعرف إجاباتها.. بالتأكيد نحن في المكان الخطأ.. لكننا كنا أنا وسمير بحاجة إلى هذا الخطأ.. لنكتشف أننا على خطأ من الأساس، وأن وجودنا نفسه خطأ، وجئنا إلى الحياة بطريق الخطأ، ومن الخطأ أن نظل على ما نحن عليه، وأي طريق آخر سيكون انتقالاً من خطأ إلى خطأ..أنا مجهدة جداً ولن ينقذني إلا نوم متصل وعميق لمدة يومين.

عمل سمير لدى رجل الأعمال صادق راسخ صاحب شركة طرق ومهابط طائرات، وتوسط لدى أخيه المهندس شوقي راسخ رجل أعمال بارز يمتلك شركة كبرى من شركات المقاولات كي أعمل لديه.

شغلي وشغل سمير خفف من حدة يأسي وإحساسي بالاختناق وأنا داخل البيت الضيق المعدم قعيدة.. كل ما فيه قديم وتعس

وحزين.. وأنا مدقوقة بالأشياء الهرمة والمعالم الشائهة.. وحكـــايتي مع رءوف هي أكثر المناطق المهتزة في البناء..الأرض غير الثابتة التي كنت أسير عليها وليس فيها ما يطمئن إلا جانبها المعنوي.. أما جانبها المادي فيتعرض للخطر والانهيار حتى بعد عملي.. مرتبـــي لا يكفي ثمناً للدواء الذي كتبه الأطباء لأمي.

الدنيا ليست هي فقط ما يعرضه لنا التليفزيـــون فـــي برامجـــه ومسلسلاته وديكوراته وسياراته وفخامة مبانيه وأناقة ممثليه..والدنيا بالقطع ليست ما نعيشه، فالموتى الذين يعيشون في القبـــور أفضـــل حالاً منا.. دنيا أخرى عند شوقي راسخ وأخوته وأعمامـــه وأبنـــاء أعمامه وأصدقائه.. تعرفت على جانب من هذه الدنيا في حفل وافق صاحبه بصعوبة بالغة على المشاركة فيه من بعيد.

لبست فستاناً وحذاء جديدين، اشتراهما لي سمير، قال إن ثمنـــهما خمسمائة جنيه، وأظن أن الثمن أكبر بكثير، ومع ذلك فقد ألح وأكـــد ألا تعرف أمي، حتى لا نعجل برحيلها، قلت لها: اقترضتهما مـــــن زميلة.. أكد لي سمير أني بحاجة إلى ثورة فـــــي الملابـــس تليـــق بالوظيفة وبالعلاقات الجديدة والعالم الذي سندخل إليه.. أكـــدت لـــه استعدادي لسداد المبلغ على ثلاثة شهور.. مط شفتيه قائلا:

ـــ عيب.. لك عليَّ حقوق يا ندى حتى وأنت في بيتـــك ومعـــك أولادك.

ـــ ربنا يحفظك يا سمير ويسعدك.

دعت له أمي وهي تقول:

ـــ أنا شفيت تماماً بعد كلامك يا ضنايا.

ـــ سيبك يا أمي من كلامك الحلو.. الأيام الحلوة قادمة.

جاء سامي وجلس معنا.. كان سمير مملوءاً بالأمل:

ـــ كنت ناوي أخفي عنكم مشروعاتي حتى تتحقق.

شجعته وأنا نفسي في الفرح والمشـــروعات والأيـــام الحلـــوة.. روحي ظمآنة.. تمنيت أن تفرح أمي، ولو بالكلام..

ـــ قل يا سمير.. حدثنا عن مشروعاتك.

تنهد سمير وأغمض عينيه لحظات، كأنه يستمتع بـــالتفكير فـــي أحلامه.. سامي تعجل الأخبار وقال:

ـــ افتح يا سيدي الصندوق.. فرجنا.

قال سمير بثقة وسعادة:

ـــ سنترك الشقة ونقب على وش الدنيا.. ســـوف نـــترك هـــذا الجحر.

صرخ سامي:

ـــ يا سلام عليك يا أبو سمرة.. كفك.. أحسن فكرة.

ـــ مبسوط يا سامي؟

قال سامي وهو يكاد يطير:ـــ أدفع نصف عمري، وأخرج مـــن الشارع والمنطقة.

سأل سمير أمي رأيها.. شردت قليلاً ثم قالت بوهن:

ـــ ربنا يسعدك ويسترها معك أنت وأخواتك.

كانت أجسامنا جميعاً تنتفض بالأحلام، حتى سالت ساخنة دمـوع أمي دون أن أراها.. أحسست بها في قلبي.. تحولت إليها.. كـــانت بالفعل تبكي.

سألها سامي: لم البكاء.. هل الفرح يبكي؟

قالت بصوت مختنق، ولا يكاد يغادر حلقها:

ـــ كان نفسي يوم ما نفرح، وربنا يفتحها علينا.. يكـــون معنـــا أخوكم خضر.

انكتمنا جميعاً لحظات ثم قلنا فيما يشبه الاتفاق:ـــ ســـيرجع يـــا أمي. سيرجع.. اطمئني.

ومع ذلك طافت بخيالي عبارة ملحة حبستها حتى لا تعكر صفـو اللحظات السعيدة:

ـــ لم نر شيئاً بعد يا أمي.. كله كلام في كلام.

تحولت إلى سمير أنظر إليه وأحمد الله.. الولـــد شـــعوره نبيـــل ومحب جداً لأسرته لولا الظروف العاجزة.. تذكرت بسرعة حالـــه لو حصل له ما حصل لزملائه الذين ينامون فـــي انتظـــار النهايـــة

بحميات إمبابة بعد إصابتهم بالإيدز.. كان ممتاز زميلهم قد جلب لهم فتاتين للسهر معهما كانتا مصابتين، لولا وصول أبي في اللحظة الأخيرة.. كانت هذه الأسرة قد دمرت تماماً.. ياه.. ابتعدي عني أيتها الهواجس.. لم أكن أتصور أننا يمكن أن نكون في حال أسوأ مما نحن فيه.

أشار سمير إلى القصر قبل أن نصله بكيلومترات.. كانت الأنوار الكثيفة تضئ القصر والبوابة والحديقة الفسيحة الفاصلة بينها وبين الطريق الصحراوي إلى مائة متر قبله ومائة متر بعده.. معالم ألف ليلة تخرج من بطون الكتب والأساطير، وتظهر أمامي في أحدث وأجلى صورها.

القصر عال وعريض.. قلعة ضخمة تعلوها عدة قباب صغيرة.. في الصدر عشرة أعمدة يعلو كل منها تمثال رائع النحت.. غزالة تقفز وأسد فاتحاً فاه.. كيوبيد.. حصان يتأهب للانطلاق.. امرأتان عاريتان.. ثعبان ضخم.. فيل يرفع خرطومه.. عازف ينفخ في نايه وعازف يلعب على تشيللو.

لمبات كبيرة في حجم القرع تتدلى من حيث لا أرى بوضوح أحالت الظلام نهاراً.

عندما اقتربنا بالسيارة الرمادية من البوابة الخارجية الحديدية الضخمة المغلقة، اتصل سمير بالمحمول على رقم ١١١. وهو الرقم السري، فتحت البوابة آلياً.. لم يكن هناك بواب ولا رجال أمن أو حرس من أي نوع. إحساس مبهم بالخوف.. قال سمير:

ــ البوابة مكهربة.. بصي فوقها.. اثنان من كاميرات التصوير وست كاميرات في الحديقة المؤدية إلى القصر.

استأنف بصوت أكثر انخفاضاً، كأنه الهمس:

ــ بصي على الجانبين في وسط الشجر، بصي بطرف عينيك ولا تلتفتي بوجهك.. ماذا ترين؟

لم ألحظ شيئاً.. دققت النظر.. وقعت عيني على رجل مدجج بالسلاح.. قال:

— هؤلاء الحراس روبوت.
— يا شيخ!
— يتم تشغيلهم عند الحاجة بالريموت، ويمكن أن يشغلهم وهو في القاهرة إذا طلب رقم معين.

زاد خفقان قلبي.. تسلل الرعب فجأة دون أسباب.. هبط فجأة على رأسي خاطر.. ماذا لو حدث شيء ما ولقيت حتفي هنا؟.. أجبت على نفسي بسرعة، لن يعير أحد الأمر التفاتاً، وستحمل الجثة لتلقى بعيداً جداً عن حالة الفرح والمبنى كله.. لم أكن بحاجة إلى مزيد من الشعور بالضآلة.

شرع الخفقان يخف بعد أن بلغنا ساحة كبيرة للانتظار تحت خمائل عنب، تتدلى عناقيده مع لمبات إضاءة ملونة في مشهد جذاب ومريح للأعصاب.. لولا الفضيحة لمددت يدي وذقت حبات العنب الملونة التي تبدو كأنها مملوءة بالماء والخمر واللبن والفراولة.

كانت قد وصلت قبلنا سيارات فارهة جداً، وبعضها طويل جداً يصل إلى عشرة أمتار.. خرج سائق إحداها فهالني سمك الباب.. لا يقل عن نصف متر.. لفت أذني صوت إغلاقه.. صاحبته موسيقى مجسمة وممتدة عدة ثوان.. الباب لابد يحوي شيئاً.. قررت أن أخلع عن نفسي سذاجتها.. توقعت أن تكون به أسلحة.. يبدو أن الأفلام الأمريكية عملت عملها في رأسي.. سألت سمير فقال:
— بابان للسلاح، وبابان بار وعطور، وبابان تليفزيون وراديو وسماعات موسيقى.

مع كل كلمة، وجهي تتغير ملامحه وتتحرك معالمه ومؤكد تتبدل ألوانه. استطرد سمير:
— بعض السيارات لها بابان كدولاب للقمصان والكرافتات والنظارات والجوارب وهي تلائم الذي يبقى طويلاً خارج البيت ويتحرك كثيراً.

عبرنا القاعة الفسيحة ذات الأرضيات الرخامية اللامعة.. على جانبيها تماثيل رائعة ولمبادورات.. نافورة في الوسط حولها تماثيل

أطفال من المرمر.. أضواء ملونة فــي الأركــان.. مرايــا علــى الجدران.. يختلط الأمر على الغريب ويؤدي إلى ارتباكه.. بــالضبط مثلما يحدث لي.

الأبواب أيضاً عليها مرايــا، أمــا الأعمــدة الرخاميــة الســتة المستديرة فتتعلق بها أقفاص العصافير.

تنفتح أمامنا بوابة كبيرة من الزجاج قبــل أن نلمســها.. ينفتــح بعدها المجال لحديقة في مساحة تقرب من مساحة ملعب كرة.. كلها تسبح في النور الذي تبثه الأشجار وكشافات حول حمامي ســباحة.. بالإضافة إلى بحيرة مسورة بالحديد، يتحرك فيها عدد من التماســيح في حذر وخبث. نحو ثلاثين ترابيزة حول كل منها عشرة كـــراسٍ فارغة مكسوة بالقطيفة الكحلي.. حول الحمامين الأرضية بلاط مــنَ الرخام الأخضر.. في أقصى الأطراف أشجار عالية كأنــها مــردة تحرس المكان.. باقي المساحة سجاد من الخضـــرة يقــف عليــها المدعوون الذين يرتدون أفخر الثياب.. روائح السيجار تبلغني بقــوة قبل أن أهبط بقدمي أرض الحديقة العشبي، واستطعت أن أميز فــي يسر روائح الخمور المهيمنة والمتبخترة فوق الرءوس.

يطالعني قصر ثان أصغر في المواجهــة تتدلــى مــن شــرفاته شجيرات الفل وست الحسن والياسمين وزهور أخرى لا أعرفــها.. قال سمير وقد لمح عيوني:

ــ سيعيش العروسان في هذا القصر.

هززت رأسي وحلمت.. هنا ستعيش ابنة وزير الماليــة الــذي سيدخل عليها اليوم فادي ابن شوقي بك راسخ وهـــو لابــد كأبيــه صاحب شركة وربما شركات.أشار سمير لي على رؤساء تحريــر الصحف ومذيعين ونجوم نصف مشهورين.

السيدات والآنسات نصف أجسادهن عارية.. مســتوى الجمــال غير ثابت.. هناك الجميلات جداً والأقل جمالاً، وهنــاك الدميمــات اللائي لم تنفعهن المساحيق وعمليات التجميل التي تضخــم الشــفاه

وحقن البوتوكس التي تحدث عنها رمزي صديق سمير وعمليـــات الإكسيمر ليزر للعيون.

الأذرع والصدور والأصابع محملة بكميات هائلة من الألمـــاس والزمرد والذهب.. ليس هناك إصبع بدون خاتم سوليتير.

قال سمير:

ــ أرى على حد علمي عشرة وزراء وعشرين عضو مجلـــس شعب وخمسة شورى وثلاثين من كبار المسئولين وفوق الخمســـين من رجال الأعمال.

الكلام لا يتوقف ولا العناق والقبل، بينمـــا الضحـــك يتعـــالى، وأغلب الوجوه متوردة من كثرة الأكل وبحور الخـــير.. الكـــروش موزعة بالعدل، حتى الأطفال غير محرومة منها.

الخدم الذين يرتدون ملابس على درجـــة عاليـــة مـــن الأناقـــة يتصدرها قميص أبيض مطرز وبوبيون أحمـــــر وبدلـــة ســـوداء، ينتقلون بين الحضور بزجاجات الخمر والبـــيرة والعصـــير علـــى صواني من الفضة، ويتنقل غيرهم بصواني الســـيجار والســـجائر المحشوة، وآخرون يحملون صواني عليها البندق والفستق واللـــوز وعين الجمل.

العروس ليست جميلة كما كنت أتصور.. الفستان هو الأجمـــل، بل إعجاز في عالم التصميم والتطريز.. العروس ممتلئة قليلاً لكـــن تقسيمة جسمها مع تصميم الفستان المكسم من الوسط بدت رائعـــة.. ذقنها رفيعة جداً وفمها واسع.. الشفاه رفيعة أكثر من اللازم.. أنفـها مدبب.. عيناها صغيرتان.. وجبهتها عريضة.. كل ذلك كـــان فـــي غير صالحها.. لكنها ابنة وزير المالية.

العريس طويل وشيك وأسمر إلا أنه خفيـــف الشـــعر، ســـيدخل بالتأكيد على صلع كامل بعد ثلاث سنوات على الأكـــثر. الأذنـــان كبيران وبارزان.. تبدو المسألة مقصودة حتى يسمع الكلام.. لكنـــه ابن واحد من أعتى الأغنياء.

جاءني سمير بالمعلومات، كنت قد اتفقت معه اتفاقاً شرساً:

ـ إذا سألتك عن أي شيء ولم تعرف الإجابة، يكون عليك بوصفك الطرف الثاني في هذا العقد ضرورة التحرك والتصرف وإحضار المعلومات من تحت الأرض.. تحصل عليها من الخدم.. من المديرين.. من العفاريت الزرق.. من أي مصدر.. لا يهم.. المهم تفيدني.. أريد أن أفهم.. بقينا خمسة وعشرين سنة خارج أي دائرة إلا دائرة البؤساء.

كنت قد ذهبت إلى الكوافير وخرجت غير ما دخلت.. لذلك لم أدهش عندما كانت النظرات تقتحمني وتحاصرني.. تلتفت لي بصورة عابرة ثم تستدرك وتعود فتحدق، حتى أن صادق بك نفسه جاء وسلم عليَّ، سائلاً سمير عني، ولم يتصور أني موظفة في مكتبه.

كان معظم الحضور في الساعة الأولى واقفين، وفي الوقت نفسه يتزحزحون دون أن يحسوا. عرفت الوزراء وحدي، فهم عجائز يلتف حولهم عدد من رجال الأعمال.. عرفني سمير على وداد زوجة رمزي زميله، يبدو جلياً أنها تسكن مثلي تحت الأرض، لكنها ذهبت مثلي للكوافير والماكيير وكل صناع الجمال. بذلوا جهداً خرافياً لكي يحققوا شيئاً ذا بال.. فستانها لافت للأنظار جداً ويدل على أنها ومن يقف بالقرب منها خريج زرائب، تسريحتها جميلة جدا بدرجة مزعجة لأنها تركب رأسا وفستاناً مختلفين.

ضحكت في نفسي فجأة..تخيلت أن على ظهرها لافتة تقول:

ـ العين صابتني ورب العرش نجاني.

لم أدر ما سبب هذا الخاطر، ربما بسبب طريقة القص واللصق التي تكونت بها.. وداد خفيفة الظل.. سرحنا معاً بخطوات وئيدة، نفذتها بحذق دون أن يكتشفها أحد. أغلب الرجال خاصة كبار السن جاءوا لتحيتي والتعرف عليَّ وفي الوقت نفسه يديرون لها ظهورهم، وكثيراً ما تخلصت منهم أو أغمز لسمير كي يسحبهم بعيداً عني، فالعجوز مهما كان لطيفاً وغنياً، فهو عجوز، والعجوز

الثري الذي يدنو مني يوقع على وثيقة اعترافه بأنه فقد كل شيء إلا ثراءه.. وهو أيضاً معرض للفقد حسب الأهل والأهواء والأجواء.
ظلت وداد طوال مرافقتها لي ــ وقد دام ذلك تقريباً زمن السهرة جميعه ــ تسخر من السيدات والآنسات، وتشبههن تشبيهات غريبة:
ــ هذه المرأة التي ترفع شعرها ويبدو قفاها، اتفق زوجها مع الكوافير على هذه التسريحة وأقنعها بذلك حتى يتمكن من التعامل مع المنطقة الخالية بما يليق وحسب الظروف.
ــ ألست معي أن البنت الطويلة الرفيعة أم فستان كناريا وله ذيل طويل، تمشي كما يمشي الكانجرو.. تابعيها لتتأكدي بنفسك.. شوفي.. شوفي.
أضطر لمتابعة أم فستان كناريا عريان ويبين العظام، فأبتسم معجبة بدقة وداد.
ــ أنا متأكدة أن السيدة العجوز الواقفة مع صادق بك راسخ ترتدي قناعاً.
ــ كل من في الحفل يرتدون أقنعة.
تضحك وداد وتقول:
ــ عندك حق.. أنا أول واحدة أرتدي القناع.. أنا أجمل مما تتصورين.
وتعود للضحك العابر، وأغرق أنا فيه.. عبقرية الصراحة تحطم السدود.. تقول وداد بسرعة:
ــ انظري لأبي العريس.. كيف يمشي.. ليس أقل من طاووس.
ــ الفلوس يا بنتي الفلوس.
الجميع حتى الوزراء يتقدمون إليه بالتحية والتهنئة.. أتزحزح نحوهم في السر.. تتناهى إليَّ بعض العبارات:
ــ يا باشا البلد مملوءة بالحاقدين.. لا يهمك.
ــ الأغرب أنهم يقولون مصر ضاعت.

ـــ أكثر من أضاعها هؤلاء الصحفيون الذين لا يملكون أقلامـــاً بل ألسنة.

ـــ يقولون.. مصر ليس فيها حرية.. انظر بعينيك ترى الحريـــة في كل مكان وبكل الألوان.

ـــ ينسون أن كلامهم دليل على وجود الحرية.

ـــ أسهل كلمة عندهم.. الانتخابات مزيفة وغير نظيفة.

بسيطة.. خلوا الشيوعيين يرجعوا يتحكموا فينا ويقفلوا البلد.

لا أدري لماذا كنت منزعجة من منظر الواقف علـــى يمينـــي.. كبير السن مصبوغ الشعر بشكل فاقع يتنافى مع حواجبه البيضـــاء، ويبدو أنه كان يربي شاربه إلى عهد قريب ثم حلقه، ولـــم يـــرد أن يصبغه، مر به رجل في مثل حجمه لم يصبغ شيئاً وسأله عن أخبار آخر المشاريع، قال له:

ـــ أنوي عمل مشروع يشرف عليه ابني الدكتـــور.. مستشـــفى للكبد والكلاوي.

ـــ ولماذا الكبد والكلاوي؟

ـــ جمهورها كبير جداً.

ـــ في أي مرحلة.

ـــ اشترينا الأرض واتفقنا على الأجهزة.. المهندســـون أعـــدوا التصميمات.

قال مصبوغ الشعر:

ـــ يا حاج إبراهيم هذه أمراض ناتجة عن أكل السموم.

ـــ تمام.. زبائنها بلا حصر.

ـــ لا علاقة لنا بعددهم، علاقتنا بالنوع.

ـــ بمعنى..

ـــ هذه أمراض الفقراء في الغالب.. الحق نفسك وفلوسك.

ـــ لكن..

ـــ من الذي أشار عليك بهذه الشورى؟

ـــ ابني.

ـ يمكن أصحابه أولاد الناس الحافية.. اعمل له مستشفى قلب أو تجميل.
ـ يا باشا قطعنا شوطاً.
ـ الخسارة القريبة يا حاج إبراهيم.. بيننا عيش وملح وقلت لك المفيد.
ـ ابني متحمس وينوي..
ـ سيبك من المستشفى والمصانع.. خليك في الاستيراد.. يكسب الطاق عشرة.
ظهر بعض الممثلين والممثلات.. أسرع الجميع إليهم ينحنون ويقبلون الأيادي والوجنات. رأيت من بينهم يسرا وعادل إمام وليلى علوي وليلى فوزي ومحمود عبد العزيز ولوسي وفي أعقابهم بعض الشخصيات العربية.. يرتدون الجلابيب البيضاء والغتر ومعهم سيدات في منتهى الأناقة.
سمير يتقدم نحوي ويهمس:
ـ فستان العروس تكلف ٣٢ ألف دولار، وصمم ونفذ في روما، الشبكة كلها ذهب إيطالي مع إسورتين مصري في حدود ربع مليون جنيه.
تقول وداد وهي تخطف إبهامها من سنتها العليا:
ـ رجل مليardير لكن جلدة. ماذا يكون منظره في وسط المليونيرات.. شبكة هزيلة جداً.. أنا لو مكان العروسة أرفضها.
كان كلام وداد سخيفاً.. طردته عن أذني كذبابة ومضيت أحدق في العالم البللوري. الرقص والضحك. العناق والقبلات. الصفعات. النكات والقفشات والابتسامات.. تخيلت لحظة أني استدرجت لهذا العالم.. امتدت أي يد وسحبتني بنعومة فإذا الأيام المقبلة تفتح لي زجاجة خمر وتدعوني للشراب والنسيان والغوص في الهناء.. قدمت لي اليد كأسها مع تمنياتها بالسعادة المأمولة.
ـ في صحتك.
دنا رمزي زوج وداد وقال:

ــ تصوروا معظم الحاضرين أقارب.
قلت باندفاع: مستحيل.
قال: نحن فقط الأغراب.. على مدى العشرين سنة الماضية تزوج رجال الأعمال وأبناؤهم من الوزراء وأعضاء مجلس الشعب.. الكبار تصاهروا مع بعض وكونوا طبقة الكريمة التي تحكم البلد.. لم يعد هناك اختلاط في الأنساب أو الطبقات وكل طموحاتهم لن تخرج عن الشعارين.. الكرسي رمز لكبار المسئولين والخزينة رمز رجال الأعمال.
سرحت قليلاً في كلام رمزي، وتذكرت لعبة الدومينو لما تقفل.. البوابة أغلقت على الشعب وحوصر مثل المماليك في مذبحة القلعة.
اقتحمتني عبارات الباشوات الجدد:
ــ الحكومة تتأثر بكلامهم.
ــ أي حكومة.. نحن الحكومة والقوانين.
ــ لا يكفون عن الإثارة والتشكيك.
ــ طريقتي ناجحة حتى الآن.
ــ وهي..
ــ من يكتب ضدي أدعوه للعشاء، يجد نفسه في اليوم التالي يكتب كتابة مختلفة.
ــ مسألة غير مضمونة.
ــ على كل حال البلد ماشيه لوز لولا المعقدين.
ــ فكرتني باللوز.. أنا استوردت صفقة لوز بثلاثة ملايين دولار تساوي عشرة، ستصفي عشرين على الأقل.
ــ من الهند؟
ــ لا.. من إندونيسيا.
ــ الوسيط شركة أعالي البحار؟
ــ تمام.

ـــ أحلف بالطلاق أنك لم تدفع فيـــها مليمـــاً واحـــداً.. عـــارف حكايتها.. كانت منسية في المخازن القديمـــــة قبـــل نقـــل المطـــار والمخازن.

ـــ يا سيدي خلِّي الطابق مستور.

تعلو الموسيقى ويهلل البعض لوصول الراقصة الجميلة مايســة.. أحبها جداً.. طرقعت لسمير بإصبعي:

ـــ أريد أن تلتقط لي الليلة فيلمين على الأقل.. فيلم عادي وفيلـــم مع النجوم.

أسرعت وداد تقول:

ـــ اقنع رمزي يا سمير بأن يلتقط لي ثلاثة أفلام.

ـــ رمزي ليس معه كاميرا.

ـــ يتفق مع مصور.

اتجه الجميع للمقاعد. كان وصول الراقصة إيذاناً بذلك.. كنـــت أحسب أني أستطيع أن أجلس حيث أشاء مع ترك مســـاحة بســـيطة لكبار الضيوف.. تبين لي أننا لن نجلس على الترابيزات الأصليـــة.. أضيفت منضدة لنا وحيدة وبعيدة في ركن مظلم قريب من البـــاب.. تضايقت لحظات ثم نسيت الموضوع مع روعة الرقص.

مايسة.. راقصة لولبية تنط وتركض وتنحني وتميل على ظهرها حتى يمشي شعرها على الأرض.. تميل إلى جهة اليمين والشـمال.. ترقص البطن والردفين وحدهما.. ربع ساعة على إيقـــاع ســـريع للغاية.. إيقاع خاص بهذه المنطقة الفذة.. جسمها أحمر وردي، يبـدأ العرق أخيراً في السيلان.. حيوية وعافية.. حصان بري أصيـــل لا أهل له ولا إسطبل أو ربوة.. يجري ويرمح كما يشاء..التقـــط لـــي سمير معها صورتين.. انهالت عليها كمية كبيرة جداً من النقـــود.. أقل ورقة بمائة جنيه ومنهم من ألقـــى عليـــها اليـــورو والـــدولار والفرنك والمارك.. اقتربت كثيراً من العريس وتبادلا الهمس.

قالت وداد: تخرج من هنا تفتح بنكاً.

عرض بعدها عدد من الشباب حركات بهلوانية ولعبوا بالسيوف، إلى أن جاء المطربون، واحد بعد الآخر.. يرتدون في الأغلب قمصاناً واسعة عليها ثعابين وأفيال ودولارات وأعلام الولايات المتحدة ووعول وفئران سوداء وحمراء وبيضاء وخنازير وسلاحف وقرود.

التقط لي سمير الصور معهم، لم أجد بأساً، فبصرف النظر عن أصوات مختنقة ومذبوحة، وأصوات ترتد إلى الداخل، وأصوات لا تخرج من الأفواه، وإنما من البطون، وأصوات مسرسعة جداً وأصوات خشنة جداً وأصوات جميلة.. لكنها ذكريات، فمشاهدة الصور يوماً ما يذكر بيوم فرحنا فيه وضحكنا وابتهجنا وعشنا كما يعيش من هم على تخوم علية القوم.. وقضينا يوماً بالقرب من الناس الفاخرة.

أعلنت المذيعة ذات الشعر الذهبي والعيون الخضراء والأرداف اللافتة التي ترتدي ثوباً وردياً قصيراً مفتوح الصدر، ومفتوح من الجانبين وبلا ظهر عن كلمة للمستشار نادر السرجاني النائب العام الأسبق، تطلع إليه الحاضرون بعد أن تقدم خطوات قليلة نحو المنتصف.

فتح المستشار فمه لحظات قبل أن ينطق بكلمة ثم حيا العروسين وأسرتيهما والحفل الكريم.. كان ما يزال فمه مفتوحاً حتى وهو يتكلم، لست أدري كيف تخرج الكلمات من فم مفتوح.. تحدث في المطلق كثيراً ثم أكد على أن الزواج إذا كان سيجلب الهم والنكد فلا داع له، وعلى المرأة أن تعرف ذلك قبل الرجل.. لابد من رفقة طيبة وتعاون واحترام متبادل وحسن ظن ورعاية كاملة حتى نهاية العمر من جانب الطرفين وإلا فلا. لكنه سرعان ما استثار بعض الحضور بقوله: وعلى كل طرف ألا يتحمل الآخر إذا كان مزعجاً أو مملاً، (وأعاد كلامه).. الزواج يمكن أن يتحول إلى مؤسسة تعذيب، وعلى من يتعذب أن يهجر بيت الزوجية مهما كانت الوعود أو الصعوبات المترتبة.. وكل السعادة للعروسين ولكم.

استحسن البعض الكلام، وفتحت الأكثرية أفواهها. تسلل المستشار نحونا دون قصد طبعاً حتى اقترب مني وحياني، وكان الجميع قد وقف قبل كلمة المستشار للرقص، بناء على طلب أحد المطربين وكذلك دعا العروسين، مضى الحضور يغنون معه ويرقصون ويصفقون.

اقترب من المستشار رجل كان قد لفت نظري بالجاكت اللامع الذي يرتديه.. برتقالي اللون لا يكاد يتسق مع ملابس السهرة المعتادة والأفراح بشكل أخص.. سمعته يقول:

ـ سعيد أن رأيتك اليوم سعادة المستشار فلم نلتق منذ سبع سنوات.

ـ لم أتشرف.

ـ ألا تتذكرني؟

ـ متأسف.

ـ أنا راغب الهن.

ـ زميلنا في سلك القضاء؟

ـ لا.. أنا رجل أعمال.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ ما تزال لا تعرفني؟

ـ يخيل لي أني رأيتك من قبل، ولكني عاجز عن التذكر.

ـ أنت حكمت عليَّ بمؤبد في قضية المخدرات التي كان فيها معي طارق رضوان عضو مجلس الشعب وأحمد بخيت وكيل وزارة المواصلات والكوافير المشهور وجدي سحاب.

ـ تذكرت.. تذكرت.

ـ تذكرتني؟

ـ لا.. القضية.. عجيبة.. ولماذا أنت الآن.. أقصد..

ـ تقصد أني لم أقض المدة.. لا يا باشا.. نحن لا ندخل السجن.. عيب كبير في حقنا.. فيه ألف طريقة.

ثم مد للمستشار كأساً قائلاً: في صحتك.

هز المستشار رأسه ونبت العرق بسرعة في جبينه ومضى وقد بدا أقصر قليلاً وأنحف.

أعلن مقدمو الحفل وهم مجموعة من المذيعين والمذيعات المشهورين عن الاستراحة وفتح البوفيه.

تقدم الجميع من البوفيه الذي كانت تتصدره عشرة خرفان مشوية ولحم النعام المشوي وتلال من الكافيار والجمبري والاستاكوزا وأصناف أخرى لم أعرف اسمها ولا أعرف من كان عليَّ سؤالهم.

أفادني بعض العالمين أن كل الطعام والشراب جاء عصراً من باريس ولندن على طائرتين ماعدا الخرفان.

قالت وداد لزوجها على مسمع منا:

ــ متأكد أنها خرفان.

ــ طبعاً يا بنتي.

ــ المهم ألا تكون كلاباً أو حميراً كالتي يذبحوها لنا في الأحياء الشعبية.

ــ يذبحوها لنا ولا يذبحوها لأنفسهم.

أعلنت المذيعة العارية بصوتها الجميل،وأجمل ما فيه الراء التي تنقلب غيناً، عن دعوة حارة للرقص.

قام الجميع، ومن حاول أن يرقص تقدم إليه آخرون وأقنعوه ولو بالوقوف والاهتزاز..رقص الكل مع المطربين والمطربات والراقصات والوزراء والمستثمرين.. كانت الصفقات تعقد أثناء الاهتزاز وعلى أنغام الموسيقى.

من كان إلى جواري قال لجاره ذي الشارب المبروم والشعر المسبسب:

ــ الريس عنده حق في أن مشكلة مصر هي السكان، الناس خاصة في الريف والأحياء الشعبية لا عمل لهم إلا الإنجاب.

ــ يتصورون أنهم مصدر رزق.

ــ البلد كلها أصبحت عيال.

ـــ نصفها حسب الإحصائيات.
ـــ لذلك أفكر في مشروع تجاري ضخم للعيال فقط..تعامل مع العيال تكسب.
ـــ أنا أفهم فيما خف وزنه وغلا ثمنه.
ـــ ما هو؟
ـــ البانجو.
ـــ المستهلكون أيضاً عيال.. برافو عليك.
التقت الأكف كما التقت العقول.
طلبت المذيعة من كل شخص أن يتقدم ويقدم تحية للعروسين، قدم المونولوجست الشهير فايز كوسة مجموعة من المونولوجات وعدداً من النكات التي هلل لها الناس، وسقط البعض من الضحك والإعجاب، ثم عرض استعداده لقول نكتة ارتجالية حسب طلب الضيف مقابل ما يجود به كرمه والحد الأدنى مائة جنيه.. أقبل عدد كبير على دفع مقابل النكات وكشفت كلها عن ذكاء وحضور بديهة، وكانت الفرحة غامرة بالنكات التي قيلت تحت عنوان "هكذا قالت البقرة الضاحكة".
كانت المفاجأة بعد نهاية الحفل قيام عدد من الشباب الأنيق بتسليم كل ضيف هدية عبارة عن صورة العروسين بملابس الزفاف في برواز زجاجي حولها آيات قرآنية وسلسلة مفاتيح ذهبية لا تقل عن ألفي جنيه.
ترقرقت الدموع في عيني وتماسكت بصعوبة شديدة وشددت قبضتي على السلسلة.. أخذت نفساً عميقاً، وعلا صدري، وطالت قليلاً رقبتي وامتلأ قلبي بالعزم على أن أعانق الحياة وإن كان إحساسي بهواني تكرس وترسخ حتى اختلطت الأشياء وغامت الرؤية فلزمت الصمت برغم الصباح الجميل.

(١٨)

مرت ثلاثة أسابيع كاملة، لم أستطع خلالها العثور عليها، حتى وجدتها أخيراً. فاتفقنا على اللقاء.. في المرات السابقة كنا في أغلب الحالات يسأل كل منا عن الآخر في نفس اللحظة التي يحاول فيها الآخر السؤال عنه.. اكتشفنا في بعض الأيام.. أننا نصحو عند دقيقة واحدة، ونتصرف تقريباً على نفس النحو.. فقد تفطر، ورغم عدم ميلي للفطور، أحس برغبة فيه.. وعندما أردت أن ألقاها لندخل السينما معاً، كانت تطلبني من تليفون البقال لندخل السينما وفيلم معين رغبت في مشاهدته.. بل فوجئت مرة عندما التقينا في المساء أنها فجأة في الواحدة ظهراً قررت الاستحمام ودهشت لأن ذلك بالضبط حدث لي، وأبلغتني أن نفسها راحت للفسيخ دون مناسبة أو أية إشارة أو تشجيع من أحد، وكان عجيباً حقاً أن أتمنى الفسيخ والبصل الأخضر في نفس التوقيت تقريباً.. فرقت نصف ساعة فقط.. أما أن أقف عارياً أمام المرآة بعد الحمام لأشاهد أعضائي وتفعل مثلي، فهذا يصعب تصديقه، ربما كانت الأسباب مختلفة.. لكن السلوك واحد والموعد تقريباً واحد والمسافة بيننا عدة كيلومترات.. ضحكنا طويلاً من هذا الجنون الموزع بيننا بالعدل.

جلسنا في مطعم على النيل قرب كوبري الجامعة.. اكتشفته مؤخراً، لفت نظري بأثاثه البسيط والجميل.. أكلاته مشبعة ولذيذة..أسعاره محتملة.. تهمني مسألة النظافة جداً جداً، التمسها هنا في كل شيء بدءاً من الأرضية والسقف وأيدي الجرسونات.. الأضواء خافتة.. صوت حركة الزوارق في المياه الوديعة تتسلل بنعومة، أغاني أم كلثوم وعبد الحليم وشادية تتردد في جنبات المطعم خلال سماعات في الأركان تأتيك في مكانك هادئة وشجية.

يأسرني صوت شادية إبان شبابها وكذلك جمالها وخفة روحـــها وتمثيلها.. كلها علىٰ بعضها قطعة جاتوه رائعة، فتاة قابلـــة للحــب ومحرضة على حب الحياة.

فتاة تبدو كأنها لا زالت في الثانوية.. رقيقة ومنمنمة.. شـــعرها بني طويل ناعم.. تتسلل إليه خصلات شقراء، ابتسمت لنا وبـــانت أسنانها اللولي خلال فم صغير.. شاركت عيناها في البسمة.. هـزت رأسها هزة خفيفة.. قالت:

ــ "فارس أحلامي" في خدمتك.

أحسست بالتفاؤل. أطلت النظر إليــها.. وددت لـو أعاكســها.. اكتشفت أن ندى تراقب عيوني، وأنها لاشك تدرك أن هذه النظـوات أكثر من اللازم بالنسبة للعاملة.. سحبت مشروع المعاكسة من أجـل ندى، لا خوفاً من مراقبتها.. لم تكــن بحاجــة إلــى المزيــد مــن التعاسة.. كانت شاردة ومهمومة كالعادة.. أنا قادر ــ كما كنت فــي كل مرة ــ أن أعيدها إلى طبيعتها المرحة البسيطة.. لابد من عمـل كل شيء حتى أستخرج من روحها طبقات اليأس والتشاؤم. طلبــت طعاماً وذهبت عنا القطقوطة الجميلة.

أكره الهم والنكد، ومؤهل دائماً للعمل ضدهما.. أعترف بأنــهما بالمرصاد للإنسان، لكنه أيضاً مطالب بمحوهما أولاً من نفسه وثانياً من الوجود.

تلفتت ندى تستكشف المكان.. تطالعها أضواء صفـــراء باهتــة تخرج برهافة من فوانيس نحاسية ذات تصميم شرقي محض، تكفي بالكاد لمساعدة العيون على الوصول أو المرور بين الترابـــيزات.. أسماك كبيرة محنطة على الجدران وفي الأركان، تقبــض بعضــها بأفواهها على لمبات بلحية الشكل صغيرة وملونة.

توقفت طويلاً عند الحائط الأيسر حيـــث كـــان تمســاح كبــير وكابوريا وسلحفاة محنطة.. الأضـــواء تتقــاطع أشــعتها وتتبــادل السقوط على مفردات المكان، بينما شباب الجرسونات.. بنين وبنات يتحركون في خفة ورشاقة. ثمة رائحة فواحة لا أعرف مصدرهـــا.

فكرت أن أسأل ثم نسيت.. أحب المقاعد المريحة التي تستبقيك ولا تدفعك للفرار منها خاصة إذا آلمت مؤخرتك.

عندما أجلس مع ندى حتى وهي محملة بالهم أشعر بالراحة وأتمنى عاجلاً أن نكون معا في بيتنا.. من المؤكد أنها نصفي الآخر الذي يتطابق مع روحي وكتب الله لي أن أكون نصفها وأن نكتشف ذلك ونبدأ في رحلة كل منا نحو الآخر وهانحن بلغنا درجة عالية من التناغم والانسجام ولم يبق إلا انتقالها إلى بيتها بين أحضاني التي لا أود أن تضم غيرها. هاأنذا أشعر بالتوثب الذكوري.. ليس هذا وقته أيها العضو المجنون.. ضممت فخذي بقوة عليه حتى يطامن من هياجه، وعدته أن أوفر له طعاماً شهياً، وعليه أن ينتظر خططي ويثق بي.

أحضرت الفتاة اللطيفة طبقين من الميكرونة الباشاميل وسلطات ومخللات تحبها ندى جداً، ولكل منا نصف دجاجة مشوية. بينما كانت تنقل الأطباق من صينية خشبية كبيرة، لم أستطع أن أمنع نفسي من مشاهدة ذراعيها البضتين الصغيرتين، كنت أود قضمهما.. ترتدي بلوزة سماوية نصف كم.. عيناها على الأطباق.. تحملها بحذر.. واضحة جداً حداثة عهدها بالعمل.. بدا عليها أنها تحس بنظراتي.. الجنس اللطيف لا يرى بعينيه.. تنبهت أن ندى تراني رغم أنها كانت تحني رأسها وتمر بأظافرها على خطوط الوردة المرسومة على المفرش التركواز.

— حضرتك تطلب شيئاً آخر؟

— زجاجتي بيرة.

أسرعت ندى:

— لا.. أنا لا.

— هات ما طلبته يا آنسة.

توترت ندى وأمسكت بيد البنت:

— فيروز.

نظرت البنت إليَّ.. قلت:

ـ زجاجتا فيروز.

استدارت وعيناي معها.. تسقط نظراتي كعادتي على ظهرها ذي الحظ المتواضع من الأنوثة.. أقصد طبعاً الأنوثة من وجهة النظر العربية.. أنا بالذات أميز السيارات والنساء من المؤخرات.. لا أعرف ماركة أي سيارة من مقدمتها.. الأسهل أن ألمح المؤخرة وبالذات الفوانيس الخلفية.. هنا الاختلاف، ونفس الشيء فيما يخص المرأة.. ربما تكون عادة سيئة في رأي البعض، لكني لا أستطيع ولا أود التخلص منها على الأقل بالنسبة للمرأة. ضحكت فجأة. سألتني عن السبب.. قلت لها: تذكرت نكتة سمعتها منذ ساعة بالتليفون.. كل عبقرية المصريين تركزت في تأليف النكت.. هل تحبين سماعها! قالت بغير اهتمام:

ـ أحب.. المهم ألا تكون قبيحة.

ـ قبيحة جداً.

ـ إذن أرجئها الآن.

ـ بل سأقولها.

ـ قلها يا رءوف.. أعرفك لا تستطيع منع كلمة على لسانك.

ـ الرئيس أراد أن يطمئن على الجيش فذهب مع أحد القادة لميدان رماية، قال القائد: عندي مجموعة من الجنود لا تخطئ الهدف أبداً.. اطلع يا حسين واضرب، طارت الحمامة وأطلق حسين فأخطأها، وضرب رمضان فأخطأها.. وضرب أحسن واحد في المجموعة فأخطأها.. قال الرئيس: هات البندقية أنا كنت دائماً أفضل من "ينشن".. طارت الحمامة وأطلق الرئيس، فلم يصبها.

قال القائد: سبحان الله.. الحمامة ميتة ومع ذلك تطير..

ضحكت ندى ربع ضحكة وتوقفت ثم ضحكت ربع ضحكة.. وكبحت نفسها.. وعبرت عن دهشتها لقدرة من يبتكر النكت.. قالت:

ـ أكيد من تأليفك.

— يا شيخة.. أنا لا أؤلف النكت، لكني أتذوقـــها جـــداً وأحـــب أسمعها وأقولها.. النكت ليست فقط للضحك ولكنها دراسة اجتماعيـة وتأملات إنسانية رفيعة المستوى.

قالت ندى كابحة رغبتي في التدفق والسباحة في نهر النكت:

— ذق الباشاميل.. لم أكن أتصور أن أحداً يمكـــن أن يطـــهوها أفضل من أمي.

— حسن.. كنت أتمنى ألا تصدمنـــــي، فلـــم أذقـــها هنـــا مـــن قبل..حظي معها كان رديئاً في أماكن أخرى. وللأسف فأختي نـــوال لا تجيدها، ومستواها عموماً في الأكل غير جيد.

— من لا تفهم في الطهو لا تفهم في أشياء كثيرة.

— وأنت؟

— مثل أمي.. تدربت كثيراً وأجيد طهي كل الأطعمة الشرقية.

— الله يطمئنك.. أنا أحب الأكل جداً وأشعر بتعاسة شديدة إذا لـــم يجذبني الطعام لآكله بشهية.. لا أعرف معه أنصاف الحلول.

بدت كأنها لا تسمعني.. ثم قالت فجأة بملامـــح محـــايدة وهـــي تمسك خصلة رفيعة من شعرها:

—ألا تبارك لي؟

— ألف مبروك.. لم؟

— وجدت عملاً.

— رائع.. أين!

— شركة راسخ للمقاولات.

— نوع العمل.

— سكرتيرة في مكتب المدير.

— عظيم.. هذه عقبة أزيلت من طريقنا.

حدقت في وجـــــهي دون تعليـــق.. عـــادت تطـــوي خصلتـــها بأصابعها.. ثم قالت:

— ألا تبارك لي؟

— قلت لك ألف مبروك.

ـ الخبر الثاني.
ـ ألف مبروك.. هيا فرحيني.
ـ أبي جاب لي عريس.
ضحكت.. ضحكت مرة ثانية وبجد.. قالت:
ـ ألا تصدق؟
ـ بل أصدق.
ـ ألف مبروك، هل هناك أخبار أخرى؟
ـ وأخي أيضاً.
ـ سيتزوج؟
ـ جاب لي "عريس".
ـ ألف مبروك، وكيف ستتصرفين مع العرسان؟
ـ أنت لا تأخذ الموضوع بجد.
ـ أنا أم أنت؟
ـ ألا تفرح لي؟
ـ كيف لا أفرح؟.. لقد تحاببنا واتفقنا طوال العام على أن أفوح إذا جاء لك عريس، فكيف لا أفرح وقد جاء اثنان غير من هم في الطريق.
تنهدت بقسوة وشردت لحظات ثم ألقت قنبلتها.
ـ يا رءوف أنت غير مستعد.
ـ قلت لك عدة مرات ومازلت أقول.. أنا مستعد أن أتقدم الآن.
ـ أنت مستعد للكلام في الموضوع، لكنك في الحقيقة غير مستعد.
الموقف بكامله أصبح سخيفاً فجأة.. حالتها.. طريقة الحوار.. الكلام "الدبش" الذي تلقيه.. نظرت إلى الطعام.. كنت جائعاً.. الآن لا أريد إلا أن أشرب الماء وأترك المكان.. تنهدت.
استأنفت لتخفف من انزعاجي:
ـ لماذا أنت مندهش؟

لم أرد.. عدت أنظر إلى الطعام ثم إلى الناس.. توقفت نظراتي على التمساح والسلحفاة والكابوريا المحنطة على الجدار.. أحسست تماثلاً بيننا، ورأيت نفسي على الجدار أحدق في الناس دون حركة.. فاتحاً فمي دون أن أثير قدراً من الرعب كالتمساح.. وإنما كنت مثيراً للشفقة وربما الاشمئزاز.. خامرتني رغبة أن أحطم المنضدة بقبضتي.. ربما تصحو ندى من غفلتها.

مر وقت طويل نسبياً، وهي تنقل شوكتها بتثاقل ولا مبالاة بين الخيار وشرائح الفلفل الأخضر الذي أعلم حبها له.

كانت قد نقلت على رقعة الشطرنج قطعة صغيرة جداً وتافهة، لكن الحركة كانت قوية ومفاجئة وكافية لإحراج الخصم المغرور، إلى درجة حيرته وارتباكه، وضياع كل خطط الدفاع من عقله وذاكرته.

حاولت أن أكسب وقتاً للتفكير، سألتها بتؤدة مثل حركة الشخصيات مع التصوير السينمائي البطيء:

ــ أنا.. أنا.. إذن.. غير.. مستعد..؟

ــ نعم.

ــ من قال هذا؟

ــ أنت.

ــ مادمنا نختلف على الدلالات، يصبح مطلوباً جداً الوقوف عند المصطلحات.

كانت فيما يبدو جائعة.. لأنها لم تتوقف عن تناول طعامها حتى المخللات وإن كان بشكل هادئ.. كأنها تجلس وحدها ولديها موعد يحين بعد ساعتين.. تقطع من فخذ الدجاجة قطعة بسهولة لافتة كأن الدجاجة تعينها على مواجهتي.. وكنت قد حاولت في البداية قطع الدجاجة فعانيت طويلاً حتى أرجأت الفكرة مؤقتاً إلى أن سقطت المقصلة فلم يحن موعدي مع الدجاجة، ويبدو أنه لن يحين.

حاولت أن تشعرني أنها تفكر معي.. قالت:

ــ نعم.. لنتوقف عند المصطلحات.

تقطع الخبز لقمة وراء لقمة ثم تغمرها في طبق الطحينة الـــذي أحبه.. بدا مظهري كأني حاقد عليها بسبب رؤيتها تأكل بشـــهية.. حتى لا تلحظني وأنا أحدق فيها بعيني وأذني، وأستمع إلى صـــوت تذوقها وتقطيعها للطعام ودفعه بلسانها الصغير الأحمـــر ومضغـــه ثم..

ــ لفظ واحد مهم هو.. مستعد.. ما المقصود بالاستعداد؟

لست أدري لماذا تذكرت زميلتي جمـــالات مدرســـة الاقتصـــاد وزوجها هاشم الذي سافر منذ شهور إلى السعودية.. ثـــم اســـتعدت وعيي عازماً على أن أكون متماسكاً ومقنعاً.. كـــان المفـــترض أن تتكلم بعد أن سألتها، لكنها أشعرتني أني المطالب أولاً بالتفسير وأن سؤالي موجه إليَّ.

ــ استعداد الرجل يا نـــدى.. أولاً فـــي شـــخصيته.. عقلـــه.. رجولته.. مشاعره.

قالت وهي تستمتع بتذوق نصف زيتونة، قطعتها بأسنانها وهـــي تفتح فمها أكثر من اللازم، ربما لأرى الفكين بكاملهما:

ــ من هذه الناحية.. عشرة على عشرة.

ابتسمت بأعماقي رغم حالة الغم الشـــاملة..رأيـــت أن أتنـــاول الميكرونة ليس فقط لأني جائع ولكن لأنقل إليها الشعور بأني لســـت منهاراً، ولكي ألحق بالميكرونة قبل أن تبرد فتصبح سخيفة كحديـــث ندى التي كانت تنطق الألفاظ بطريقة متعالية ومقززة.

لحقتني قبل أن ألمس الشوكة وقد وضعت أدواتها ورفعت إلـــيَّ عينيها في اهتمام:

ــ هناك عناصر أخرى.

ــ طبعاً.

مثل.

ــ الإمكانيات المادية.

قالت بفرح كأنها توصلت أخيراً إلى حل المعضلة:

ــ عظيم.

ـــ عندي شقة.
ـــ رائع وماذا أيضاً؟
ـــ وممكن أقدم شبكة وتتم الخطبة في بيتكم أو في نادي المعلمين الذي يقيم حفلة لأعضائه ويقدم تخفيضاً مناسباً.
أحسست أني فعلت المطلوب وزيادة، وألقيت بالكرة في ملعبها.. وقبل أن تنطق قلت:
ـــ ناهيك عن الحب وهو الذي يرجح الكفة حتى لو الإمكانيات متواضعة.
ـــ تتحدث عن الشبكة. ما مقدارها.. أقل شبكة اليوم تتجاوز أربعة آلاف جنيه.
ـــ تصورت أنها مقبولة إذا كانت بألفين.
ـــ هل معك الألفين؟
ـــ معي نصفها وسوف يساعدني سيد.
ـــ يساعدك في الشبكة فماذا عن الجهاز؟
قلت لها في شبه استياء ودهشة من عدوانيتها أو حصارها لي:
ـــ ماذا بك يا ندى؟.. من أين أتيت؟
ـــ من بطن أمي.
ـــ أقصد الآن.
ـــ من المكتب.
ـــ ألا يوجد لديك اعتبار للحب؟
ـــ كل الاعتبار، بدليل أني معك الآن، وأود أن أكون معك طول العمر.
ـــ حديثك مختلف.
ـــ لكل مقام مقال.
ـــ الجهاز سيكون قسمة بيننا.. أليس كذلك؟
ـــ نعم، ولكنك بلا دخل.
أشعلت سيجارة.. برقت في رأسي فكرة ظننت أنها مرضية:
ـــ سأبدأ من الغد إعطاء الدروس الخصوصية.

قالت بمنتهى الثقة:
ـ أشك.
ـ لم؟
ـ لأنك يجب أن تنتهي من رسالتك.
ـ لكن..
ـ ثانياً لأنك مهما أعطيت الدروس فلن تكفي،لأنك لست محترفاً.. الدروس لها رجالها.. أنت سوف تتعب لو شرحت لتلميذين، أو قضيت في الدروس ساعتين.. الآخرون يشرحون عشر ساعات ولا يتعبون.
ـ سوف أتعب في البداية.
ـ لا تخدع نفسك.
ـ ماذا بك يا ندى.. ماذا جرى.. أنت لست ندى أبداً.
كان صوتي مرتفعاً نسبياً، وقد لاحظت تحول بعض العيون نحوي.
ترقرقت في عينيها الدموع فجأة.. قالت بأسى:
ـ أبي..
أثارتني بوجهها المحتقن.. تأهبت لخبر سيئ:
ـ ما به؟
ظلت صامتة تحاول سحب الدموع وتجفيف منابعها.
ـ ندى.. تكلمي.
ـ يشكو في الأيام الأخيرة من وخز متواصل في قلبه.
ـ كشف؟
ـ كشف.. الدكتور قال لا داع للقلق.. بالأمس كان ممداً على السرير.. ناداني.. وجدته يبكي.. سألته عن حاله.. أبي طيب.. أنت تعرفه يا رءوف.
ـ أعرفه يا ندى وأحبه.
ـ قال: قريباً جداً سيأتيني سفر طويل، قلت له: لا داع لهذا الكلام.. قال: لا يقلقني غيرك. قلت له: اطمئن يا أبي.. وجدت

عملاً.. قال: أملي أشوفك في بيتك.. قلت له: طبعاً.. قريباً جداً ستترح.

تحولت ندى إلى النهر كأنما تسأله.. وقعت عيناها على العمارات الشاهقة في الضفة الأخرى.. هل كانت تتمنى شقة في هذه العمارات؟.. أشفقت عليها وعلى نفسي.. عندما فردت استعدادي على الترابيزة كان متواضعاً كأنه خيمة ممزقة تمتد أمامها صحراء مقفرة.. اقتحمتني صورة جمالات مدرسة الاقتصاد المنزلي.. جميلة جداً وطيبة إلى درجة السذاجة.. راضية جداً، لكن هاشم هو الذي كان يحلم بالقفز إلى أعلى، يريد أن يتاجر ويكسب ويركب سيارة أحدث موديل، مع أنه مدرس كيمياء.

فكر في كوفي شوب وصالة بلياردو وفي محل سايبر (إنترنت كافيه) وفي مطعم، اقتنع في فترة بإنشاء جيمانيزيوم خضوعاً لكلام مروان مدرس التربية الرياضية، وفكر في محل كوافير حريمي.أخذت نفساً طويلاً وعميقاً من السيجارة التي أوشكت على الانتهاء، أطلقت الدخان ومعه بعض توتري، قلت لندى بعد أن نقلت إليها جانباً من أفكار هاشم وحالة جمالات:

ـ للأسف، عرفت أمس فقط أن هاشم محبوس في السعودية.. ركب سيارة "وانيت" تخص زميله وضرب عن غير قصد شاباً فلبينياً.

ـ مات؟

ـ بين الحياة والموت.

ـ قصدك أنه لم يكن هناك مبرر لسفره.

ـ بالعكس.. لازم يطرق الأبواب.

أغمضت عينيها وسحبت نفساً عميقاً وهي تستريح أكثر في الكرسي.. سألتها:

ـ ماذا قلت؟

ـ فيم؟

ـ في حالتنا.

سكتت لحظات، ثم قالت برقة وحنان:
ـ ليس من السهل أن أجد مثلك يا رءوف.
هممت أن أقول كلاماً أكبر وأشد تأثيراً.. جاءت البنت اللطيفة.. حملت الأطباق.
أشعلت سيجارة.. ولم أستطع أن أقول كلماتي التي بردت أو تفحمت.. قلت لها:
ـ لا تتخلي عن حبنا.. أنت المسئولة عنه.
ـ وحدي؟
ـ كلانا مسئول.
ـ الحب ليس كياناً هلامياً.. إنه مزيج من المشاعر والإمكانيات.. إنه مودة وأدوات.. أحاسيس مع مطبخ وسرير وكيس نقود.
ـ الحب طاقة هائلة تحرك الحجر وتنطق الأبكم.
ـ هذا شعر وليس تعريفاً للحب.. أريد تعريفك القديم الذي نسيته.
ـ أي تعريف؟
ـ ألم تقل إن الحب امتزاج روح وجسد، أو روح ومادة؟
ـ نعم..
ـ اثبت لي ذلك.
ـ اعطني فرصة.
نهضت وسوت فستانها وشعرها ثم قالت بنبرة يأس:
ـ الوقت لن ينتظرنا طويلاً.
ندمت لأني لم أذهب مع زملائنا المدرسين لزيارة جمالات ومواساتها، ومناقشة كيفية التحرك لدى السفارة السعودية ووزارة الخارجية.
انتظرت ندى حتى ركبت الميكروباس من أمام مديرية أمن الجيزة في شارع مراد.. لم أركب معها، كان يمكن أن أشاركها المواصلة، لكني فضلت المشي. في مثل حالتي.. المشي تفكير

وعلاج وبحث عن الصفاء، وإعادة طرح الأمـور مـع النسـمات العليلة التي عادة ما تسرع لتوديع شمس تتأهب للرحيل.

تعودت إذا سرنا جنباً إلى جنب أن ألامس ذراعـها بذراعـي، وأدفع كفي لتحتك بكفها، عندئذ تقبض عليها بحنان ولهفة، كأن يـدي قطعة مغناطيس.. اليوم لم تحس بيدي ولا بذراعي.

كانت تنظر إلى الأمام.. عيونـها إلـى النـهار السـاقط بيـن العمارات، تبدو كأنها لا تحس بالسيارات المندفعـة وآلات التنبيـه والناس والإشارات والمطبات، وتعليقات الشـباب الذيـن لاحظـوا المشهد البائس لشابين يفترض إقبالهما على الحياة وسعادتهما بـها، ويفترض أن يختطفا بعض متعها الصغيرة، ويفترض أنـهما فـي شرنقة الغرام ضائعان وممتزجان.

سرت مسافة كبيرة دون أن يهبط الوحي علـيَّ، وتوقعـت أن يواتيني ويعينني على تقليب الأمر..يحدث هـذا كثـيراً.. أشـعلت سيجارة.. أهكذا الحب عند المرأة؟!. أهـذه حالـه..يدخلـها علـى سنوات أو أشهر وتخرجه منها في ساعة أو لحظـة.. ألـم يتخلـل روحها وجوانحها ويمتزج بدمها.. ينحسـر عنـها سـريعاً وبـلا خسائر.. تلقيه عند أول ناصية بعد أن تجمع أطرافه فـي قبضتـها كورقة مهملة مصيرها القمامة.. الكلبة لا تترك كلبها المشتبك معـها حتى لو أطلقوا عليها النار أو رجموها بالأحجار.. هل أسـتطيع أن أفعل بقلبي مثلما فعلت.. أكان حبـاً أم دعـارة.. أكـان عشـقاً أم تجارة.. أكان نقشاً على القلب والروح أم كتابة على الماء.. ليتـها تأتي وتشجيني.. فيروز.. باكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيـق، تكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق.. لا أتذكر بقية الأغنيـة.. لا أريد أن أتذكر أي شيء.. نعم.. أغنية جميلة.

تذكرت الرسالة لدقائق ثم ألقيت بها بعيداً هي والمشرف الـذي ظهر بوجهه الأحمر وجسمه الضخم وبدلته الثمينة اللامعة، وهـو يقول بعجلة لكل من يتحدث إليه:

ـــ بعدين.. بعدين.

قال لي في آخر مرة:
ـــ سلمتك قائمة مراجع ومصادر.. ارجع لها..لا تتصل بـــي إلا عند الضرورة القصوى.
أسرع إلى العربة، وقبل أن يختفي رأسه في صالونها.. قال:
ـــ ثقتي فيك كبيرة.. رسالتك مهمة جداً.. انجز.
لم تفتح في رأسي أي نافذة، لم يظهر في سمائها أي نجم.. عقلي يرتج داخلها كالبيضة الفاسدة.
ظهرت نتيجة الليسانس وكنت الأول كالعـــادة. لـــم يكـــن أحـــد يستطيع أن يتصور مقدار فرحي وفرح العائلة، إمكاناتنا المحـــدودة مع مرتبتي المميزة في النجاح ضاعفت مقدار فرحي.. النتيجة لـــها معنى وحيد ورائع، هو أني أصبحت معيداً، وانضممت إلـــى ســـلك الأساتذة الأكاديميين.. وضع مختلف ومستوى علمي ومكانة أدبيـــة ومظهر وسلوك، طلبة تقـــدر الأســـاتذة وتنظـــر إليـــهم بـــالتوقير والاعتزاز..أستاذ الجامعة يدرك أنه أعلى فئة في البلاد.
كل هذا اختفى فجأة عندما أعلنت الكلية أن المعيـــد ليـــس الأول ولا الثاني وإنما الثالث، وهو ابن زوجة العميد.
شكوت وغضب العميد ثم هادنني ونصحني بالهدوء حتى أتمكـــن من متابعة دراستي العليا.. في أي بلد في العالم يحصل هذا!!
شكوت من جديد وتحولت كل الشكاوى إلى العميد الذي عـــاملني بمنتهى الرقة وامتص غضبي، وتغاضى ـــ كرماً منه ـــ عن إنـــزال العقاب بي، والتنكيل بمستقبلي، ووافـــق علـــى إمكانيـــة التســـجيل للماجستير.. بذل الأساتذة المنافقون جهداً في إقناعي بالقبول.
ما السر في خنوعي؟! كان يجب أن أنفذ فكرتي في ضربه علقة تجعل منه عميداً لذوي العاهات.. تأتي علينا لحظـــات، تحاصرنـــا السلطات، وتحاصرنا الظروف، وتحاصرنا الكلمـــات المعســـولة، وتحاصرنا أقوال المنافقين والسلبيين فيرضى من لم يتعود أن يقبـــل غير الحق.

حصل ابن زوجته على الدكتوراه منذ سنتين.. بينما لازلت أحفر في الصخر، ويتلاعب بي المشرف.. هاأنا أضرب هنا وهناك.. تلطمني الظروف ويتبدد العمر، وأفكر الآن في الدروس الخصوصية

قصة الشيخ "زعرب" ليوسف السباعي تبدأ كالآتي:

"في ميدان الخفير أقيم سرادق كبير بمناسبة المولد، في داخل السرادق تصطف الحكومة المصرية الفاخرة، وخارج السرادق يحتشد الشعب المصري غير الفاخر".

بدني يهتز كمن شرب خمس زجاجات بيرة أو زجاجتي ويسكي.. بحاجة أنا إلى زجاجة براندي فرنسي، ذلك المشروب الرائع الذي يضع نهاية لكل شيء.

تمنيت أن أزور أخواتي. خشيت نوال فهي لا تطاق. أنا اليوم غير مستعد على الإطلاق لتحمل أمثالها وثرثرتها.. لم تتحملني ندى ولم أحتملها.

وصلت إلى البيت ذي المدخل المظلم والوجه الكئيب.. الكائن في الشارع المظلم بداية من مخازن الفحم الكبيرة التي تفرش كل ما حوله وتغطيه لمسافة مائة متر بالهباب.. بلغني وأنا لازلت أتحسس طريقي باحثاً بقدمي عن درجات السلم صياح الأسطى رجب يهبط علي من الطابق الرابع في رملة بولاق.

رجل ابن كلب حمار لا يكف عن الزعيق والسب والضرب والكح والشخر والشخير.. الشخر مستيقظاً والشخير نائماً.. زوجته خسارة في أهله.. جميلة وبيضاء وعيناها جميلتان وفمها صغير، لكنها تكاد تكون بلا صدر رغم كثرة الأولاد، وربما بسببهم.

كيف زوجها أهلها لرجل يشبه قطعة الفحم المحروقة؟.. ضئيل البدن.. سليط اللسان.. حشاش.. يعاني من الربو.. لا مال له ولا جاه.. وفوق هذا يمد يده على زوجته بمناسبة وبدون.. اجتمعت فيه كل الخصال الرديئة.. كم يرتكب الأهل من جرائم في حق البنات!.

تعجلت العثور على ثقب الكالون حتى أفر من الجـــار "الســو". انفتح بابي وقبل أن أضع قدمي داخل الشقة في الظـــلام الشــامل، انفتح باب شقة رجب وارتمت الزوجة أمامي علـــى الأرض وبـــان فخذها المضيء برغم الظلام. ألقاها الرجل اللعنة ووراءها طفليــن، سقطا فوقها وزكيبة من الشتائم.

مدت يدها فاحتضنت ولديها الذين انفرطا في بكاء مرير. لابـــد من التخفيف عنهما وبث الطمأنينة في قلبيـــــهما.. مـــاذا أفعـــل؟.. تنحنحت فاعتدلت حمدية ولمت ملابسها على لحمــــها، ثـــم هبــت واقفة.. مضطربة ومتعثرة في حيائها.

عادت تطرق الباب.. شعرت بالعجز.. كيف أحميها من زوجـــها الأناني قليل الأصل؟.. باستطاعتي حمله بذراع واحدة وإلقاءه فــــي بئر السلم أو من شباك السلم العريـــض الـــذي نقــف الآن وأولاده بحذائه، ويبعث بضوء شحيح لا يكفي لرؤية الأيدي. مكانه الطبيعي مكامر الفحم المجاورة.

لم يفتح الرجل. تقدمت إلى الباب. طرقته بشدة.سرعان ما خــوج صوته الخشن: امشي يا بنت الشرموطة.. روحي لأهلك.. حلفت ما تباتي في بيتي.

عدت أطرق الباب وأقول:

ـــافتح يا أسطى رجب، أنا جارك رءوف.

بعد قليل فتح.. قلت:

ــ خشي يا ست حمدية.

ــ لا يمكن.. أنا حلفت.

ــ سماح هذه المرة.. المهم فهمني لم أنت غاضب؟

ــ أنا طافح الكوتة طول النهار، رجعت بعد العشا وأنا على لحم بطني لا أجد إلا المسقعة.. كل يوم مسقعة.

ــ طردها هو الحل؟.. ترمي لحمك هو الحل؟

ــ شوف يا أستاذ رءوف.. تحملت كثيراً وأنا ساكت.

قالت حمدية فجأة وبقوة:

ـــ اطبخي يا جارية.. كلف يا سيدي.

هب الرجل يريد أن يضربها. تذكرت أمثاله من الرجال الذيـــن يبطشون بنسائهم بلا ســـبب أو لأســـباب تافهـــة، لمجـــرد إثبـــات الرجولة.. منعته، وبينت له في السر قوة يدي التي توشـــك علـــى اعتصار ذراعه.أدرك غضبي الكامن وحدجنـــي بنظـــرة عدائيـــة. طلبت منه أن يسامحها، عازماً على ألا أنحشر بينهما، لأن الرجـــل محمل بالعقد والأحقاد فضلاً عن الحشيش ورداءة العمل وقلة الدخل وعشرة من الأفواه بانتظاره.. عدت أشفق عليه. خـــامرني شـــعور بأن الرجل ليس غاضباً على زوجته وإنما على الظروف والأحوال، ولا يستطيع أن يفعل أي شيء تجاه أحد.

عدت إلى شقتي. دخلت وأغلقت بابها على أمل ألا يثير المشاكل مرة أخرى. روحي في حلقي. كلما أردنا النعيـــم.. اقتربنـــا مـــن الجحيم.. نحن رجال جوف. بـــالقش حشـــينا.. أعجبـــت بقصيـــدة "الأرض الخراب" لإليوت منذ كنت في الثالثة عشرة، ووقعت عينـــي عليها في ورقة مجلة ملفوفة حول ساندوتش طعمية.

جلست على أول كرسي في الظلام.. كنـــت أشـــعر بالإنـــهاك النفسي والجسدي.. الظلام في الخارج والداخل.. خلعت الجـــورب والحذاء.. عزمت على أن ألقي بنفسي على الســـرير كمـــا أنـــا.. شعرت بالجوع.. تذكرت أني لم أتناول طعاماً منذ فطوري البســـيط وذهب لقاء ندى عبثاً.. عجزت عن اتخاذ قرار بالنوم أو بالطعام أو الاستحمام.. قالت:

ـــ مرة واحد صعيدي..

سقط قلبي في قدمي.. ضحكت عاليـــاً بصوتـــها "المسرســـع".. أضاءت النور.. مزاج في الشقة.. ما هذا الرعب الذي زلزلني:

ـــ كيف دخلت؟

ـــ كان الباب مفتوحاً.تنهدت.

مزاج السمينة ذات الوجه الضاحك والعيون السوداء اللامعة.. كيف يكون الحال لو لم تضيء النور بسرعة واكتفت بمفاجأتي في الظلام المعتق الذي أضيف إليه ظلام جسدها الأسود؟

عدت إلى حيرتي.. هل أصرفها أم أستبقيها؟.. هل يمكنها أن تخلع عني بعض أحزاني أم تزيدها؟.. قالت:

ـ هل أنت جائع؟

امرأة غريبة وموهوبة.. دائماً تضع يدها على النقاط الحساسة ومفاتيح البيانو المشبوبة الممتلئة بالنغم.. قلت:

ـ نعم.

قالت: عندك أكل؟

ـ لا.. خذي واشتري أي عشاء.

ـ ماذا تحب؟

ـ أحب عشاء خفيفاً.

ـ أرجع أجدك رتبت الصالة المكركبة.

خرجت وأسرعت إلى الحمام.. حسمت مزاج كل شيء.. تحممت ورتبت بعض الأشياء.. خفضت الفوضى إلى نصف حجمها.. عادت وفرشت كل شيء على السجادة.. قالت:

ـ خليها أرضي.

أكلت بشهية.. الجبن والطعمية الساخنة والفلفل الحريف والبطاطس المقلية والخيار المخلل والخبز الكبير "المقرمش".. لم تكف عن الضحك لحظة.. مصنع إنتاج نكت.. قلت لها إن جسدها إذن ليس كله لحماً، لكنه محشو بالنكت.. سألتني: وأنت؟

قلت لها بسرعة: بالغم.

ضحكنا كثيراً..

حدثتني عن جانب من حياتها.. عمرها ٣٥ سنة. تزوجت مرة ثم طلقها زوجها.. أخوها في السجن.. "دشدش" دماغ صاحبه. أختها ماتت غريقة بعد إقدامها على الانتحار.. كانت قد وقعت في

غرام شاب ياباني.. رفض أهله الأثرياء زواجه بها طبعاً كتقاليد عائلته.. انتحر قتلاً بالسيف على طريقة الهيراكيري.. قالت:

ــ الصعيدي لما يحب يركب لمبة قلاووظ للسقف، لا يلف اللمبة وإنما يلف السقف.قالت: أنا لا أعرف لماذا أرتاح إليك رغم أنني لا أحب الشباب الذين تخلو بيوتهم من البيانو.

ــ صعب أن يكفيك دش أيتها الملحمة الأبنوسية.. هل تعلمين معنى ملحمة؟

قالت: أظن مسرحية.

قلت لها: لا يا فالحة.. يعني كتل اللحم..

قالت: لا يهم.. اسمع هذه.. زارت شخصية مهمة جداً مستشفى الأمراض العقلية وأمام الباب نامت عجلة السيارة، فنزل ليبدلها. فك المسامير ووضعها في الطاسة.. هبت الريح فطيرت الطاسة والمسامير. وقف المهم حائراً لا يدري ماذا يفعل. خرج إليه أحد المجانين وسأله: ألا تعرف كيف تتصرف؟ قال له المهم: كيف أتصرف وقد طارت المسامير، قال له المجنون:

ــ تأخذ من كل عجلة مسماراً وتركب العجلة التي طارت مساميرها.

دهش المهم وسأله: مستحيل.. هل أنت مجنون؟.

قال له: مجنون حقاً، لكني لست حماراً.

ضحكنا، لكنها قامت فجأة، وقالت: يبدو أنك لا تصلح لشيء.

ــ خليكي.. ستتصلح الأمور.

ــ لا.. شكلك تحتاج إلى دعاء الركوب.

ضحكنا كثيراً، وظللت أضحك حتى بعد أن أغلقت باب الشقة وخف الظلام قليلاً.

خلفت العمران ورائي.. تركت المدينة الهائجة وعمائرها الشاهقة وغيلان سياراتها.. انتهت الطرق المسفلتة.. غليظة السواد.. أقدامي تدوس التراب الذي يغطي بكثافة طريقاً صاعدة متحجرة وقاسية.. الهواء طيب والقلب متعب، كان عليه أن يبذل جهداً لضخ الدماء في عروقي المختنقة والمتكلسة.. الحكيم هدفي والإمساك برؤية واضحة أملي.. لا يزال الإحساس الممض بأن الأرض تهتز تحتي مسيطراً منذ شهور.

بعد مسافة ترابية مرهقة. توقفت واستدرت أنظر إلى المدينة التي فارقتها، ليتني أفارقها بعد أن تراجعت كثيراً رغبتي فيها وكنت أحد عشاقها.. تتعانق المدينة والحياة في رأسي طويلاً طويلاً حتى يختلط الأمر عليَّ.. هل المدينة هي الحياة، أم الحياة هي المدينة، أم أنهما شيء واحد.. كيان أصابه السخف وتراكم حتى غدا مسخاً.. مجرد شيء يتحرك بشكل شائه ومشبوه، وله هبَّات صادمة ومرعبة.

طرق سوداء كثيرة ممتدة ومتداخلة.. ناس كالنمل.. سماء محدقة وقريبة من العباد.. سحب من الدخان تتمشى خارجة من قلب المدينة إلى الأطراف، سرعان ما تذوب في السماء القاتمة.

آلات التنبيه الصارخة تطاردني، تذكرني بالمشهد البائس لمدينة لا تتوقف أشياؤها عن الارتطام بعضها.. الشيوخ بالأطفال.. الجدران بالمصائر.. الحديد بالشباب.. القصور بالقمامة.. المحبة بالنذالة.. النيل بالشطآن.. النخيل بالمستقبل المجهول.. الأمل بإشارات المرور.. المصانع بأرداف النساء.. الرجال في صفوف بلا نهاية أمام بنك المنى، يبيعون حيواناتهم.

الجميع مستعدون لبيع كل شيء.. لحظات من صمت متوجس.. الصباح الوليد المرتعد يركض في كل اتجاه،عازماً على أداء مهمته وتسليمها للضحى والظهيرة.. كرات كثيرة يتقاذفها البعض.. يتابعون بحماس قذفها.. ملائكة الموت يتربصون، يتدافعون وراء بعض الأحياء الذين ترتسم على رءوسهم أسهم ودوائر زرقاء لا يراها غيرهم.. ديدان وحشرات تخرج من الأحراش.. صورة أبي في الخلفية تمسك أمي بذراعه.. أخي سيد يسوق قطيعاً من الخنازير.. الخنازير تركض في كل اتجاه تتصيد القمامة وأبي يجتهد لضم الخنازير جميعا في نسق واحد نحو هاوية.. ندى تضع يدها على خدها فوق عمارة عالية ذات لون برتقالي تلفها أحزمة خضراء.. بدت في أجمل صورة.. عروس مشرقة وبهية.. تحدق في الخيول التي تجري بسرعة مذهلة فوق رءوس البشر وتخبط السيارات ثم تسقط في النيل.. الرئيس يلوح للجماهير محيياً.. الجماهير المحتشدة تختفي تحت عجلات آلاف السيارات الفارهة ذات الزجاج الأسود.. الرئيس يبتسم ابتسامة ودودة خالية من العقد ومن الهم.. صورة كبيرة بحجم عمارة له في كل الميادين بنفس الابتسامة التي تشجع على التفاؤل المستحيل.

لمحت الأشجار تمر عبر صحراء ممتدة، تبحث عن العصافير كي تحط على أغصانها وتغني.. عادت الأشجار منكسة الأغصان دون عصافير. الأوراق يغزوها الجفاف.. تصفر.. تذبل وتتكمش.. كل شيء يندفع إلى عماه مثل بلدة سحبت من أهلها العناية الإلهية ترخيص الحياة.

نافورة دماء عالية تزين ميدان التحرير.. مع الصباح بدأت في العمل كل النوافير، حولها الزهور بكافة الألوان.. ربيع وحشي يتألق في القلوب والأركان.. أينما ترحل العيون تحط عليه.. بينما الآن الغربان تنقش السماء، والعشاق لا يجدون مكاناً على الأرصفة كي يسيروا معاً.. الأيدي في الأيدي والقلوب تفتش عن القلوب الملفوفة بطبقة من حبات مطر أصفر.. قوافل عربات الأمن

المركزي بصناديقها الضخمة تمضي كثعبان أسود هائل يلتف حول البلاد.

ضقت بالمشهد.. تابعت السير بهمة على الطريق الصاعدة.. الحصى والصخور وبعض الزواحف لا تعوقني عن بلوغ غايتي.. قالوا: الحكيم يسكن فوق أعلى قمة جبل كوثر الذي يبعد عن القطامية بنحو عشرة كيلومترات في عمق خمسة.. مدقات واضحة تدل على أن عدداً غير قليل اتخذ طريقه إليه.. كان لابد أن أسأل عن صاحب كلمة مضيئة تكنس السواد الذي حط بقلبي وعيني إزاء أحوال الناس وأحوالي:

دلني عبد الحسيب مدرس اللغة العربية.

ـــ الحكيم مثله على الأرض.. زاهد.

حالتي النفسية بلغت الحضيض.. مشاكل في المدرسة مع المدير.. مشاكل مع الدكتور المشرف.. الكل يريدني أن أنحني للمصلحة والجهل.. مشاكل مع جاري المسكين.. الأسود الضئيل زوج البيضاء الجميلة.. فقرهم مدقع وآلامهم تصلني أولاً بأول.. آهة بعد آهة.. وصفعة بعد أخرى.. وكلمة قذرة في أعقاب كلمات كثيرة من نوعها.. شيوخ المساجد لا يعرفون غير أيام الخلفاء الراشدين.. الأسعار تزيد كل ساعة.. حماقات متلاحقة على كل المستويات.. السيارات تلتهم البشر.. المستشفيات بالمئات لكنها لا تكفي ملايين المرضى.. تجار حرموا الإحساس.. وأنا أكاد أفقد ندى.. الجيوب فارغة.. لا أمل.

قل يا شيخنا يا حكيم.. أنت حكيم حقاً لأنك جئت هنا وخلعت وراءك هذه الدنيا المتدنية.. أنت حقاً حكيم فمن يملك القدرة مثلك على الفعل.. على الاعتزال والمفارقة.. إنه الضعف البشع الذي يستبيح الكرامة ويقذف بها تحت الأقدام.. لو كان الضعف رجلاً لقتلته.

طول عمري لا أهتم وأدرك أن الأيام دول.. الخير لا يدوم ولا الشر.. الظالم سيمضي والعادل عمره قصير.. اليسر مؤقت

والفقر.. طمعان في الحب والفكاهة.. صدمتني الأحوال.. قـــل يـــا شيخ.. ما السر وما العمل؟ هذا ما أنوي قوله له إذا وصلت إليـــه.. لذلك مضيت أصعد.. الارتفاع يزداد حدة، حتى لم أعد أرى الجبـل، إذا نظرت إلى الأمام أرى السماء الصافية.. سماء غير السماء التـي خلفتها.

لم تكن أحوال الناس تعنيني، مزاجي وعدم تعكـير دمـــي أهـم شيء في الدنيا.. لا تهمني مسألة المال، أراه حقيراً والســعي إليــه أحقر منه لكنه لازم حتى لا أجوع ولا أظمأ. أريده من أجل البقـــاء وحفظ الحد الأدنى من الكرامة فلا أتســـول أو أنـــافق، ومـــادمت أستطيع أن أدفع لأي امرأة فليذهب الكل إلى الجحيم.

أنا وسيد لم نكن نبكي إذا سقطت أمي في الفراش مريضة. سـيد يغادر المنزل وأنا أسألها وأستدعي لها الطبيب أو أصاحبـــها إلـــى المستوصف دون كلمة ثم أذهب لألعب الكرة أو أمضـــي إلـــى أي شارع تجاري مزدحم بالنساء.. كانت فرق الكرة ونحــــن صغـــار تتعارك لضمي إليها، فقد كنت أجيد إحـــراز الأهــداف، ويدهـش الأولاد لأني لا أبتسم بينما هم يقفزون والجمهور إعجابـــاً.. المـــهم زجاجة الببس وكمية كبيرة من "اليوسفندي".. كنت آكـــل الواحـــدة كاملة في فم واحد.

تمنيت أن تكون رسالة الدكتـــوراه فـــي العلاقـــات المصريـــة الأوروبية في العصر المملوكي والتركي، ورأى الدكتور أن الفــلاح أهم.. فرق كبير بين الدراستين رغم أن الفترة واحدة، في رســـالتي المقترحة كانت هناك فرصة للتعرف على معيشة الملوك والملكـــات والقناصل وجيــل السياســيين وســفالة المتـآمرين والمفاوضـــات والحروب والزيارات والاتفاقيات والهدايا ودور النساء في تذويـــب الفوارق.

أما الرسالة التي فرضها الدكتور فكلها عـــن عـــذاب الشـــعب المصري المدهوس على مر العصور، وهي أيضاً عذاب لي لأنـــي

سأتخصص في هذا الغم الأزلي وعليَّ أن أعـــرف كـل الشـقوق المحفورة في أقدام ملايين الحفاة.

الكل متواطئ عليَّ وعلى الشعب المصري.كثير من النــــاس لا يدرك ما طرأ من تغيير مدمر وصادم.. هل أنا مجنون؟. مؤكد أني كذلك لأني ألاحظ أن كثرة تحس أننا في أحسن حـــال. لـو كنـت مجنوناً فلابد أنهم أغبياء أو عميان.

التغيير الذي حدث في الثلاثين سنة الأخـــيرة رهيـب والكـل متواطئ حتى السماء والأرض.. الجو والعالم والبكتيريا والأمراض والنفوس والآباء والأبناء والحكومة طبعاً والشرطة والأمثال الشعبية والتجار والتليفزيون وأمريكا واليهود.. أنا لست مجنونـــاً.. ربمـا أكون مريضا.. كل شيء غابت عنه فلسفة الحياة.. الـروح غائبـة والتراث.. الأهداف فقط هي صاحبة السيطرة والجاذبيـة، والنـاس تندفع نحوها كالإنسان الآلي المزود ببرنامج وخطة.. أنا بحاجة إلى حفلة زار.. أتارجح فيها وأتطـوح أيامـا حتـى أسـقط، وتسـقط الشياطين.. تسقط كل الناس..يسقط الـ.. يسقط الـ.. أين أنت يـا حكيم؟.

ناديت. لم يرد أحد.. تقدمت من فتحة الغرفة.. لا بـــاب لـها.. مجرد ستارة من الخيش. أزحت بيدي جانباً منها. غرفـة صغـيرة خالية تماماً إلا من فروة خروف لونــها بنـي محـروق متآكلـة الأطراف.. ناحلة الصوف حتى بدا جلدها الأجرب في عديـد مـن المواضع..لابد أنها فروة الكبش الذي فدى الله به إسماعيل.

في جانب منها هناك هيكل آدمي، لونه لونها.. رجل في غايـة النحول والهزال، يبدو أنه أيضاً من أيام إسماعيل.. جلـده بالكـاد يكسو عظمات قليلة وقصيرة وجمجمة. عيناه مفتوحتـان.. مجـرد حدقتان دون إنسان.

اضطرب قلبي عندما تبين لي المشهد بوضـــوح.. خشـيت أن يكون ميتاً.. تحركت أهدابه بشعيراتها القليلة.. كانت ذراعاه تنامـان إلى جواره كخشبتين.. قال بوهن شديد:

ـــ عطشان.

تلفت حولي فلم أجد وعاء للماء.. خرجت أبحث حـــول الغرفـــة الحجرية لم أجد شيئاً. شعرت أنا أيضاً بالعطش.. فاتني أن أحمـــل زجاجة مياه وأنا أعلم جفاف المنطقة وطول الطريـــق ووعورتـــه وشدة الحرارة المتوقعة.

قال وهو يشير بإصبعه جهة النافذة الصغيرة:

ـــ هناك تجد عصا.. حولها ماء.. خذ منه وارو الصفصافة التي وراءك.

خرجت من جديد وتلفت بحثاً عن العصا.. وجدتها على بعد نحو عشرة أمتار إلى جوار حفرة في قاعها بعض الماء.. لم أجد وعـــاء أحمل فيه الماء.. خلعت فردة حذائي وغرفت بها الماء وعدت إلـــى الصفصافة فسقيتها.. لبست فردة الحذاء وبحثت عن الماء من جديـد للشيخ الحكيم فلم أجد.. عدت إليه، فإذا هو جالس يمسح فمه ويقول:

ـــ الحمد لله.. الماء روح الحياة.

جلست على حجر عريض عال.. استولت عليَّ حالته وأنســـتني لحظات ما جئت من أجله. حدثته بحالي وحال الناس.. شرد ثم قال:

ـــ الخضر هو الله.. موسى هو الإنسان.. مـــا يـــراه الله هـــو الصواب.. إذا فقد موسى الإيمان تحول إلى رعوف.

دار بي الجبل.. أجهدت ذاكرتي بحثاً عمن أكون قد قلت له إنـــي ذاهب إلى الحكيم.. لا أحد يعلم.. الناس دلوني عليه.

ـــ كيف عرفت اسمي؟

استعدت ما قال دون فهم.. تمدد الحكيـــم.. الكومـــة العظميـــة الصغيرة على الفروة.. لا تزال رأسي بعيدة عن جسدي.. تراجعـت أحاول استعادة توازني.. الحركة مضطربة.. تقدمت خطـــوات ثـــم وقفت.. عدت أنظر إليه.. الجبـــل لازال يـــتزلزل تحتـــي. كـــانت الصفصافة تمشي إليه في أناة.. دخلت عليـــه وانحنـــت لحظـــات.. لمست أوراقها رأسه، ثم عادت إلى موضعها.. دلكت عينـــي.. لـــم أكن أحسن الرؤية..نقلت خطواتي بحذر.. تعـــثرت فـــي حجـــر..

وقفت.. تدحرجت.. تجرحت.. درت حول نفسي.. فقدت السيطرة.. استسلمت.. توالى سقوطي.. استقر جسدي عند منطقة منبسطة في مساحة طولي مرتين.. ظللت منكفئاً على وجهي لا أرى ولا أسمع ولا أحس بشيء.. لكنني حي وأدرك جيداً ما جرى لي.. بدا لي أني كنت متواطئاً مع أسباب سقوطي، على الأقل راضياً به.. لم أبذل ما يكفي من جهد للحيلولة دون الوقوع ودون مواصلة كل هذا السقوط الذي مزقني ولابد في مواضع لا أحس بها الآن. تكاد روحي المحمومة والمؤرقة تجد لذة في القعود على منزلق الانحدار. فهل أنا وحدي المؤهل للانحدار؟ هل بيني وبينه اتفاق مثل اتفاق فاوست.. هل سلمت نفسي للانحدار؟.. من الذي ينكر أن الانحدار شيء مدهش، وأن ثمة انحدارات كثيرة تصل إلى حد الروعة.. أنا أنحدر إذن أنا موجود.

لما طال رقادي وأحسست بالشمس تضرب رأسي.. لممت نفسي وببطء نهضت.. خبطت صدري لأنفض الغبار عن ملابسي وخبطت رجلي البنطلون.. صلبت طولي.. تلفت حولي.. وقعت عيناي على لافتة كبيرة لم أنتبه لها من قبل:

"هذا الجبل ملك خاص للمهندس شوقي راسخ صاحب الشركة الوطنية للاستثمارات العقارية".

أخذت أعيد ترتيب رأسي دون جدوى.. كان ثمة شعور أو خاطر يهمهم.. حتى الحظ الحسن لم يعد يكفي لإنقاذنا من الغرق.

(٢٠)

سألت عليه بالأمس.. كان تعيساً ومتشائماً، يسب كل شيء في الدنيا.. لم يكن كذلك في يوم من الأيام.. اشتريت ورداً وأصر كريم صبحي أن يدفع ثمن الكباب الذي حملناه ومعنا فكري نمنم.

قال كريم عندما حدثته عن رغبتي في رفع الروح المعنوية لرءوف وزيارتي له، قال سآتي معك، نتناول الغداء معاً.. منذ مدة لم أره.

سألني: لماذا لم ينته بعد من رسالته!

ـ قارب على الانتهاء.سألني فكري زميلي في الشركة عن طريقي لنأخذ مواصلة واحدة إذا كان نفس الاتجاه. عرف بذهابي إلى رءوف.. أصر على صحبتي وألغى مشواره.

سألت رءوف: هل هذا عيب العزوبية أم ميزتها؟

رد بحماس:

ـ ميزتها طبعاً.. ليس لك وتد يدقك في مكان.. أنت حر.

ضحكت. سألني عن السبب. قلت:

ـ من شهر خرجت من بيتنا وفي نيتي الذهاب إلى زميلنا مجيد الذي يسكن عزبة النخل. وقفت على محطة الأتوبيس أنتظر الباص. لم يحضر. ربع ساعة، نصف ساعة. مرت العشرات المتوجهة إلى كل بقاع الدنيا حتى التي تذهب إلى البرازيل وكينيا وسريلانكا، ولا يأتي باص عزبة النخل، ثم جاء واحد ففرحت إلا أني لم أستطع أن أضع قدمي على حرف الباب من شدة الزحام، وجاء آخر مزدحم جداً، قررت أن أركب أي باصٍ خالٍ مهما كانت الجهة، وأول باص وصل وكان خالياً كان متجهاً إلى المَعادي، قلت إذن أزور صلاح.

لفت كريم نظري إلى اللوحة الكبيرة التي أراها لأول مرة في ميدان عبد المنعم رياض.. عشرة متر في خمسة.. شعبان عبد الرحيم وروبي العريانة واللمبي فاشخ فمه ولوسي وفي الخلفية برج القاهرة والأهرامات، وتحت الأقدام بعض لاعبي كرة القدم المشهورين وقد وضعوا وجوههم في أكفهم كأنهم يبكون، وفي الجانب مبنى التليفزيون.. ما الداعي لهذه اللوحة؟.. لاحظت أنها ظهرت مرات عديدة على الكورنيش وكانت تغطي مبنى هيئة الكتاب تماماً وكان الرئيس بوجهه الباسم أبداً في الوسط.

قال صبحي إن اللوحات بمناسبة تنظيم مصر لمؤتمر السلام الدولي عام ٢٠٠٥.

طرقنا الباب عدة مرات. لا أحد يرد.. إنه يعلم بقدومي. فتح باب الشقة المجاورة وقالت السيدة التي فتحت بابها وتحمل طفلاً:

ــ تريدون الأستاذ رءوف؟

ــ نعم.

استدارت إلى الداخل وقالت: كلم يا أستاذ رءوف.

خرج إلينا وأغلق وراءه الباب، فتح لنا وهو مضطرب.. هنأناه بالسلامة.. خبطنا ظهره بقوة.. قال:

ــ يا أولاد الكلب وأولكم أخي.. زوجها كان معنا.

قال كريم:

ــ هذه هي الموضة الجديدة.

ــ أي موضة يا مجنون منك له؟

قال فكري:

ــ متبهدلة وعدمانة شغل، لكنها تسد.. في وجهها قبول.

قال كريم:

ــ أنت سوسة يا نمنم.. بسرعة فحصتها.

اندفع فكري:

ــ أحكي لكم القصة من أولها.

ضحك رءوف وقال:

ـــ أنا فرحان بزيارتكم.. لا تضطروني لطردكم.
قلت مشاركاً الشباب في السخرية:
ـــ بذمتك فرحان يا رءوف؟
ـــ أنت كمان!
ـــ فهمت منك أمس أنك تعيس وحزين.
أسرع يقول قبل أن ننبش في علاقته بجارته:
ـــ الرجل النطع أجر أولاده.
قال كريم:
ـــ يلمون السبارس؟
قلت: لا.. يتسولون.
قال رءوف: لا يلمون السبارس ولا يتسولون.
قال فكري: للعمل في جراج أو توزيع ورق في الإشارات.
قال رءوف:
ـــ أبوهم سلمهم لرجل لكي يسرقوا وينشلوا.
علق فكري: جعلوني مجرماً.
ـــ بالضبط.
ـــ مقابل؟
ـــ خمسة جنيهات للعيل في اليوم.
اندفع فكري: ممكن أروح معهم؟
ـــ كانت زوجته تصرخ وتبكي.
سألته: لماذا يأخذ أولاد جارك.. هل هو أعزب؟
قال رءوف: عنده خمسة،لكنه يصر على تعليمهم في المـــدارس ولا يعلمون لا هم ولا أمهم شيئاً عن عمله.
ـــ عمله الأسود.
سأل كريم: وبعدين؟
ـــ لطمت زوجته.. رحت أنجدها..عرفت الموضوع.
ـــ ما الموضوع؟

ـــ رجب سلم أولاده لمدرب اللصوص.. وأمهم لا تعرف أيـــن هم.. اليوم فقط صارحها. رفضت وصرخت. رأسه وألف جزمة ما يرجعوا.. قامت الخناقة.. وجدت نفسي في حارة سد.. قلــت لــها زوجك عنده حق.. لطمت زيادة.. قلت لها الحياة غالية والدخل قليل والحكومة راحت الشاليه وجلست تحت الشمســية علــى البحــر.. المسئولية تقع عليه.. ذنب الأولاد في رقبته.. سيبيه يعمل ما يــراه صالحاً والموضوع سيفشل عن قريب. ولا أحب أسمع صوت واحد منكم وإلا بلغت البوليس ضدكم بتهمة إزعاجي.. حضراتكم وصلتم، ولستم رجالة بالمرة إلا لأن معكم أكل.. أشم رائحته النفاذة.. هــاتوا بسرعة.. لم أتناول لقمة منذ الأمس.

هجمنا على الطعام.. رعوف قبلنا.

سألته: الخوف ترجع تهيج.. يضربها.

قال رعوف: لا يقدر.. مرة ضربها.. اشتكت لأخيــها.. "هبــده" علقة.. توبته.

قال كريم:

ـــ لا تنس أنه بعد العلقة التي تلقاها يستطيع أن يضربــها مــن جديد ولا تشكوه لأخيها خوفاً عليه مادام هناك أولاد.

دهش رعوف لكلام كريم، لكنه قال:

ـــ أظن كلامك معقول.

قال كريم: معقول جداً.. عندما تنجب السيدة المصريــة طفــلاً تحافظ على زوجها ولو كانت تكرهه ولا تسمح لأحد بإهانته.

قلت: أظن الموضوع أخذ أكثر من حقه.

قال رعوف: من شاف بلاوي الناس هانت عليه بلوته.

ضحكنا وسجرنا وشربنا الشاي ثم أخرج كريم الجريــدة التــي نشرت التحقيق عن ممارسات رئيس مجلس إدارة الشــركة كــامل سركيس.. أخذنا نقزقز اللب الأبيض أثناء قراءة رعوف.

لما انتهى.. قلت له: الجزء الثاني ينشر الأسبوع القادم.

قال رعوف: عمل جيد.. للأسف كنت أتمنى أن يكون في جريدة كالأهرام أو الأخبار.

قلنا جميعاً: كنا نتمنى، لكن هذه هي الأحوال.

— كم توزع هذه الجريدة؟

— ثلاثين ألفاً وربما أكثر.

قلت:

— ليت الموضوع يصل إلى الرئيس.

قال رعوف: لو في بلد أخرى لتحركت كل الأجـــهزة واتخــذت مواقف حاسمة.

قال فكري:

— أنا واثق أنها ستتحرك لو عملت لنا دور شاي.

نهضت وقلت بسرعة: خليك يا رعوف.

سألني: كيف حال نوال؟

— فل.

— وأولادها؟

— عال.. أخوك سيد اشترى لها ماكينة خياطة.

سألته:

— ما أخبار ندى؟

— أعطتني بمبة.

— كيف؟

— متغيرة جداً. عاملة انسحاب منظم. شافت لها شوفة.

— يمكن تهيؤات.

— كلام محدد وصارم.. تقدمت عرسان وأنت غليان.

— هكذا؟

— نسوان ولاد كلب.

— اهدأ ولا داع للمبالغة.

— قررت أركب على الرسالة.. تك تك.. أخلص منها.

ـــ هذا أحسن حل.. بعدها الكل سيطلب رضاك، اعمل معسكراً وعليَّ أن أوفر لك كل ما يلزمك.. أكل.. شرب..
ـــ نسوان..
ـــ ليست سكتي يا فالح.
عانقني وعانقته.. بقينا لحظات.. قلت:
ـــ أحلى شيء في الدنيا الأخوة.
يقول بتأثر:
ـــلو كان سيد معنا أو مثلنا.
ـــ تقسيمة ربك.. المسألة ليست بالكثرة.. الجميل فيه إنك تجده ساعة الأزمة.
ـــ ماذا عملت مع الأهرام؟.. اتفقت تكتب لهم مقالات؟
تذكرت فضحكت بمرارة:
ـــ نشروا لي مقالة عن أمي، ومقالة عن التجربة الصينية والانفتاح المتدرج.. نشروها بعد القصقصة.. بعدها أرسلت مقالة عن الاقتصاد الأسود في مصر، رفضوها، مقالة عن أهمية الثواب والعقاب، رفضوها.. مقالة عن "الشفافية".. أخفوها وقالوا لم تصل.. قدمت نسخة منها.. رفضوها.. مقالة عن الديمقراطية رفضوها، مقالة عن التعليم من ثلاث صفحات نشروا منها نصف صفحة لا تفهم منها شيئاً. ضقت بهم ولن أرسل إليهم. الأهرام جريدة عجيبة.
ـــ هذا يؤكد أننا نعيش أزهى عصور الديمقراطية.
ـــ ترسل مقالة عن "التخلف في جزر القمر" ينشروها، مقالة عن السياسة المصرية الحكيمة، ينشروها، لكن كلمة ضد محور الشر الأمريكي.. لا يمكن.
ـــ كيف حال ابتهال؟
ـــ عال.
كريم ينادي
ـــ روح له.. الشاي داخل على غليان.
ـــ ككل شيء.

وأنا راجع بالشاي.. سمعت كريم يقول:
ــ أكاد أشك في هذا الشاي.
ــ لماذا يا صحفي؟
ــ ما معنى أن تدخلا معاً لإعداد الشاي.. هناك مؤامرة.
ــ ياسر لا يعرف أماكن السكر والنعناع والأكواب و..
أسرع كريم:
ــ أنت نفسك لا تعرفها.
ضحكنا فاستطرد:
ــ بصعوبة وجدنا الكراسي، وعليها تراب.
قال رءوف:
ــ تعال غداً ومعك الكباب وأعدك أن تكون الشقة على سنجة عشرة وتدخل المطبخ بنفسك تعمل الشاي.
دنا منه كريم وسأله:
ــ من يقوم لك بالتنظيف؟
اندفع فكري يقول:
ــ يا بني هذه الشقة لم تنظف من الحرب العالمية الثانية.
تدخلت:
ــ نظفوها أيامها فقط لاستقبال تشرشل وروزفلت.
قال فكري: تبيعها لي يا رءوف؟
هز رءوف رأسه مستفسراً.
ــ أعملها مزاراً سياحياً بادعاء أن الثلاثة اجتمعوا فيها.
ــ خذها إذا قلت أن من كانوا فيها أربعة.. أنا وستالين و..
قال كريم: دون أن يقول، الناس ستعرف أنك كنت معهم من حالة الشقة.
يسرع كريم بالجري ووراءه رءوف.. لحقه وحاول عضه.
سأله فكري مشيراً إلى اللوحة الكبيرة:
ــ المسيح واحد.. وهذه اللوحة فيها مائة مسيح وحتى ألف.
ــ من قال إن هذا هو المسيح!

ـــ مصلوب.
ـــ ألم يصلب إلا المسيح؟
ـــ ما المقصود؟.. أرحني.
ـــ أبداً.
قلت: برد الشاي يا شباب.
قال كريم وهو يعدل هندامه:
ـــ سمعتم آخر خبر.
قال فكري: سمعناه.. قديم.
قال كريم: عمري ما جبت خبراً قديماً.. مصـــــادري تختـــارني وتحترم دوري..أنا بلا فخر..
قال رءوف وهو "يزغده" في كتفه:
ـــ ستذلنا بكيلو الكباب.. انطق.
قال كريم مطاشاً من زهوه:
ـــ هل تعرفون الدكتور شمس التهامي الشهير بهتلر؟
فكري: اليساري العتيد.
قلت: أشهر إسلامه؟
رءوف: على فكرة.. الدكتور شمس أفضل من يجيـــد صياغـــة العبارات المسبوكة والمقنعة في سلاسة وجمال.. أظن أنه محتال.
قال كريم: في السر انضم للحزب الوطني الأســـبوع المـــاضي ومرشح ليتولى منصباً بارزاً في الجامعة.
رءوف: انضم للحزب الوطني ليس حباً فيه، وإنما لسبب آخـــر غريب وعجيب، هو أن الترشيح لأي منصب لا يتم إلا بعد موافقـــة مباحث أمن الدولة، ولو كان عبقري زمانه لن يوافق عليه الأمن إلا إذا كان عضواً في الحزب.
قلت: الكل يعيد حساباته.
فكري: الملاعب أصبحت مفتوحة والمسائل مكشوفة، وكل واحد بدأ يتصرف حسب الخريطة الجديدة.
قلت: التي أساسها المنفعة.

رءوف: هذا هو الجهل بعينه.

فكري: بالعكس هذا قمة الوعي.. التنبه قبل هبوب الريح.

رءوف: لم تتعرف على ما وراء كلامي.. يقول ياسر إن الكل يبحث عن المنفعة.

فكري: تمام.

رءوف: السؤال هو: أي منفعة؟

فكري: منفعتي.

قلت: واحدة واحدة يا فكري.. يبدو أن هناك كلاماً مهماً.

قال رءوف:

ـ هناك منفعتان.. عامة وخاصة.. إذا اخترت المنفعة الخاصة فقط، فأنت صاحب فضل كبير في هدم المجتمع وهذا ما يحدث، وإذا اخترت الاثنين بحيث تفيد العام والخاص، فأنت تقدم خدمتك لصالح الفرد والجماعة، ونادراً ما يسعى فرد لخير الجماعة دائماً وينسى خيره.

فكري: الفقر المسيطر.. هو السبب في كل ما يحدث.

كريم: من قال إن مصر فقيرة.. مصر دولة غنية جداً.

قلت: لكنها منهوبة.

قال رءوف: لماذا؟..لأن المنفعة الخاصة غلبت.

فكري: هذه إشارة إلى رغبة البعض في الخلاص الفردي.

كريم: تمام.

رءوف: لم تنته المشكلة.. الخلاص الفردي نفسه يدل على الجهل لأن صاحبه ليس لديه الوعي الكافي لإدراك منظومة التكامل بين العام والخاص.

فكري: الأمية قلت جداً يا رءوف..لا تتحدث عن الجهل.

قلت: لا يا فكري.. نحن لا نتحدث عن التعليم في حد ذاته.. نتحدث عن جهل الفكر أو فقر الفكر.. الجهل التعليمي جزء ضئيل جداً مما هو حاصل.. نحن لدينا غياب رؤية.. تطور التعليم عندنا معناه بناء مدارس جديدة وتحسين طبع الكتاب، لكن أين هو

التعليم.. ما هي وسائله لخلق إنسان جديد متفتح وحر.. عملي ونبيل.
أسرع رءوف يقول:
ـ ما قاله ياسر بالضبط هو المقصود، وهو ما يجب أن تعيه كل قيادة والشعب أيضاً.
فكري: شوف يا أخي التحيز.. لأنه أخوه، كلامه جميل.
رءوف: إذن فلسفة التعليم هي الغائبة، كما أن فلسفة الصناعة غائبة، وكذلك فلسفة الديمقراطية.. الإدارة.. روح الأشياء غائبة ومعناها غير موجود.. أزمة مصر روحية.
أشعل سيجارة بسرعة واستأنف:
ـ رجل الأعمال في مصر جاهل.. لا يعرف شيئاً عن تاريخ مصر ومستقبلها، والتاريخ ليس الأحداث ولكن روح الأحداث.
كريم: ليس كل رجال الأعمال.
رءوف: طبعاً ليس كلهم.. أتحدث على وجه العموم.. رجل الأعمال ينظر تحت رجليه بحثاً عن المكسب السريع ولا يهمه أن يسد نقصاً مهماً في مجال بعينه.. الربح هو الأساس.. هل منهم من أخذ عماله في رحلة؟.. من كساهم؟.. من أسس مدرسة لأولادهم؟.. ومثلهم رجال السينما.. مشروع السبعينيات العظيمة نسف منظومة القيم والمبادئ ولازال العمل في إنجاز المهمة على قدم وساق.
كريم: العسكريون هم السبب.
رءوف: جزء من السبب.. وكما قلت..غياب الفلسفة هو السبب.. الفهم الدقيق والعميق للأشياء.. الأم ليست فقط "البز".. الأم.. الحنان والعمق والحكمة والتضحية. الفرق بين الزعماء والرؤساء، أن الأوائل يتصرفون بناء على فلسفة.. ووفقاً لفكرة أعمق وأبعد لها وهج تاريخي.. أما قرارات الرؤساء فمعظمها ردود أفعال وشتان بينهما.
دهشت لمقولة رءوف الأخيرة، كنا دائماً نتهمه بأنه بلا قلب.
قال فكري: رءوف سخن يا جماعة.

ضحكت من الملاحظة التي كانت على بالي.

امتص رءوف أنفاساً من السيجارة ثم قال:

ـ هل تتصورون أن الديكتاتورية ليست خوفاً من الشعوب أو على الشعوب.. الديكتاتورية في الأصل جهل.. لأن الديكتاتور لا يعرف فقه الحكم ولا يعرف طبيعة الشعب ولا فن الإدارة ولا فن العلاقات العامة والسياسة وجاهل لأنه لا يعرف صالحه ولا صالح الأمة، وجاهل أكثر لأنه لا يعرف طبيعة ما يفعل؟ وجاهل لأنه فاهم أنه يعرف نتيجة ما يفعل وجاهل لأنه لا يعرف ما قيمة الحب، وجاهل لأنه لا يعرف أن أقوى الطغاة ثارت عليهم الشعوب، وكانت مصائرهم أسوأ بمراحل مما تعرض له الناس على يديه.. كل تخلف سببه جهل، وكل الأخطاء سببها الجهل.. حتى الطمع جهل.

قال كريم: أنا معك يا رءوف جداً، بشرط أن ننتقل إلى مقهى ونشرب شيشة وربما أختلف ساعتها معك.

فكري: كلام رائع يا رءوف لكن الدين يمكن أن ينقذ البلد.

قلت: بالفعل يستطيع.. لقد خلق لذلك.. على أن يكون عن طريق القنوات المضيئة المتفتحة وليس عن طريق المنابر المغلقة والمعتمة.

قال رءوف: شفتم.. نلف نلف ونرجع للسبب الرئيسي.. الجهل. الجهل يضيع الجميع.. حتى الدين.

قال كريم: لا تنس يا رءوف.. غداً سنأتي لنسهر معك.. لكن بعد أن تعيد صياغة هذه الشقة.

رءوف ينهض وقد رآنا جميعاً نهضنا:

ـ المهم لا تأت بيدك خالية.

فكري: ما رأيكم نختار يوماً كل أسبوع ونعمله ندوة أو صالون؟

كريم: فكرة رائعة، لكنها تحتاج إلى دعاية كافية.

قلت بحماس: ثلاث ندوات على الأكثر والرابعة في السجن.

أمسك فكري بكتف كريم وهو يقول:

ـــ ذكرتني يا ياسر.. نريد وسيلة يا كريم للعثور علـــى مكـــان ناجي عابدين ابن خالة خطيبتي.. يقولون إنه معتقل من عشر سـنين ولا يعرفون مكانه، ولجأوا لكل الوسائل للبحث عنه في كل أقســـام الشرطة.

ـــ منتمٍ لحزب أو جماعة؟

ـــ أبداً.. أبداً.

ـــ اكتب لي بياناته وأحاول العثور عليه، لـــهذا السـبب فقـط أصادق ضباط الشرطة.

أسرعت أقول: فكرتني يا فكري.. أنا إنسان سيئ للغاية.. كيـف أنسى أسألك يا كريم عن شاعر جميل وزميل في الشركة اعتقل من شهر.

قالوا جميعاً: شاعر!

سأل كريم: اسمه؟

ـــ محمود عبد الباسط.. إنسان بسيط وشعره بسيط، لكنه عميـق ومشع.

ـــ اكتب بياناته.

قال رءوف: سوف أكتب بياناتي أنا أيضاً.. لتبحث عني.

قال كريم: مكانك معروف.

قال فكري: عند ندى.

تغيرت ملامح رءوف وأشرت يدي لفكري هامساً:

ـــ ما هذا يا أفندي؟

ـــ يظهر إني "عكيت".

"زغدته" قائلاً: قدامي.

ومع ذلك لم يتحرك فقد جذبت نظره لوحة صغيرة عليها عبـارة شيلر "انهض في جسارة بجناحيك.. وحلق فـــوق عصـــرك.. ودع المستقبل يشرق، ولو بضوء خافت في مرآتك".

الأرض رخوة. الحياة رخوة. الحيطان رخوة.. المبادئ رخوة.. الأيام المقبلة رخوة.. السلالم والمصاعد رخوة. الآمال والأحلام رخوة.. كل الأشياء رخوة وقابلة للانهيار.. وإذا كانت ثروات الأغنياء يمكن أن تتعرض للانهيار فحياة الفقراء، محدودي ومعدومي الدخل أكثر تعرضاً للانهيار، بل هي الانهيار ذاته.. ونادراً ما يسقط الغني تماماً، وتندق رأسه بالأرض بعد أن كان يحلق في السماء.. الغني لديه ألف وسيلة لاستعادة توازنه بعد الأزمات، وإعادة ثرائه بعد أن تطوح به صدمة أو صفقة لم يحسن دراسة حساباتها وظروفها. هل ثمة شيء مضمون أو يوثق به، خاصة في عالم الصغار والمسحوقين؟!.

شهدت الشهور الأخيرة تقلبات ومفاجآت، والأهم من ذلك كله اكتشافات.. فمن يعش يشوف الغرائب والذي يمشي يشوف أكثر ومن يعمل في الحكومة يشوف، ومن يعمل مع رجال الأعمال يشوف أكثر وأكثر، ومن يعمل في مكتب صاحب المال نفسه يشوف أكثر وأكثر وأكثر، أما من يعمل مثلي في مكتب رجل أعمال ضخم وواصل ونافذ وأفاق فهو يستطيع أن يفهم سر صناعة القنبلة الذرية والاستنساخ، ويعرف كيف يدخل البغل في الإبريق، والفيل في علبة النشوق، ويفتح بالإبرة نفقاً يوصل إلى جدة شرقاً وطرابلس غرباً.

تعاقدت في البداية على مرتب مائتي جنيه في الشهر وبعد شهرين أصبح أربعمائة وبعد شهرين أصبح سبعمائة منها ثلاثمائة تصرف وحدها وليس ضمن كشوف الرواتب.

بعد أيام من حضور حفلة ابنه على ابنة وزير المالية عدت إلـى البيت فأخبرتني أمي أن زائراً جاء وترك لك لفة موجـودة علـى السرير في حجرتي.

لم تكن لفة.. كانت صندوقاً كبيراً.. فتحتـه.. وجـدت مركبـاً كبيراً.. شراعها بارتفاع متر.. خشبها فخم جداً..أظنه من الـزان أو الموجنا.. الصاري عود من الخشب البني المحروق والشراع مـن الساتان الأبيض، طول المركب ليس أقل من متر وربع.. لـه دفـة كبيرة بطول نصف ذراع وسطح عليه كنب صغير وأركان ومبطـن بالساتان يعلوه إطار ذهبي، في الوسط حوض كبير به ورد طبيعـي طازج وفرحان بشبابه.. على الدفة مراكبي يرتدي زي الصيـادين.. قميص أبيض على صديري لامع مخطط أزرق في أبيض وسـروال طويل أسود عريض الحجر وطاقيـة بيضـاء.. أربعـة مراكبيـة يجدفون، وبالقرب من حوض الورد عروسان يجلسان على كرسيين مريحين، وبالقرب عازفان، واحد كمنجة وواحد ناي.. تسللت يـدي تتحسس نعومة الخشب المصقول.. مكتوب علـى المركـب مـن الخارج "بالسلامة يا روحي".

المركب تحفة فنية.. تأملتها طويلاً..لم ألحظ إلا مؤخراً توقيـع شوقي راسخ على مؤخرة المركب.. تحـت الدفـة، "مـع حبـي وأشواقي".. في المقدمة يرفرف علم مصر وعلم كيوبيد.

درت حول المركب الكبير الجميل.. تـأملت بعـض المنـاطق الدقيقة جيدة الصناعة، مثل الأرابيسك الـذي يغطـي كـل سـور المركب.. قلل صغيرة متجاورة في حجم الإصبع فوقها وتحتها عود خشبي بعرض الإصبع معشق بالصدف، ثم لاحظت بخـط رفيـع أسفل الشراع الأبيض كلمتي "افتحي صندوق العروسين".. انتقلـت إلى العروسين، كان إلى جوارهما صندوق صغير في حجم صندوق السجائر الصدف.. فتحته.. كانت فيه سلسلة ذهبية رائعـة وخـاتم ذهبي جميل له فص من زمرد أزرق بالغ الرقة والـذوق.. كيـف حدث أن غنى عبد الحليم أغنيته الجميلة "بحلم بيك أنا بحلـم بيـك

وبأشواقي مستنيك"؟.. **هل تلعب الأقدار معي لعبة تتصور أنها يمكن أن تؤتي ثمارها؟.. دق قلبي وشعرت ببرودة**.. جلست على كرسي بلاستيك بجوار السرير لا أستطيع أن أرفع عيني عن المركب.. هل هو الذي سينقلني من عالم ما تحت السلم إلى عالم العمارات الشاهقة والطائرات؟. المركب له مفعول السحر.. كان يشبه مفتاحاً وضعه شخص واختفى، المفتاح يدعوني إلى مغارة علي بابا.. لمحت تحت المركب علبة مستطيلة، تكاد تصل لطول المركب.. بهدوء شديد وعناية رفعت عنها المركب وفتحتها.. منعت نفسي من الصراخ بسبب وقوع عيني على فستان نبيتي مطرز من أسفله إلى نصف طوله، وصدر شيفون وكتف باف على شكل تعشيقة الخوص، والوسط مكسم والكم واسع حتى الكوع ومن الكوع للرسغ ضيق، وعلى طرف الأكمام فصوص من ياقوت أحمر فاتح لم أستطع إلا أن اصرخ قبل أن أسقط قائلة:

ـ الحقيني يا أم.

سيطر عليَّ إحساس أن الرسالة أو الهدية أخطأت العنوان والمرسل إليه.. ضعت من جديد في التساؤلات والربَّمات.. انتهى عبد الحليم دون أن أحس وجاء بعده منير يغني "سو يا سو.. حبيبي حبسوه"

بقيت لمدة ساعاتٍ مذهولة ومثلي كانت أمي وسامي الذي فحص المركب جزءاً جزءاً وانتهى بحثه إلى أنني لم أكتشف الورقة المثبتة التي كانت داخل صندوق العروسين.. دعوة للعشاء على يخت من الثامنة والنصف إلى الثانية عشرة والنصف من مساء الاثنين بعد غدٍ، سيقلني من أمام السيرك القومي بالعجوزة بجوار نادي وزارة المالية على شاطئ النيل.

في هذا العشاء قدم لي نفسه لا بوصفه رئيساً لمجلس الحي أو رئيس مجلس إدارة الشركة وصاحبها الذي لا أراه من كثرة أسفاره وانشغالاته وإقامته الدائمة في الفنادق وامتلاء رأسه بالصفقات، حاملاً اللاب توب وعدة موبايلات لرعاية مشروعاته وأمواله

ومتابعة معاونيه، قدم نفسه كمعجب وعاشق وراغب في التواصل ودوام الود.

في العشاء الثالث طلب الزواج.. قلت أفكر.. توالت الهدايا.. فتحت عيوني وآذاني في المكتب على آخرها.. ركبت عيوناً وآذاناً إضافية، وعمل عقلي وقلبي معها في تقييم ما أسمع.. كم هائل من المعلومات عجزت عن حصرها ومحاولة السيطرة على منظومة حركتها.

شراء أراض بملايين الأمتار ودفع أثمانها على دفعات بالملاليم وعلى سنوات طويلة.. قروض ضخمة من البنوك اعتماداً على مستندات ملكية وهمية. يقتضي كل ذلك ولائم يومية لرجال ونساء مطلوب تهدئة خواطرهم، وخلع أظافرهم وتقليل حدة أبصارهم وتمرير ما لا يجب أن يمر، وقد حضرت بعضها، بل اكتشفت يوماً أني شاركت في تجارب التليين هذه لثلاث مرات ونصف.. الرابعة حضرت نصفها واعتذرت بحجة المغص عن المواصلة، في هذه المرة كان الاكتشاف مع دعوة واضحة للابتسام والمجاملة.

جدد دعوته للزواج.. لم أجد شخصاً ممن أعرف إلا وافق وتحمس حتى جارتنا "الداية" التي يبعد بيتها عن بيتنا بشارعين دعتني للموافقة ولا أعرف كيف بلغها الخبر أو النية.. كل شيء مكشوف ومعروف.. الناس تعرف كل شيء عنك، وربما أنت آخر من يعلم. حدثني عن شكل شهر العسل الذي سنطوف خلاله العالم من اليابان حتى هوليوود.

منذ وقعت عيناي على المركب الخشبي وشراعه الساتان والفستان وأنا أستشعر أنه سيطلب الزواج.. مع دقات القلب والفرح.. هل يمكن أن تكون هناك أيام أكثر بهجة تحمل إليَّ مفردات جديدة تبعدني على الأقل عن مستنقعات العذاب وتبعث على الرضا عن الدنيا وعن الحياة، وتحرض على التمسك بالإقبال عليها.. ماذا لو كانت الأقدار تحاول أن تقسم عمري إلى قسمين، قسم أول كاد ينتهي وخصصته للمعاناة وشظف العيش والصبر

والحيرة والاقتراب من حافة اليأس، حيث تتساوى الرغبة في الحياة والترحيب بالموت، فما لا يسر لا داع للحرص عليه أو النضال من أجله.. بل لا يساوي حتى المقاومة دفاعاً عنه، والاستعداد لبذل الروح والدم لا يكون إلا من أجل هدف غال وغاية نبيلة أكبر بكثير من حجم الثمن المدفوع، وقسم ثان للهناء والنعيم.

شوقي راسخ في الخامسة والخمسين، من أغنى أغنياء مصر.. متزوج من ست نساء غير ثلاث طلقهن.. لديه ما يقرب من عشر بنات وخمسة صبيان.. ما مكاني في هذه الجمهورية؟. ومن يدعوني للقبول يعرف حجم ما تحمله العربة، لكن الحد الأدنى للحياة في هذه الجمهورية أعلى بكثير من حياة مدير عام أو حتى وكيل وزارة.. أكبر بكثير من تاجر لديه عدة محلات، ودخله أكبر من أجر طبيب يجري العمليات الجراحية كل يوم وعيادته لا تتسع لزبائنها.. كل شيء متوفر والفرصة للغم والنكد محدودة وربما معدومة.

هذا عن المال والإمكانيات، وعن الأتباع، فماذا عن الأخلاق؟أظنه هادئ طويل البال.. عف اللسان، لكن غضبه جاهز يتمثل في إجراءات ولا يعبر عنه سب أو قذف.. قرصته والقبر.. مادامت الأمور على هواه وكما أمر فليضمن الآخر مساحة الأمان التي تجعله غارقاً في نوم هنيء.. السن إذن والحالة الصحية.. الفرق كبير.. ثلاثون عاماً.. هذا الفرق هو الذي يوفر ثلاثين مليوناً من الجنيهات.. هذا الفرق هو الروشتة التي تصرف به الراحة والوفرة والعز.. شكله يبدو في الخمسين، لم يحاول أن يصبغ شعر رأسه الأبيض وحاجباه، الشارب أسود.. لا أعرف السبب. قال سمير: ربما لأن شعر الرأس والحاجبان أسبق بعشرين عاماً.

يواصل بهدوء دعوته للزواج دون أن يتأثر بما يجري حولنا خاصة مشكلة سمير مع صادق أخيه، كما لم يتأثر بالضجة الإعلامية التي أشارت إليه لمدة شهر بالاسم بوصفه السبب في انهيار عدة عمارات راح ضحيتها عدة مئات من البشر، فهو

صاحب الشركة التي نفذت المباني.. ببساطة شديدة وبعد أن عـــلا كوم المكتوب والهياج قدم عقوداً حررها مع مقاولين مـــن البـــاطن يعترفون فيها بأنهم المسئولون بالكامل عن كل حبة رمـــل وحفنـــة أسمنت ومتر حديد في المباني.. خمس مقاولين، كل منـــهم تولـــى عمارتين مقابل مبلغ مقفول شامل كل المطلوب من حفر الأساســات والقواعد حتى تسليم المفاتيح.

لم يتأثر عندما قام رئيس الإدارة الهندسية في مجلس الحي بتقديم مستندات تدل على أن شوقي راسخ رئيس الحي هـــو الـــذي أمـــر بالترخيص للعمارات المنهارة. اكتفى شوقي بأن أرسل شريط فيديـو لرئيس الإدارة الهندسية يصوره مع مسئول كبـــير فـــي المحافظـــة يعبثان مع عفاف الراقصة المشهورة والجميع عرايا.. وكان قد تـــم خروجه بكفالة بعد توجيه تهمة فتح تراخيص لأصحاب عمـــارات لزيادة أدوارها من خمسة إلى عشرة وانهيارها.. وكـــان معروفـــاً للجميع أن شوقي رئيس الحي يحيل معظم المقاولات إمـــا لشـــركته المسماه باسم ابنه فادي، أو إلى شـــركات يرتبـــط مـــع أصحابـــها بعلاقات تجارية ومالية.

سألني عن هدية الزواج، لم أستطع التفكير فيها أو تصورهـــا.. سيارة فخمة.. شقة في موقع ممتاز كالزمالك أو جـــاردن ســـيتي.. شاليه في شرم الشيخ.. مزرعة صغيرة في الخطاطبة بالقرب مـــن رست الطريق الصحراوي وأسميها مزارع ندى، مثل مزارع دينا.. حاسبي وفوقي من الحلم.. لم يكن مناسباً ولا معقولاً أن أبالغ علـــى هذا النحو، فالعلاقة مهما كانت حديثة العهد، وأنا لست من عائلـــة رجال أعمال لأكون ذات حيثية ويضع مكانتي في الاعتبار فيعمـــل حساباً لأبي وعمي وأخواتي، أغنى واحد فينا لا يملك إلا ملابســـه التي فوق جسده الذي لا يغسله إلا بصابون لا يختلف كثـــيراً عـــن صابون الأواني، ولا يبتعد كثيراً عن الفينيك.

فاجأني بأن هدية زواجي ستكون جزيرة فـــي البحـــر الأحمـــر يشتريها من أجلي، ولم يغير وعده رغم أن الخبر جاءه ونحن معـــاً

جلوس على يخته جنوب الجيزة بحوالي عشـــرين كيلـــو.. رجـــال صادق قبضوا على من سرقوا فيلته الجديدة في التجمـــع الخـــامس، وتحتوي على ما يساوي مليون جنيـــه أجـــهزة وملابـــس جديـــدة ومجوهرات وحشيش وسلاح، وفي ذيـــل الخـــبر أن الـــذي وجـــه وأشرف على التنفيذ سمير.. يعني ـــ حســـب كلامـــه الـــذي قالـــه بطريقة باردة تبعث على شديد الغيظ ـــ يعض اليـــد التـــي امتـــدت إليه.. واستأنف:

ـــ خلينا في موضوعنا.

لم أنطق حرفاً.. وعندما ظهرت معالم المنيب طلبت الاســـتئذان، فاتصل بالسيارة التي خصصها لي كـــي تنتظرنـــي عنـــد القريـــة الفرعونية وقبل كوبري عباس، عند رصيف الأتوبيس النهري أمـــام قسم الشرطة.

رجعت كل المسروقات على داير الفائلة والقرش بنوعيه. ولـــم يرجع سمير.

عندما عدت إلى البيت كانت أمي تبكي وأبي يدخـــن والغضـــب ملء الشقة ممثلاً في النظرات والملامح والدخان والأنفاس الحـــارة والتنهدات وبعض الفوضى. قال أبي: جاء رجال صادق وصرخـــوا في وجوهنا وسبونا وقلبوا البيت بحثاً عن سمير وعما سرقه منهم.. لم يتركوا شيئاً في مكانه.. أحس الجيران وجـــاءوا بعـــد مغـــادرة الفتوات فساعدونا على ترتيب بعض الكراسي والمراتب. أمك لـــم تتوقف عن البكاء.. لماذا تأخرت؟.. أظن لا داع للعمل عند هـــؤلاء الناس.

دافعت عن شوقي..لم يكن دفاعي حقيقياً ومـــن قلبـــي، لكننـــي حاولت أن أحدد المتاعب وأحدد المسئول عنـــها، ولا أريـــد فكـــراً طائشاً وظنوناً تنطلق هنا وهنـــاك.. المســـألة فـــي رأيـــي معقـــدة وملتبسة.. وهكذا حال أمثالنا.. عندما تفكر الأقدار في أن تعـــرض عليهم خيراً تعرضه معجوناً بتنازلات، وإذا عرضت شراً يجـــب أن

يقاوم، تلحق به مزايا، وهكذا يتعذر الاختيــار ويصعــب الحســم، فأحلاهما مر، وليس نفس الأمر ما يلقاه الغني.

أين أنتِ يا سمير لتكشف الحقيقة؟.. هروبك إدانة حتى لــو لــم تقترف ذنباً.. ولو كنت قد اقترفت..لماذا الإقدام على فعل أقل مــا يوصف به الحماقة والطيش وقلة الأصل؟ ولا أظنك ممــن ينطبــق عليهم ذلك.. أنت طموح حقاً ومتطلع لكنك على خلق وتربية.. ألــم تفكر فيَّ؟ أي شيطان سوّل لك؟.. أهكذا نحطم بعضنا بعضاً ونحــن نمضي نحو أحلامنا؟! أهكذا تعمى العيون والقلوب حتى نخرب باباً كان يمكن أن يوصل إلى الخير والهناء؟. نبقى عشــرات الســنين ننتظر الفرصة، وعندما تلوح ننقض عليها فنفســدها.. لــم يصــبر الطماع على الإوزة التي كانت تبيض له كل يوم بيضة من ذهــب، فذبحها ليحصل على العنقود الذهبي كله دفعة واحدة.. أنا على ثقــة أن ما أصاب صادق بك هو من فعل الشياطين، وإذا كان لسمير يد، فهي يد الأصدقاء الملاعين الذين ينتسب إليهم ولا يفتأ يلقاهم حتــى بعد أن وجد بغيته عند صادق فاشتغل واشتغلت.. وأصبح بالإمكــان أن يحلق الأمل مع الأيام المقبلة، وأن نفكر فــي المســتقبل بشــكل أفضل. آه.. أسرعت إلى كلمات الأبنودي:

عدى النهار.. والمغربية جاية   تتخفى ورا ضهر الشجر
وعشان نتوه في السكة   شيلنا من لياليها القمر

(في الأصل "شالت من ليالينا" وأنا قلت: شيلنا).

ما شعوري الآن وزملائي في مكتب شوقي يتطلعــون إلــيَّ أو يسترقون النظر؟. أخت السارق.. أخت من خان الأمانــة.. عملــها وهرب.. بأي وجه تبقى؟. ربما احتفاظاً بالديك الرومــــي.. كيــف تترك الفتة الكبيرة التي يستعد شوقي بك لبسطها أمامها؟.

لن أذهب إلى العمل حتى يظهر سمير ويبرئ ساحته وســـاحتنا جميعاً وأبقى بين الكل مرفوعة الرأس، لن ينفعني أن أكسب العــالم وأخسر نفسي.

في المساء وبينما أبي يصلي العشاء سقطت عليـــه ورقـــة مـــن النافذة تحملها حصاة. فتحها وقرأ فيها بخط سمير:

ـــ اطمئنوا أنا في أمان.. أتغيب عدة أيام وأعود.. لا علاقة لـــي بما حدث لصادق بك..من سرقوه أعدائي.. نســبوها إلـــيّ لينقـــذوا أنفسهم ويورطوني.. صدقوني.

هكذا..،.. أمطرت السماء رخات بسيطة على الرياح المحملـــة بالرمال والغبار..فصفا الجو قليلاً، وسادت حالة من الرضا وخـــف القلق.. لكن المشكلة ظلت كما هي ثقيلة وصادمة ولا تبدو في الأفق بادرة أمل لحلها.. مادام غائباً ومطارداً تظل المشكلة قائمة، وتـزداد الظروف صعوبة، فقد أقسم صادق أن يلقى عقابه علـــى يديـــه.. لا على يد الشرطة.

فكرت في إبلاغ البوليس لكي يحميه.. فكيف يحميه؟ وماذا أقول لهم؟. إذن عليَّ أن أقدم الورقة لصادق وشوقي حتى يثقوا بأن سمير لا علاقة له.. فهل سيصدقان ما ورد بها؟

لن أذهب إلى العمل حتى يظهر سمير.. مرت أيام وأيام دون أن يظهر.. علمت أن ياسر شقيق رءوف اختفى هـــو الآخـــر.. فـــهل يجمعهما جامع وهل مصيراهما نفس النفق؟.

(٢٢)

سالت دموعها وهي تعانقني، لم أرها تبكي أبداً.. تشبهني قليــلاً خاصة من هذه الناحية. متماسكة وقوية. بقيت في أحضاني متشـبثة بصدري وذراعاها تلتفان حول ظهري، وأنا أربت على ظـــهرها، تبكي وينتفض جسمها من شوق عـــارم.. شـــرعت تدريجيـــاً فـــي الإحساس بأنها صادقة، وأنها ليست مجرد مقابلة حـــارة وترحيـــب بأخيها الذي لم تره، ربما من سنوات، وتلتقط أخباره مـــن ياســـر.. اكتشفت أني شخص سيئ.. جلست على الأنتريه العجـــوز المخلـــع الذي شهد شقاوتنا صغاراً، وجرينا وراء بعضنا فوقـــه.. أســـرعت تضع خلف ظهري مسنداً وتحتي شلتة.

قالت: ياسر الله يكرمه دفع عربون لشرارة نجار الموبيليا لعمـــل أنتريه جديد.. نتسلمه بعد شهر.

كان الأنتريه مغطى بفرش كريتون مشجر، يبـــدو أن الفـــرش الأصلي تمزق.. مؤكد أولادها قاموا بالمهمة خـــير قيـــام.. نفســـي أشوفهم.

ــ أين الأولاد؟

ــ مجدي في المطبخ، وسالم يلعب علـــى الســـطح مـــع أولاد الجيران.. والعفريت الصغير حسني نائم.. يسهر حتى الصبـــاح.. ليس كالأطفال.

ــ الفولت عنده عالٍ.

ــ كلهم.

ــ طالعين لك أم لجمال الله يرحمه؟

ضحكت: لا.. لكم أنتم.

هبت تفتح الستائر المطلة على منور صغـــير مخنـــوق، لكنـــه بحري. هبت نسائم رقيقة.. غيرت الإحســـاس بالمكـــان. ارتـــدت

ففتحت شيش النافذة المطلة على الحارة فتحـــة صغـــيرة وشـــبكت شنكله.. تطلعت إلى الحيطان ورأيت صورنا.. توقفت عند صـــورة أمي وأبي.. نادت لابنها.. أخرجتني من رحلتي مع الصور:

ــ ماذا يفعل مجدي في المطبخ؟

ــ يغسل المواعين.

ــ مجدي الطفل الصغير يغسل المواعين يا نوال؟

ــ مجدي عنده خمس سنوات.

ــ يلعب ولا يدخل المطبخ.. البنات حتى العشـــرين أحيانـــاً لا يدخلنه.

ــ لابد أن يتعلم ويعيش الحياة ويتحمل المسئولية.

أطل مجدي من باب المطبخ.. وحدق فيَّ.. فرحت جداً برؤيتـــه وقلبي رقص.. غمرني إحساس برغبتي في احتضانه.. لم يتحمـــس للقدوم نحوي.

ــ خالك يا حبيبي.. تعال سلم عليه.

تقدم الولد ببطء وهو يحاول التعرف عليَّ.. حزنت جداً وعـــلتبت نفسي.

ــ خالك رءوف.

أخيراً أسرع نحوي وعانقني بيديه المبتلتين المنتفختين بالمـــاء.. قبلته طويلاً.. وقبلت كفيه البيضاوين.. المجنونة ترغم هـــذا الولـــد الصغير على غسيل أواني الطعام.. تأملته وبحثت عن ملامحنا فـــي وجهه.. سألته:

ــ هل تغسل الأطباق؟

ــ نعم.

ــ لماذا لم تقل لماما.. لا.. لن أغسلها.

ضحكت نوال: جئت لتفسد الولد؟

قال مجدي: أنا أحب أغسلها.

وجدت نفسي أعانقه فرحاً وأقول: شاطر يا مجدي.

ــ والمدرسة؟

قال بطريقة نطقه الجميلة:

ــ لئه.. الثنة الجاية إن شاء الله.

ــ "إن شاء الله".. الله.. لم يقلها أحد في عائلتنا كلها.

قدمت له الجيتار الصغير الذي اشتريته وبعض كتب الأطفال التي تناسب عمره وتعتمد على الصور.. حملت نوال التورتة إلى الثلاجة.

البيت نظيف والستائر جديدة، وعلى الأرض سجادة جديدة خضراء في أركانها ورود صفراء وبنية. تخلصوا من الكليم القديم البني في أسود. وطلاء الجدران أيضاً يبدو حديثاً.

ــ وعدني ياسر أنه سيكون موجوداً وقال سيكلم سيد.

ــ سيد اعتذر بسبب امتحانات نصف السنة.

ــ وياسر؟

ــ خرج من بدري وقال ذاهب إلى المنيا يزور الفرع ويعود بعد العصر.. أهلاً وسهلاً.. لن يتأخر.. ياه يا رءوف.. وأنت كيف حالك؟

ــ سيبك مني، كلمني عنك وعن خطيبتك وعن أحوالك.. دائماً يقول ياسر.. اعذريه مشغول بالرسالة.. أي رسالة هذه التي تأخذك منا؟

ــ لا الرسالة ولا غيرها يبعدني عنكم.

ــ قلبك يا رءوف..لا تؤاخذني جامد قليلاً.. أنت عارف أنك بالنسبة لنا حاجة مختلفة.. اقعد مع خالك يا مجدي وكلمه.

قاومت ودخلت حجرة نوم أبي.. يبدو أنها تنام فيها هي وأولادها.. شملتني حالة لذيذة من الراحة.. الجدران تختلف عن كل الجدران.. السقف كأن له عيوناً تنظر وتربت على الضيف..أو الابن الغائب.. حضر الآن كل الراحلين.. أنفاسهم حولي.. فككت رباط الحذاء وخلعت الشراب.. خلعت الجاكت.. وضعته إلى جواري ودفعت الحذاء بالشراب تحت كرسي الأنتريه.

لم تكف نظراتي عن الدوران.. حتى أنفي كان يعمل.. الرائحة القديمة تعود.. الجو الهادئ الجميل.. الونس والراحة النفسية.. كل الأشياء قديمة لكن عبقها فواح ومؤثر ويسري في الأعماق ويخدر الأعصاب.

تمشت بداخلي رغبة أن أبقى هنا.. لولا أن المكان لا يتسع.. حجرتان.. واحدة لياسر وواحدة لنوال.. والصالة بها الأنتريه ومنضدة صغيرة حولها ستة كراس.. كان مكانها طبلية.. سنتناول الغداء على الطبلية إذا كانت لا تزال موجودة. لمحت في الركن ماكينة خياطة.

انسحب مجدي بسرعة من تحت ذراعي وغاب في الحجرة لحظة ثم عاد يحمل كراسات.. بسطها أمامي:

ـ شوف يا خالي رسمي.

ـ الله.

مضيت أقلبها.. سعيداً.. الولد موهوب جداً ويده قابضة على الألوان بشكل جيد.. واضح من حركة الخطوط.. أما خياله فرائع، غريبة.. لم يذهب إلى المدرسة بعد، وأمه غير مؤهلة بما يكفي لتدريبه وتوجيهه، وبالطبع مشغولة.. كيف رسم الفيل الضخم برأس صغير، والكلب يجر سلماً ثم يضعه على ظهر الفيل ويصعد.. ليس مجرد رسم.. إنه يتضمن قصصاً أو مواقف.. القط يعثر على علبة فيها طعام تحت المنضدة.. يظل يحاول سحبها إلى أن يفلح.. فيجد فيها فأراً ساكناً ومنتظراً أن يأكله.. يفرح القط.. يجلس وقد هدأت أعصابه في الرسمة الثالثة.. فقد ضمن طعاماً هنيئاً ومهذباً.. وفي الرابعة رسم مجدي الفأر كبيراً وقد خرج من بطنه زمبرك.. الرسوم مشوشة قليلاً، لكنها أكبر بكثير من سنه.

احتضنت مجدي وسألته عمن ساعده،قال: لا أحد.

ـ إذن أنت نقلت هذه الرسوم من كتب أو مجلات.

ـ ليس عندي كتب أو مجلات.

ـ غريبة.

فكرت لحظة وسألته عن أصحابه فقال إنه لا يلعب معهم.. هو يحب البيت ومساعدة ماما ومشاهدة برامج الأطفال في التليفزيون وعنده صندوق به بعض الألعاب القديمة العاطلة.

ـ حاثث أن إيدي تريد دائماً أن ترثم.. أنا أثاثاً لا أحب شيئاً في الدنيا إلا الرثم.. تثور يا خالي.. ثاعات أثحى من عز النوم وأكون حلمت بالثمك يطلع الثما وينزل البحر.. يخرج من البحر ويطلع الثما والتماثيح تجري وراه.. أثحى طوالي.. وافتح الكراثة وأبدأ على طول في الرثم.. بث الرثم عايث ورق وألوان أثاثا.

احتضنته من جديد.. أحثثت بسعادة غريبة وكأن بوابة كبيرة انفتحت قدامي على بثتان..كله شجر وزهور.. احتضنت مجدي وقررت أن أرعاه دائماً ولا أتخلى عنه أبداً.كانت هذه النية قد أشبعتني، فلم أقل شيئاً لنوال.

حملت إليَّ قلة ماء.. عليها غطاء نحاسي كالطرطور.. الغطاء يلمع والقلة كالأنثى الخارجة من الحمام دون أن تجفف ماءها..القلة لونها كريم وعنقها طويل. أسفله حلقتان ثم البطن الكبير المستدير بحذق.. كانت القلة فيما يبدو في موضعها المعتاد، على صينية مع زميلاتها على سور بلكونة لا تتسع إلا لفرد واحد تطل على المنور وتسقط عليها نسمات بحرية ناعمة.. ترقرق الماء في حلقي.. حاولت ألا أتعجل..كنت بكل أعصابي أتذوق الماء.. والماء يتراقص وهو يمر بمجراه من البطن عابراً ثقوب بداية العنق متجهاً إلى فمي.. طعم الماورد يوقظ طفولتي..ارفع العنق قليلاً حتى يطامن الماء من اندفاعه.. أود أن أشرب كثيراً من هذا الماء الصافي.. يسري في حلقي رطباً ولذيذاً وخفيفاً.

جاءت نوال بصينية الشاي.. فوق الكوبين عناقيد النعناع الأخضر الطازج.. دخان الشاي الساخن يحمل إليَّ رائحة النعناع الجميلة.. نوال تتحرك بسلاسة وفرح وصمت..بدت متمرسة بالخدمة والنظام..عانقت مجدي بذراعي اليسرى.. سألني عن عملي وهل سأكون دكتوراً.. ولماذا لم أكن ضابطاً؟.

أوضحت له أنني لست دكتوراً أي طبيباً، ولكني مدرس.. سألني عن شعر ذراعي، وسألني عن حذائي الكبير.. وعن بات مان وعن أقوى شخص في الدنيا.. وقال إنه يذهب أحياناً إلى قصر سوزان مبارك القريب ليسمع الحكايات التي تحكيها المس الثمينة عدلات.

عادت نوال وقد غيرت ثوبها البيتي وارتدت جلباباً واسعاً يبدو جديداً.. لونه أخضر زرعي وعلى جانبيه صفان من الورود الحمراء والصفراء وفي الوسط بعض العصافير تلتف في دائرة.. تحتها ذئب يتطلع إليها مرفوع الأماميتين، لا يعرف كيف يلتقط إحداها.قالت: هيا لتغير ملابسك يا رءوف.. الغيار على سرير ياسر.

قمت فلبست بيجامة لبني مقلمة بالأزرق.. خطوط رفيعة.. كانت من القطن.. أحسست معها براحة غير عادية، افتقدتها من زمن.. في أحيان كثيرة كنت أشعر في ملابسي بالاختناق، وبعضها أحس أن به شوكاً.. وبعضها يجعلني أتصبب عرقاً في الشتاء، وتحتفظ الملابس بالعرق وتلتصق بملابسي، وأشعر أنها تحولت إلى ألواح من الصفيح.. أحاول التخلص منها في أقرب فرصة، ولا أتمنى ساعتها إلا القفز في حمام سباحة ولا أخرج منه إلا بعد ساعات لأتخلص من ملامسة الأقمشة المعدنية لجسدي.

البيجامة القطنية الرقيقة جعلتني أحس أني أستحم، وأني مستمتع بالغمر في بانيو مملوء بالماء والصابون المعطر.. توالى على هبوب عبق الأشياء البسيطة، وارتحالي في الزمان عائداً إلى الصبا الناعم حيث الرضا والشقاوة والحرية.

فرشت نوال أمامي على الأرض أدوات المحشي ولوازمه. الكوسة والباذنجان والفلفل الأخضر وورق العنب، وكذلك الملوخية الخضراء. بدأت في تقوير الكوسة والباذنجان.. يدها تعمل بمهارة مدهشة.. أين تعلمت هذا ومتى، ومن أين لها الصبر عليه؟.

سألتها وكانت الإجابة مفاجئة.. قالت بكل هدوء وتسامح:

ـ حماتي الله يسامحها هي التي علمتني.. كلمة حق لابد أن تقال رغم أنها "ولية" شر.

ـ وأمك.. ألم تعلمك شيئاً؟

ـ أمي أرادت كثيراً وأنا رفضت..ألحت وقاومت.

ـ أم جمال لم تكن حسب كلامك مريحة لك.

ـ هذه مسألة أخرى.. لما قضيت معها أكثر من ثلاث سنوات.. كان لابد أن أطبخ يوماً وإلا سمعت ما أكره، وتكفي النظرات التي تسم البدن.

بدت لي أختي أجمل من ذي قبل..أجمل كثيراً.. غير متوترة.. تعمل بمهارة.. تتحدث برصانة. نظيفة.. تبدو متحملة للمسئولية.. كانت تتكلم وكنت أستمع بأذن وأتعجب بالأخرى.

ـ أم جمال خبرة وفقر..ماهرة جداً في تدبير أمور البيت..دماغها صاحية جداً.. تسمع دبة النملة.. تجيد التحكم في البيت وكل أفراده.. الكل يستيقظ مع شروق الشمس.. عمل وترتيب.. كان معنا توفيق شقيق جمال الأصغر وزوجته.. بقيا عامين.

ـ أظن أن هذا هو السبب.. المنافسة.

ـ تمام.. غلبني الإحساس ألا أسمح لأحد بالتفوق عليَّ.. زوجة توفيق كانت تعرف أكثر مني.. لكني لم أكن أنام حتى تفوقت عليها باعتراف أم جمال، ثم جرى ما جرى.

نوال أمامي "تقور" في الكوسة..تخرج منها قلبها وكل أحشائها حتى تصبح مجرد أنبوبة شفافة وكذلك الباذنجانة دون أن تقطع واحدة أو حتى تشرمها شرماً صغيراً، مع أنها فيما أذكر كانت تفسد نصف الباذنجان.

أشعر براحة غريبة.. جسمي فرحان بالبيجامة.. شربت من القلة مرة بعد مرة..ثم تحمست ونزلت إلى الأرض لأقطف الملوخية.. مضت ترص ورق العنب.. ورقة فوق ورقة في عنق الورقة الأولى، تمهيداً لتسقط ورقاته المترابطة في ماء السلق.

واصلت نوال الحديث، وقد لاحظت دون اتفاق أو نية أنـــي لـــم أسمح لأي شيء يخصني أن يفسد الجلسة.. لا حديث عـــن رســـالة ولا ســـكن ولا جـــارتي وزوجـــها ولا نـــــدى ولا المدرســـــة وأحوالها..دفعت كل هذه الأمور بعيداً عازماً على ألا أدع الفرصـــة لنوال كي تثقب أي بالونة من بالوناتي المنفوخة بالالتباس والتوتـــر والأسئلة.

جلس مجدي إلى جواري يقطف الملوخية، ويلتقط كل ما علـــى العود من أوراق، إلى أن ظهر حسني يدعك في عينيـــه.. عمـــره تقريباً سنة وشهور قليلة.. هبت نحوه نوال.. حملته إلـــى الحمـــام وعادت به مغسولا وجهه ومسرحاً شعره الخفيف الناعم ومرتديـــاً بيجامة بمبية جميلة.. قدمته إليَّ وقدمتني إليه.

ــ هيا يا حسني سلم على خالك؟

وضع إصبعه في فمه.. دعته أن يسلم ويتخلـــى عـــن خجلـــه.. كانت عيناه تحدقان فيَّ وتزناني.. لم أصدق خجله المزعوم.. مددت له يدي فمد يده وسلم، حملته عنها وقذفته إلى أعلى.. ابتســـم ولـــم يشعر بالخوف.. تأكد لي أنه مجرم.. كـــررت التجربـــة فضحـــك وضحك ثم قهقه، ولما أنزلته طلب أن يصعد من جديـــد.. رفعتـــه وقذفته عالياً وجعلته يلامس السقف فاضطرب لحظـــة ثـــم أنزلتـــه فطلب أن يعود إلى ركوب هذه المرجيحة الجميلة حيث ترفعه إلـــى أعلى وينظر باسماً إلى أمه التي لا تفارق عيناها وجهه، ومع ذلـــك فيداها تعملان بحماس في حشو الكوسة والباذنجان.

عاد سالم ذو الثلاث سنوات، لا تكاد أمـــه تعرفـــه مـــن فـــرط القذارة.. فتح له مجدي الباب، صرخت نوال عندما رأته وأســـرعت إليه،فخطفته خطفاً إلى الحمام، وأعادته إليَّ جديداً وجميلاً.

شعور غريب سيطر عليَّ، أنا نفسي دهشت له.. اكتشفت أنـــي قابض على الأولاد الثلاثة، مجدي إلى يميني وسالم إلـــى يســـاري وحسني على رجلي ولا أكاد أوافق على أن يذهب أحـــد إلـــى أي مكان.. أقبلهم كل دقيقة وأقبل أياديهم وأصابع أقدامهم.

أخيراً قامت نوال وانتهت الفرشة.. الملوخيـــة المغســولة فـــي الغربال مطروحة تحت أشعة الشمس ولفح الهواء تجف.. وضعــت نوال الغربال على أحبال نشر الغسيل.. ووضعت حلة المحشي على النار.. لم أنم طيلة الليلة الفائتة.. تنغلق جفوني رغماً عني.. قبضت على نفسي متلبساً بالنوم أحياناً وأنا بين الأولاد الصـــامتين الذيــن يلتفون حول الخال.

سحبت مسنداً ونمت على سجادة قصيرة تحت النافذة البحريـــة.. مست بدني نسمات ناعمة.. سرعان ما غفلت عما حولي.

أيقظتني نوال بعد نحو ساعة.. أفقت وتنبهت أذناي على صــوت طشطشة السمن في طاسة تحمير اللحم.. سألت عن ياسر.. قـــالت: لم يحضر بعد.. لا داعي لانتظاره.. أكلنا على الطبلية طعاماً لذيــذاً وشهياً لم آكله منذ سنوات.. دهشت لأنه بالضبط كطعام أمي.. كيف يكون كطعامها وهي، لم تتدرب على يديها. الأولاد من حولي، سعيد بهم وسعداء.. مر وقت طويل ولم يأت ياسر.. ولم يأت سيد الـــذي تصورت دائماً وفي كل لحظة أنه سيفاجئنا بالحضور رغم مشاغله.

أعدت نوال الشاي وجلست تحدثني عن الجـــيران واحـــداً بعـــد واحد.. قصص كثيرة وأحداث غريبة، وظروف صعبـــة ومواقـــف مضحكة.. لم تكف عن الكلام ولا عن تقديم المشروبات والفاكهـــة وأنا في شوق لأرى ياسر.. أذنـــت العشـــاء.. قـــررت ألا أغـــادر الشقة.. خرجت فاشتريت اللب والسوداني، وعـــدت.. بقيـــت مـــع الأولاد.. أشعر بوهج الحنين وعبق المكان يطالعني ويغزو روحـــي ويستبقيني.. بقيت ولم أكن أعلم أني سأبقى في البيت منذ تلك الليلـــة ولسنوات طويلة بعد ذلك.

مسكين سامي.. ظهرت نتيجة الثانويـــة العامـــة، وأكرمنـــا الله بنجاحه بمجموع لم نسمع عنه في العائلة ولا عند الجيران أو فـــي الحي كله.. ٩٦%.. بكينا جميعاً حتى بابا. وقبلناه كلنا عدة مـــرات ومسحنا دموعنا في ملابسه. وعدنا نقبله ونعانقه.. وكل من ســـمع جاء للتهنئة.. مشاعر جميلة ومودة صادقة.. كل الناس تحبنا ونحـن نحبهم.. أبي قال إنه ذاهب ليكلف مرتضى بإحضار صندوق ببس.. قالت أمي: هات صندوقين.

قبل أن تمسك يده الأكرة ليخرج.. طرقات على الباب.. وصلـت الصناديق وزجاجات الشربات وعلب الشيكولاتة.. ومعها زغـــاريد عالية ومتصلة.. الفرح جميل.. تواصلت دموعنا ليس فقط من أجـل نجاح سامي ولكن لغياب سمير.. الجيران حولنا يهللون ويباركون.

يستطيع سامي أن يدخل الطب أو الصيدلـــة أو حتـــى الهندســـة حسب رغبته.. المجموع الكبير يفتح السكة أمام الأســـرة وابنـــها.. لكن الكليات الكبيرة تحتاج إلى مصروفات.. ساعتها نخلقها وربنـــا كريم.. فاتح الأبواب وجلاب الرزق. استر يا رب وأعد لنا الغائب.

قام أبي ليصلي ركعتي شكر لله.. طال غيابه فتوقعت أن يزيدهـا إلى ركعات. أمي دخلت حجرتها ولم تخرج.. جلست مـــع ســـامي أسأله عن زملائه الذين أعرفهم بالاسم والشكل.. لم يحصـــل أحـد منهم على مجموع يماثله.. أفضلهم حصل على ٩٢% واثنان منـــهم لم يوفقا.. استأذن للخروج.. رن الموبايل الذي أهدانيه شوقي.. كان هو المتحدث.. طلبني كثيراً يدعوني للعودة أو اللقاء للتفاهم محتجـاً على تركه هكذا منتظراً.. قال مجدداً بصوت رقيق:

ـــ لم أتعود أن أكون في هذه الحالة.

ـــ أي حالة؟

ـ الرقص على السلم.
ـ ماذا تريد؟
ـ نتفاهم.
ـ طريقك غير طريقي.
ـ لا تقولي هذا الكلام.
ـ صدقني يا شوقي بك.
ـ شوقي بك!
ـ وضعك غير وضعي.
ـ تغيرت بسرعة.
ـ ..
ـ ماذا جرى مني؟
ـ لن يتحقق التفاهم.. نحن مختلفان.
ـ هذه أوهام في رأسك وحدك.
ـ أنت لا تريد أن تفهم.
ـ أنا لا أفهم؟
ـ متأسفة.. أقصد أن حضرتك لا تفكر في المسألة بعمق.. أنت أعجبت بواحدة تريد أن تتزوجها.. أنت الذي قررت ذلك.. وهذا يتم في كل شيء إلا الزواج.. ألم تسمع عن شيء اسمه القبول؟.. الزواج أولاً إيجاب وقبول.
ـ سمعت.. وأنا من ناحيتي عندي قبول.. المهم أنت.
ـ عظيم.. هذا هو السؤال.
ـ أجيبيني إذن وأريحيني.
ـ ..
ـ ردي يا ندى.. ردي عليَّ وردي لي روحي.
ـ يا شوقي بك..
ـ تاني.
ـ يا شوقي بك..
ـ أريد يا ندى منك إجابة على سؤال محدد.

ـ تفضل.
ـ أتوافقين علي الزواج بي أم لا؟
ـ أنت شخصياً لا اعتراض عليك.
ـ عظيم.. ما المشكلة إذن؟
ـ حياتك غير حياتي.. أهلك غير أهلي.. عالمك غير عـالمي.. طريقك كله غير طريقي.
ـ أنا لا أعترف بهذا كله.. الحب أقـوى مـن كـل العوائـق والاختلافات.
ـ ..
ـ لن يصلح التليفون لحديثنا.. أنا في انتظـارك فـي السـاعة السادسة مساء في جناحي في شبرد.
ـ أنا غير مهيأة نفسياً.. بعد يومين نتكلم ونتفق.
ـ لن أصبر يومين.
ـ أرجوك.. أعصابي غير.. غير..
ـ سيكون الجو مهيأ جداً لراحة أعصابك.. عودي نفسك تغيري الحالة والمكان والناس.. سيبي الحلوين وتعالي للوحشين أمثـالي.. هذا وحده الكفيل بتغيير الجو والمشاعر.. ندى استمتعي يـا حبيبـة قلبي بشبابك.. ربنا بعثني إليك مخصوص من أجل سعادتك.. فـلا تضيعيني وتضيعيها.
ـ أفكر.. لكن ليس اليوم أبداً.. أبداً.
ـ فكري إذن وتأكدي أن أي مشكلة حتى لو كانت بحجم الكـون لن تمنعني عنك..
ـ ..
ـ تحبي أرسل لك حنفي السائق في الموعد؟
ـ أعدك أن نتكلم بعد يومين.
ـ لا أريد الكلام.. أريد اللقاء.
ـ ماشي.
ـ سلام يا أجمل جوهرة في حياتي.

أغلقت التليفون في حالة من الضجر.. رن مرة أخرى.. صوت عبد الحليم يغني: خلاص لقيته وعرفت بيته واتلم شمل القلب عليه.. حبيب حياتي".. هممت بإغلاق التليفون لكني تمهلت قليلاً ووضعته على كتف الكرسي.. ثم أغلقته.. رن من جديد واستمعت إلى أم كلثوم: "ولما أشوف حد يحبك.. يحلى لي أجيب سيرتك وياه..".. أغلقته.. رن من جديد واستمعت إلى: "طول عمري بخاف م الحب.. وسيرة الحب.." تركت هذه الأغنية بالذات حتى النهاية واستمتعت بها وصاحبتها بالغناء، حتى تحولت بها من حالة إلى حالة.. تراجعت غيوم التعاسة وأضاءت الروح بحلو الكلام والأنغام وجمال صوت أم كلثوم.. في لحظات معينة اكتشفت أن الأغاني أهم كثيراً مما نتصور.

وضعت شوقي على المنضدة الصغيرة أمامي ومضيت أفكر فيه وفي موقفي منه.. ما الذي يمكن أن ينتهي إليه هذا الموقف؟.. واضح إنه متمسك بي وصادق جداً في طلب الزواج،ولا شك أن الهناء على يديه.. الهناء المادي على الأقل.. سأتمكن بإمكانياته من توفير بعض المتطلبات لأهلي وقد يؤدي ذلك لاستعادة سمير وانتهاء فترة اختفائه ومساعدته على بدء حياته بدعم من شوقي.. لكنه كبير في السن والأهم أني لا أميل إليه.. الجسد مشكلته سهلة.. المهم الروح..صعب أن ترغم فتاة نفسها على قبول رجل لا تحبه ولا تشعر بالحد الأدنى من الميل إليه.. أنا لا أعترف بأن المال يمكن أن يذلل كل العقبات ويهدم كل الحواجز.. الروح بحاجة إلى الحب والحنان.

في الأيام التي التقيته كان كريماً ومهذباً وودوداً.. هل يكون زواجه من أخريات هو العقبة الحقيقية؟..لا أرتاح لفكرة دعوته للتخلص من ستة.. لكن زواجه بهن جريمة تبعث على القلق.. القلق الدائم.. وتحتاج في كل يوم إلى محاولة لفض الاشتباك.. المرأة عادة لا تحب الشريك.. أمر غير مريح بالمرة أن يكون هناك أخريات.. لماذا أشعر أن هذا الوضع يشبه حالة امرأة تستحم أمام

الناس، أو فوق زورق حتى لو كان في وسط البحر وبعيداً عن العيون؟ المرأة تحب الخصوصية وزوجها مثل دولاب ملابسها وصندوق ماكياجها وزينتها.. تستثار جدا لو اكتشفت من يعبث فيه ويفتش.. الزوجات الأخريات لهن حقوق عليه ولا أستطيع سؤاله عن أي شيء.

هل رجال الأعمال يعرفون الحب؟.. أشك في ذلك.. لأن حركة المال والأعمال والصفقات والمتابعة واليقظة الدائمة والرغبة المحمومة في الزيادة، ومعارك التنافس وكثرة العلاقات اللازمة لتنفيذ المشروعات لا تبقي في العقل أو القلب مساحة للحب.. حالة شوقي وأمثاله تخلو تماماً من الحب..وليس الحماس الحالي إلا حماس الطلب والرغبة في الامتلاك، خاصة مع هدف يبدو عصياً بعض الشيء.

حاول تقبيلي في جناحه بشبرد.. الجو كان جميلاً وماء النيل يرقص تحت الأضواء والزوارق الصغيرة تتحرك بنعومة وتهدهد العشاق البسطاء وأنا أتذوق البيرة اللذيذة الباردة التي تدربت عليها معه.. شربتها عدة مرات في اليخت الجميل الفاخر.. ما أروع النزهة فيه ونسيان العالم ومعانقة الطبيعة والموسيقى الفاتنة تصدر عن جهاز ثمين.. فتشعر أنك لا تسمع ولكنك محمول على الأنغام.. والأنغام تهزك برهافة وعذوبة فتتخلل نبضاتها جسدك وتسترخي وترضى وتسلم.

لم أسلم له شيئاً.. أمسك يدي ومس مطالع فخذي، كانت يداه رقيقتان في الحركة، خشنتان في الملمس قليلاً وقويتان.. مر بهما على وجهي ولمس شفتي وأنفي وذقني.. قال كلاماً ناعماً لا اذكره.. جعلني لا أنتبه لشفتيه على خدي وأذني.. عانقني.. امتدح شعري وفستاني الذي طلب أن أرتديه ذلك اليوم.. اخضر شابونيز.. عدة أزرار في الصدر كان بسرعة قد فتحها ولمس ثديي، وشفتاه على وجهي.. وأنا أدفس رأسي في صدره.. كلامه الناعم لم يتوقف ويداه لم يكفا عن لمس مناطق حساسة من جسدي

وأنا أبدو مستسلمة.. لم أكن كذلك تماماً.. كنت شبه نائمة.. غائبة.. مذابة.. وبعد أن هصر ثديي وأكل شفتي داخلني بعض الوعي، فتملصت بخور.. أحاطني بذراعيه أكثر وضمني.. أحسست بأضلاعه تكاد تحطم أضلاعي.. حملني بيسرٍ غريب.. نزل درجات سلم اليخت إلى حجرة فسيحة بها تقريباً كل شيء. سرير صغير وترابيزة وأجهزة الموسيقى وبار صغير.. وسدني برقة على الكنبة الطرية وقبلني، ثم استدار وفتح دولاباً صغيراً.. نهضت في نصف وعي وأسرعت خارجة.. لحق بي على آخر درجة.. نظرت إليه بتحدٍ وتهديد.

تخلت يده عن قدمي.. أخذت نفساً عميقاً من الهواء الجميل والنسيم الرطب.. كان النخيل واقفاً عن بعد يرقبني دون أن يملك وسيلة لعمل شيء، وحمدتِ اللهِ إذ لم يتمكن الوحش مني، وعزمت ألا أقرب وأنا معه مشروباً أبداً..

كانت هذه هي المرة الخامسة أو ربما السادسة التي أفلت بروحي قبل اللحظات الأخيرة المتقنة للضياع.. عين الرب عليَّ دائماً تحميني وتنقذني في آخر اللحظات.. أنا الفتاة صاحبة اللحظات الأخيرة.. كان الجنسي منها ثلاثة.. الأولى في بيت زميلتي في الدراسة وهجوم أخيها بتواطئ معها ومحاولته التهامي دون مقدمات.. كان جميلاً وواثقاً بنفسه أكثر من اللازم ومدمناً.. طلع عليَّ عارياً جاهزاً فروعني.. أيقنت من النهاية التعسة.. كانت شقتهم فوق السطوح، وفجأة اختفى الجميع ولم يكن ينفعني حتى الصراخ.. امتلكت قوة لم أمتلكها يوماً.. قفزت بخفة عجيبة.. لحقني في يسر كأنه طار إليَّ.. قبضت على أول شيء.. كان أكرة الباب.. لحسن الحظ خرجت في يدي.. لم أفكر إلا في ضربه بها.

ياه.. يالروعة هذا الخلاص.. تذكرت أمي.. دخلت إليها حجرة النوم.. كانت تبكي وتمسك بصورة شخص لابد أنه سمير.. اقتربت منها وقلت لها: اطمئني.. سيعود.. لمحت الصورة بنظرة عابرة.. كان خضر.. قعدت إلى جوارها.. خضر.. إنه أخي خضر.. ياه.

انطلقت العائلة بكاملها والجيران والأقارب والأصدقاء وزملائي في العمل وزملاء ياسر وعائلة ابتهال، وأسرة ندى بما فيها والدها الحاج منصور وولده سامي.. للبحث عن ياسر الذي خرج بنية السفر إلى المنيا لزيارة فرع الشركة والعودة مع غروب اليوم الذي فات وابتلعه الزمن من عشرة أيام.

سألنا في شغله، قال المسئولون والزملاء: ذهب إلى المنيا. سألنا الفرع قالوا: لم نره.. علمنا بأنه مكلف من رئاسة الشركة بالقدوم إلى المنيا ونحن في الانتظار.

سألنا المستشفيات.. جميع المستشفيات في القاهرة والمنيا وما بينهما.. بني مزار وبني سويف.. العياط والبدرشين والواسطة والحوامدية.. سألنا أقسام الشرطة في كل تلك المناطق. لا وجود له.. لم يصل.. لم يرد ذكره أو شكله على أي نحو.. كانت له مع كل واحد منا صورة.

اشترك بحماس شديد كريم صبحي وفكري نمنم في البحث..سألنا مباحث أمن الدولة ومديريات الأمن.. ذهبت بنفسي إلى فرع الشركة في المنيا عدة مرات.. أسأل السعاة والبوابين والعمال البسطاء والخفراء إذا كانوا قد رأوا هذا الشاب.. صاحب الصورة. نفى الجميع أن تكون عيونهم قد وقعت عليه في يوم من الأيام.

أقيم بشقة العائلة مع نوال وأولادها..أنام ساعات قليلة وباقي اليوم سؤال وتفكير..أستنجد بالذاكرة كي تشير علي بومضة أو نافذة، وإذا أشارت أسرعت إلى حيث تشير.. ياه.. ما أصعب البحث عن شخص!، وما أسهل أن يختفي شخص في سراديب الحياة والزحام والعشش والبيوت المتراكبة والمدفوسة.. وفي أدغال

النفوس الضعيفة والعمياء!..أين تراه ذهب؟.. ياسر واضح.. مكشوف.

ظللت أدفع الظن السيئ عن رأسي.. بكل قوتي أدفعه وأتجنب التفكير فيه، لأنه لو دخل واستقر فلن يكفيني من أجل ياسر وأصابع قدميه قبله كل عيلة النذل رئيس مجلس الإدارة.

جسمي كله يغلي.. أعصابي كلها تنبض بشدة وتزلزلني.. ليس وراء اختفاء ياسر إلا هذا الرجل وعصابته.. أقاوم شيطاني بكل صلابة، وهو يلح بكل ثقة واطمئنان، يقول: لا تضيع وقتك وتحرق أعصابك في أسئلة وظنون لا طائل من ورائها، أنت تعرف وأنا أعرف وكل الناس مثلنا يعرفون أن ياسر اختطفه كامل أدهم سركيس ليس غيره، إذ لم يتحمل نشر فضائحه.

تماسكت لفترة طويلة حتى التقيت كريم صبحي وفاتحته في الموضوع، قال عندما طلبت لقاءه دهش لأنه كان يود أن يفاتحني في موضوع، وقد انتهينا إلى أنه نفس الموضوع، أكد لي ظنوني.. بل قال إنه قاوم هذا الخاطر طويلاً.

مسحنا حياة ياسر بحثاً عن السياسة وإمكانية تجاوزه الحدود في إبداء آرائه في بعض المنتديات والمحافل، ومن ثم يكون قد تم القبض عليه. لكن صفحة ياسر كانت خالية تماماً من أي تجاوزات، حتى المقالات التي أرسلها للأهرام والتي قد تتضمن شبهة تجاوز اكتفى المسئولون في الجريدة بمنع نشرها.. من المستبعد تماماً أن يكونوا قد أرسلوها إلى أي جهة أمنية، هذا على فرض أن بها ما يستحق الغضب وتقليم الأظافر أو الردع.

الغريب أنني وأنا أفكر في كيفية التعامل مع هذه الشخصية التي حيكت الأساطير عن علاقاتها وسلطاتها وعنفها وأطماعها وأساليبها الوصولية، كنت غير قادر على انتزاع رأسي من مستنقع المعلومات الذي خضت فيه أثناء رحلة البحث عن ياسر في أقسام الشرطة والسجون ومباحث أمن الدولة وغيرها من الهيئات والمؤسسات الشرطية المسئولة عن الأمن في البلد.

عالم أخطبوطي غريب ووقح، ومحروم تماماً من أدنى درجـات الإنسانية.. هيكل ضخم من الإدارات والقيـادات واللوائـح غـير المكتوبة والتي تطبق بآليات غاية في القسوة.. آبار عميقة وكـهوف يختفي فيها عشرات الآلاف من أبناء مصر المعتقلين بسبب قضايـا الرأي، ولا علاقة لهؤلاء بالمجرمين والمتهمين في قضايـا وجنـح وجنايات مدنية كالقتل والرشوة والزنى والسطو والتزوير ومختلـف أشكال المخالفات والجرائم.

هناك أكثر من عشرين ألف معتقل مسجلين لدى أقسام الشـرطة والمباحث بتهم التحريض على الفتنة والإساءة لنظام الحكم ومحاولة قلبه، وازدراء المسئولين والنيل من سلامة الوطن وتـهديد وحـدة الأمة، وهناك مثل هذا العدد غير مسجلين.. اعتقلـوا دون تسـجيل ودون قضية ولا يعرف مكانهم.. وكان الظن أن يكون بينهم ياسـر إذا كانت له تجاوزات في نقد الحكـم وأسـاليبه ورجالـه.. ومـن المعروف أن في مصر ديموقراطية ما لم تمس رئيس الجمهوريـة وعائلته.

وقال لي أحد كبار الضباط: افعل ما تشاء، فبلادنا تسمح بحريـة الرأي.. المهم ألا تذكر الرئيس بشعرة سوء أو بذرة إهانة، ونحـن والحمد لله لم نفعل ولا يجب أن نفعل، ليس لأنه الرئيس لكن لأنـه رجل طيب، وهذا ما يعتقده الكثير من البسطاء، وإن كانوا في عـز سخطهم على الحياة، يقولون كما يقول الرئيس:

— الأزمة دولية.. تعانيها كل الشعوب.

ولما كان هؤلاء البسطاء لم يروا أي شعب آخر، فهم يعتقـدون أن كل الشعوب مثلنا، بل على العكس نحن أحسن بمراحل.. يكفـي أن يشاهدوا العراق وفلسطين وأيضاً الصومال وأثيوبيـا وروانـدا وبروندي وبلاد لا تركب الأفيال ولا تركب أي شيء.. بـل هـي التي..

ألوف من الشباب قبض عليهم لوقوعهم تحـت طائلـة قوانيـن الطوارئ، وشكلت محاكمات وعقدت جلسـات، وحكمـت عليـهم

المحكمة مثلاً بستة أشهر، فلم يخرجوا ومازالوا بالسجون التي تفضلها كثيراً جحور الفئران لمدة تتجاوز ثلاثين ضعف مدة العقوبة التي حددها قانون الطوارئ.

التقيت بمساعدة كريم ببعض المعتقلين الذين بقوا في سجنهم حتى ماتت الآباء والأمهات وضاعت الأخوات، ومنهم من أنجب مباشرة قبل اعتقاله.. أولاده الآن في سن الزاج، لم يتعلموا ولم يجدوا من ينفق عليهم وتشردوا في البلاد وقست عليهم الظروف و"مرمطت" شبابهم وشباب آبائهم.. لماذا هم هناك؟.. إذا سألت هذا السؤال، قيل لك: خطر على الأمن، أو لا نعرف.. لم يطلب أحد خروجهم.. المسئولون مشغولون بما هو أهم.

كيف أتعامل مع كامل سركيس.. اقترح كريم صبحي تقديم بلاغ للنائب العام.. فكرت في الاقتراح.. كان كل اعتراضي الذي لم أكشف عنه، خشيتي، أن يؤثر ذلك على محاولة استخدام العنف على كامل.. أنا على ثقة أن شيئاً لن يفيد إلا العنف، وأنا لن أرحم هذا الكلب إذا كان بالفعل وراء اختفاء ياسر، وتعرضه لأي أذى، على أنني أيضاً أكره الظلم جداً، فلا يتعين أن أسيء إلى سركيس دون أن أكون على ثقة أنه أجرم في حق ياسر..من يحب الحرية يكره الظلم بنفس الدرجة.

أخيراً..وافقت على اقتراح كريم وذهبت للقاء النائب العام المستشار ماهر عبد الواحد. شخصية غاية في الرقة والدقة والنظام.. وطني من طراز رفيع.. أبدى استعداده، وكتب أمامي تأشيرة واضحة ومحددة لمساعديه. خرجت وقد بزغ الأمل في أعماقي واستبشرت خيراً.. لكنني بعد ساعة عدت أفكر في كيفية الهجوم.. أنا لن أعرف ما جرى لياسر وتورط كامل معه إلا من كامل نفسه، ماذا لو هجمت عليه بعدة رجال وحصلت على اعتراف منه، أو قمت بذلك مع أحد مساعديه العارفين.

ضحكت ساخراً من نفسي.. بقيت ساهراً حتى الصباح كأني سأتلقى خبراً من مكتب المستشار النائب العام.. كنت أفكر في كيفية

تحديد مصير ياسـر.. هـذا هـو مفتـاح الطريـق للانتقـام أو التصرف..دون معرفة مكانه أو ما جرى له..الأيدي مكبلة والحركة متوقفة والعقل يضرب في صحـراء الظنـون.. العربـة هبطـت عجلاتها في رمل مبتل.

في اليوم التالي التقيت كريم فطلب تأجيل الهجوم علـى كـامل لحين إجراء مزيد من البحث.

لا تزال الأرض البعيدة والأيام الصدئة تفتح خزائنـــها ليخــرج منها بشر يعالجون أبواب هذه الخزائن الصخرية كما تعالج صغــار الطير قشر البيض بحثاً بالمناقير عن الحياة الجديدة.
الرجال والنساء والأطفال الذين لم تسمح لهم المقادير بمزيد مــن العيش التعس وأنهت علاقتهم بالحياة.. هاهم يصرون على العــودة، لا يبدو على ملامحهم ولا هياكلهم شيء متماسك ومتحفز إلا لمعــة الإرادة في العيون.. في أيدي البعض عصـــى كقــرون الوعــول، وعلى الأرجل والأقدام بقايا من طين أسود ولفحات شــمس معتقــة وأخاديد عميقة صنعتها أزمان من الحفاء.
يمشي كل هؤلاء عل الدود الذي نفضوه عن أجسامهم فأســـرع في إثرهم يتبعهم دون أن تسحقه الأقدام.
الدود بعد الدهس يوشك أن يصبح مجرد صورة أو قطعة مــــن العجين المهروس،لكنه سرعان ما يتلوى وينتفـــخ تدريجيــاً حتــى يستعيد امتلاءه وحيويته ويندفع ليلحق بمن بدأ معهم مأدبة الغنـــاء، هو مؤرق بالشك في أنهم غدوا من الأحياء..الدود يمضي باحثاً عن طعامه الذي تحرك فجأة وغادر موقعه الملائــم، كمــا يفتــش فــم الرضيع ويده الطرية الصغيرة عن ثدي الأم.
زحف عريض محكم يمضي في ثقة نحو أيامنا المعاصرة.. كلما مرت الدقائق، ومرت الحشود بالبلاد زاد ولحقت بـــه الآلاف مــن المصريين الذين تبدو عليهم آثار الخسف وشظف العيش والذلة.
هذه الأجساد حية، وكيف لا تكون كذلك وهي تتحرك؟، وكيـــف لا تكون كذلك وهي تمضي في عزم.. أعزم مع الجماد؟.. أعـــزم مع جسد ميت! أعزم مع بعض العظام؟.. أعزم مع ما اغتالته الأيام وقبرته مئات الســنين؟.. مرفوعــة رءوســـهم يتقدمــون بأجســام

زجاجية.. تسبقهم هذه اللمعة في العيون.. هي لأحيا الأحياء فحسب.. فلماذا هم قادمون؟ ملأى بالثقة والتصميم.. هل ثمة قوى تحركهم وتدفعهم.. كدت أقول انظروا إليهم وحدقوا.. سوف تستثار بالتأكيد دهشتكم..

يمكن أن تروهم، لأنهم تخلصوا من المكان ومن الزمان، ومن الموت ومن الماضي، تخلصوا مما يحول بينهم وبين غاياتهم.. هاهم يتقابلون.. حشود من الصحراء والحقول.. حشود من القرى والمدن.. من الشمال ومن الجنوب.

أما الجديد فهو أني أصبحت أسمع دمدمة تشي بخبط ثقيل ومكتوم.. خافت وبعيد.. وأكاد من بعد البعد أرى كأن ثمة أحذية ضخمة.. كل منها في حجم برج إيفل أو الهرم.. قوافل طويلة من الأحذية العملاقة تسد الأفق وتصل حوافها إلى تخوم نهاية العالم حيث تستعد الشمس لملامستها وهي تدنو من شفق النهارات المودعة.. مشهد مرعب لا أحسب أنه حقيقي وإنما هي إلى الوهم أقرب.. خيالات، إلا أني كلما أنصت وأوقفت عمل كل شيء إلا الإنصات.. بلغتني الدمدمة، وسرعان ما بدت تلك الأحذية التي تزحف بثقة وهدوء.

.. ثمة زحف إذن للبشر، وزحف يتقاطع معه للأحذية التي كان ثمة شك في أنها وهم، وبعد أن سقطت عليها أشعة الشمس واصطدمت بمناطق صقيلة من المعدن في رقبة الحذاء العالية.. انعكست الأشعة بريقاً شق السماء بسرعة خاطفة وعاد إلى بؤرته المعدنية. وتكرر البريق وكأنه حوار بين الشمس والحذاء، وبين الحذاء وسقف العالم.. سيف من البرق يمضي بعرض السماء لا يكاد البصر يدركه.. ماذا يعني كل هذا؟

حتى الروح عاجزة عن أن تدرك أسراراً تتهيأ في بوتقة الوجود بانتظار المخاض.. والمخاض في ردهة غائمة تسبق منطقة انبثاق الصدمة.

من هذا القادم؟.. ملاك من عند ربي.. قال قبل شهر:

ـ إما أن تموت عاجلاً أو آجلاً.
قلت: آجلاً.
قال: إذا صممت على رغبتك أن تموت آجلاً.. إذن سيموت من تحب عاجلاً.
حتى الحيرة في الموت.. قال:
ـ إما أن تموت عاجلاً ولك لدى الناس حظوة وتبجيل أم نؤخرك قليلاً وتموت بمرض عضال،لا ينفعك معه حب أو مال.
مادام حتم هذا الاختيار، قلت: أموت عاجلاً، ويذكرني الناس بما لا يرتبط بالعار. ساد صمت.
وعندما سألت:
ـ لماذا يتعين عليَّ أن أختار بين هذه المصائر التعيسة؟
لم أجد الملاك.. أيقنت أنه لاشك كابوس، وإن كنت أوقن أيضاً أن الموت يأتي حينما يشاء، لا حينما نشاء.. فلأمت، وإن مت فسوف أحيا.. هاهم الأموات قادمون، يبحثون عن قبلة الحياة.
أنبأت نوال بحلمي.. قالت:عليك أن تتخلص منه.
ـ كيف؟
ـ تمحوه كأن لم يكن.
ـ يا بنت الحلال.. كيف؟
ـافعل ما كانت أمي تفعله.
ـ نوال!
ـ ادخل الحمام واحكه لنفسك كأنك تتحدث به لشخص معك.
ـ ولماذا الحمام؟
ـ حيث النجاسة.. احكه هناك تأخذه النجاسة وتعاف الملائكة الاقتراب منه بعد ذلك.

(٢٦)

بدأ منصور الشامي رحلته اليومية للبحث عن ابنه الغائب من أحد عشر يوماً، أطول مدة يبيتها خارج المنزل. لم تصل منه أو عنه أية أخبار بعد القصاصة التي سقطت عليهم من مجهول. شوع

يتحرك منذ يومين بعد أن طال الانتظار وبدأ نمل الشكوك يتضخم ويغزو كل مناطق الجسم والعقل والقلب.. لا يستبعد أن يكون ثمة موقف سافل من عائلة سركيس.. اهتمام شوقي بندى لن يمنع صادق من إيذاء سمير.. رجوع كل المسروقات لن يمنع من إيذاء سمير.. هؤلاء الناس لا يتحملون أن تمتد يد أحد لِما يملكون..ما العلاقة التي تربط سمير بياسر؟.. لماذا اختفيا معاً؟.

زوجة منصور ترميه كالعادة بنظراتها اللائمة، وتلوذ كعادتها بالصمت الحزين الموجع.. وجهها كحبة فول مكمورة.. منقبضة ومعتمة.. على ملامحها مسحة من الأسى والحيرة والسؤال، وبقايا صبر يوشك على النفاد.. تمتمة تتسرب من الشفاه لا تبلغ أحداً إلا الله.. الدمع متأهب دائماً للسقوط.. يتمشى في المآقي وينتظر كلمة أو خاطر أو شعور مختنق بالخسارة.

صلى منصور ركعتي الفجر وركعات سنة وقضى نحو ساعة في الدعاء حتى أشرقت الشمس.. لم يستطع منع نفسه من عتاب ربه على المعاناة والحرمان اللذين أضيف إليهما فقد ولدين كانا يمكن أن يكونا سنداً له ولزوجته وبقية الأولاد.. هاهو في هذه السن الكبيرة ومتاعِب الصدر وخشونة الركبتين، عليه أن يدور في الشوارع بحثاً عن ابنه، ثم طامن من دهشته قائلاً بأنه كان دائماً يبحث عن سمير منذ عرف كيف يمشي.

رجع إلى الوراء عشرين سنة أو أقل.. يقلب صفحات سمير.. فلم يجد أنه بقي في البيت يوماً واحداً بكامله.. كان دائماً في الخارج لا يعرفون إلى أين ذهب ومتى ولماذا ومع مِن ومتى يعود؟.. له في خلقه شئون. لا يذكر منصور أن أسبوعاً واحداً مر دون أن يخرج للبحث عنه.. لقد خلقه الله خصيصاً لهذه المهمة. استغفر ربه مرات ومرات..ثم عاد يفكر في ولده الذي لا ينتمي للأسرة، وإنما للفضاء.. للشوارع والأصدقاء.. للابتعاد والغياب.. لا يدفعه قلبه يوماً نحو أسرته.. يريد دائماً الحصول على الأشياء والإمساك بها والتمتع، والآخرون لا أهمية لهم بالمرة. كانت يده

عندما ولد مقبوضة، وكانت يد أخيه خضر مبسوطة.. خضر كان دائماً هادئاً.. منطوياً.. صامتاً.. يقرأ في دعة ويمشي دون صوت، ولا يكاد يلمس الأرض ويتطلع إلى السماء ولا يلعب.. ولا يسأل عن نوع الطعام، بل ولا يراه ولا ينتقي بين الأطباق.. يمد يده إلى الجبن أو الفول أو البصارة أو الخبيزة.. دون أن ينظر إلى ما تحمله اللقمة، بل لا يكاد يحس بما يأكل، وفي مرة سألته ماذا أكلت على الغداء فلم يتذكر.. سبحان الله.. خضر.. لم يزعجنا مرة.. لم يطلب طلباً من أي نوع.. لم يعترض على شيء.. لم يسألنا عن ملابس العيد.. إذا جاء ووجد باب البيت مغلقاً.. جلس ساكناً أمام الباب لساعات أو تمشى هنا أو هناك، أو ذهب إلى خطوط السكك الحديدية ليشاهد القطارات القادمة من القاهرة متجهة إلى مدن الصعيد أو القطارات القادمة من الصعيد إلى القاهرة والوجه البحري.. قالت أمه إنه كان أحياناً يعود من زيارة السكك الحديدية ويضع رأسه على فخذها، وتلح في سؤاله عما رأى، وأخيراً يحكي لها عن القطارات الفارهة وركابها المغلق عليهم تماماً.. يشربون ويأكلون ويضحكون بملء أفواههم وينامون ويلبسون البدل الفاخرة، والنساء عاريات الأذرع يقزقزون اللب وغيره.. ويحكي لها عن قطارات أخرى مهشمة، هيكلها الداخلي من ألواح الخشب والحديد تظهر في بعض المواضع.. الناس فيها مكدسون.. مهلهلو الملابس.. النوافذ والأبواب مفتوحة.. الركاب يتجمعون في فتحات الأبواب وتكاد القطارات عندما تلتقي أن تسحق هؤلاء المتعلقين بها.. يسقط قلبه في قدميه وينتظر بلهفة انفصال القطارات حتى يطمئن على هؤلاء المحشورين والخارجين الواقفين على عتبات الأبواب، ينخطف قلبه أيضاً كلما رأى ركاب الأسطح الذين يعصف بهم الهواء المندفع بعكس اتجاه القطار.

لم يكن ولداً ككل الأولاد، وما أن اقترب من السابعة عشرة حتى صار يغيب عن البيت، وتدريجياً بدأ يتبرم ويبدي سخطه ولو في النظرات وحركات الأيدي والتنهدات والنوم مفتوح العينين

والقراءة.. قراءة متواصلة في كتب وصحف ومجلات،ثم عكوف في المساجد ولحية وملابس بيضاء وطاقية وأصدقاء مثله، ثم خروج بعد منتصف الليل وعودة بعد الفجر، وغياب أيام ولا إجابة عن أي سؤال غير: يفعل الله ما يشاء.

ثم توالى صوت الحوادث والاغتيالات وانفجار القنابل ومهاجمة الحافلات والقيادات.. وقبلها وبعدها توالت طرقات رجال الشرطة واقتحامهم البيت بالليل والنهار.. حتى فكر منصور في ترك الباب مفتوحاً، أولاً ليوفر على الطارق الانتظار، ويوفر على أهل البيت تعب أحدهم للقيام بفتح الباب، وفي نفس الوقت يحافظ على الباب، فهو ليس حمل ضربتين من أقدام رجال المباحث.

حالة غير طبيعية ولا إنسانية عاشتها الأسرة عدة سنوات فوق سطح حديدي ملتهب.. ومع أن خضر غاب عن البيت تماماً ولم يعد يأتيه تخفيفاً عن والديه وبشاعة هجمات الشرطة وبطشهم بالناس بحثاً عن مرتكبي حوادث الإرهاب، فلم تتوقف زياراتهم، وفي مرة أخذوا ندى وأمها وأبوها ولم يجدوا سامي ولا سمير.. اعتقلوا الثلاثة عدة أيام وتعرض الحاج منصور لصفعات وركلات وكذلك زوجته، وهددوا بهتك عرض ندى وتوسلت إليهم الأم أن يفعلوا بها ما يشاءون ويتركوا ابنتها، وسقط منصور تحت أقدامهم، يقبل أحذيتهم، ولحسن الحظ رآه ضابط كبير كان يمر فغمز بعينه للضابط كي يتركها.. لحظة لا تزيد عن ثانية هبط خلالها الكرم الإلهي والنجدة التي نادراً ما تصل في الموعد، ونفذ هذا الكرم مباشرة إلى قلب الضابط الذي لا يعرف عنه الجميع إلا القسوة.. ما كان أحد في ربوع مختلفة من الوطن يجهل عنف هذا الضابط، وفظاظة ملامحه، وتلك القطعة المشتعلة أبداً من الجمر التي هي قلبه.. فماذا جرى لها عندما سقطت نقطة واحدة صغيرة من كرم الله فطش القلب وغمزت العين بغير المعتاد؟سابها الضابط الأصغر، وعادت ندى لوالديها، وعادت للحياة بعد أن أفلتت من العذاب والعار.

عانق الوالدان الابنة الشابة التي كانت ترتعد بشدة وقلبها يـــدق بجنون والجسم ينتفض.. عانقاها بوله ولهفة.. خبآها تماماً خشية أن تعود إليها أيدي الإرهاب الحكومي والقتل الرسـمي. ثـم انخـرط الجميع في البكاء والاهـــتزاز.. كومــة مــن البـؤس والرعـب والانسحاق.. كومة تفوح منها روائح البشـاعة، وأقسـى مشـاعر القهر.. وظلت هذه الكومة عدة أيام تحـت ضـوء كاشـف شـديد وأصوات انفجارات تدوي فجأة.

حاول الرجل وزوجته طويلاً ودائماً أن يتجنبـا هـذه الذكـرى المقيتة..وحمدا الله على ما حدث فلا يحمد علـى مكـروه سـواه.. اختفى خضر وهدأت العواصف، وعرف الأهل أخيراً طعم النـوم.. ومضت بهم الأيام فوق عربة كارو تضرب عجلاتها الخشبية فـوق أحجار وصخور. وهاهو سمير يواصل مشواره التعس منذ غـاب خضر..أيام خضر كانت الحرب مباشرة وصادمة وعنيفة والتـهديد فيها قاتل.. وأيام سمير أشبه بالحرب البـاردة.. سـرقة، وقلـق، وانتظار.. غياب وبحث وحوار متقطع ورسوب وضياع.. العمـر يمضي بالرجل فوق أشواك اليأس وهو لا يزال يجر حقيبة أحلامـه المحطمة، وبدنه المهدم وأمله الوحيد والأسـاس أن تـتزوج نـدى وتستقر، بعدها فليذهب الجميع إلى حيث يشاؤون، وأهلاً بالنهاية أياً كان شكلها ونوعها..لن نطلب الموت فقد كتبت علينا الحياة.. هكـذا تحدثه نفسه مراراً كلما ذاق المرار وتذكره وحلم بـه ورآه يحـوم حوله ويطالعه في كل الصور والآفاق والمشاهد.

ـــ يا رب.. ما كل هذا الضلال الذي غمرت ولدي فيه.. اهده يا رب وأعده إلينا.. من أجله..لا من أجلنا.. بقاؤه خارج قلوبنا يعنـي ضياعه.

إنها تمتمات الأم الجزعة التي لا يربطها بالحيـاة غـير خيـط رفيع.. قلبها مثقل بالضربات ويوشك على التوقف..يـرى زوجـها ملامحها وهي تدعو الله في صمت، فيدرك حجـم المشـكلة التـي تعانيها والحسرة التي تمزق روحها.. يكـاد يحـس بقلبـها الـذي

تعتصره قبضة حديدية من فرط حزنها على ابنها المبدد في البلاد، وضائع في الزمان وفي الركض وراء المشروعات الوهمية والطموحات الحمقاء.

يعرف أن الولد من صغره متطلع إلى مستويات أفضل.. لا يتذكر متى حدث هذا وكيف؟.. من صغره ثائر ضد العوز والفقر، رافض تماماً للحرمان.. لذلك يسرق.. تمتد يده إلى أي شيء في البيت.. قطعة من القماش يخفيها تحت ملابسه ويبيعها لأول شخص يقابله مهما كان المبلغ تافهاً ويذهب فيشتري علبة سجائر مارلبورو وراحت قطعة القماش الجميلة التي أهدتها لأمه سيدة عادت من الخارج.. خاتم أخيه الذهب الذي تخلى عنه وسلمه لأمه لتتصرف فيه وقد عزم ألا يرتدي الذهب.. يختفي بسهولة ويباع بسهولة وتشترى بدلا منه زجاجتا بيرة يبتلعهما بسهولة في جلسة واحدة.. مرة أخذ سكينة جديدة وحلة لم تستعمل وباكو شاي وحذاء جديداً.. في مرة باع فانلة داخلية ولباس، اشترتهما أمه له.. خدعها قائلاً لها أنه ارتداهما، وبثمنها دخل السينما.

الولد ممدد ــ أراد أم لم يرد ــ فوق سندان الظروف المتواضعة، لكن المطرقة هي التي تستنفره ولا تسمح له بالاستمرار والرضا.. مطرقة ثقيلة تمسك بها يد بلا قلب.. المطرقة هي رؤيته للأصدقاء الذين ينفقون بسخاء مع أنهم من عائلات أكثر تواضعاً.. الأصدقاء يحصلون على المال بوسائل كثيرة لا يحصرها حصر.

البعض لم يعد يشكو الفقر، أو يلعن الظروف، فلديه القدرة على الوصول إلى ما يكفيه وزيادة.. هناك ثقوب كثيرة يمضي عبرها إلى صنابير المال، فيغترف ويرتوي، وينثر الفائض على الأرض الرملية، أو يرميه أمام أمثال سمير في البحر، أو يوزعه على الراقصات، أو يعطي منه الفتات ليذل به أناس كانت لهم يوماً مكانة وشهدوا أيام العز بجدارة.

الحاج منصور الشامي تصفعه أخبار الناس بشدة ويزلزل كيانــه ما يسمعه عن أحوالهم.. يتذكر أيام الصبا حيث كــان يعمــل فــي صمت، ويحترم أسرته بل يقدس كل فرد فيها وكل طوبة في بيتــه، وكان ضعيفاً إزاء كل مفردة من مفردات هذا البيت حتى الشبشــب القديم والطبلية المكسورة والنافذة التي تهشم زجاجها وعشة الفــراخ المتداعية فوق السطوح، وحبل الغسيل القديم الــذي يوشــك علــى السقوط بالهدوم المرقعة.. لم يكن ينزعج من البلاط الذي يميل فــي هذا الجانب ويعلو في الآخر، وما كان أحــد ليغضــب لأن الكنبــة الخشبية تكاد تكون بلا مرتبة لتهافت قطنها واهــتراء فرشــها، ولا يستاء أحد لأن شفة القلة مشطوفة أو لأن باب الغرفة بمفصلة واحدة والأكرة لا تعمل ويحشرونه في العادة بقطعة مطوية من الــورق، وما ضاق أحد بالنوم وسط السبعة في قــاع الغرفــة علــى كليــم موروث عن الأجداد، يتغطى الجميع بلحاف واحد ممــزق ونحيــل يتجاذبه النائمون طيلة الليل، وأحياناً يضطر من يقرصه الــبرد أن يقول:

ـــ إديني حتة بطانية أو سيب لي حتة لحاف.

وإذا أزيح نفر منهم وتدحرج رأسه عن المخدة وارتطـــم عــدة مرات بالأرض الإسمنتية، قال بوعيه أو بلا وعيه:

ـــ ادوني يا ولاد حتة مخدة.

والباقون بالوعي أو بالا وعي يمررون له حتة مخـــدة، وبعــد اليقظة صباحاً، تكون حكايات الليل النعسانة وفصوله غير الواعيــة مادة للعبث والضحك، وسبباً للانتقام اللذيذ واللهو.

كانت العائلات جميعاً إلا قليلاً متماثلة العيش، تتناول نفس الغذاء وتلبس نفس الملابس.. ليس ثمة غير فروق محدودة وباهتة.. بــل كان تماثل بين الأفكار والظنون والآمال والأحلام، فلا مجال واســع للسخط أو الحقد أو التوتر.

تنهد منصور وهو يقف تحت تندة محطة الأتوبيس.. تنبــه أنــه وقف كثيراً دون أن يركب أي أتوبيس أو ميكروباص.. وتنبه إلــى

أنه لا يعرف بالضبط إلى أين عليه أن يذهب.. وتنبه أخيراً إلى أنـه خرج للبحث عن سمير.. فأين يجده؟.. عليه أولاً أن يبحـث عـن زملائه الذين لن يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظلـه.. سامحني يا رب.

حاول أن يتذكر أسماء الذين سألهم من قبل عـن سـمير يـوم توصل إليه في وكر بشارع الثلاثيني بحي الطالبية.. لقـد ارتـدى ملابسه التي لا ملابس لديه غيرها، وخرج مبكراً وصامتاً.. تذكـر مؤخراً ذلك السؤال المتضخم الذي لا يفتأ يكبر كل يوم.. مـا هـذا العفريت الذي يتلبس ولده؟ ومتى يتركه لحال سبيله حتى يسـتطيع رؤية مصيره الضائع في رحم الأيام، وحاول أن يكتم تساؤلاً يتسلل في أعماق أعماقه حتى لا يصل إلى الله بأي سبيل.. لماذا يـا رب تفعل به هذا وأنت تعلم أنك لا تعذبه بل تعذبنـي، ولا تعاقبـه بـل تعاقبني؟!.. فاللهم رحمتك بي إذا كنت أستحقها.. اللهم لا أسـألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه.. سامحني يـا أرحـم الراحميـن وتجاوز عن سيئاتي، ولا تغفل عني وعن ذريتي طرفة عين.

إلى ربه تحدث طويلاً بوصفه قشة في عاصفة هوجـاء تقتلـع الجبال والأشجار وتقلب البحار والأنهار. كانت اللوحة الكبيرة التـي تنتشر الآن في شوارع القاهرة بمناسبة اختيار مصر عـام ٢٠٠٥ مقراً لمؤتمر السلام العالمي الأول.. روبي عريانة وإلى جوارهـا لوسي وشعبان عبد الرحيم وسلطان عبد الحميد واللمبي فاشخاً فمـه ومحولاً عينيه ورافعاً رجليه مرتديا لباساً متواضعاً وخلف الجميـع برج الجزيرة والأهرامات وفي القلب مبنى التليفزيـون وصـورة كبيرة للسيد رئيس الجمهورية بابتسامته الودودة ونظرتـه الأبويـة وتحت الأقدام بعض لاعبي كرة القدم يدفسون وجوههم في أكفـهم ويشهقون بالبكاء.. يشمل اللوحة انسجام وتناغم إنساني وتكشف عن قدرات فنية عالية.. لم يعرف منصور جدوى اللوحة، أحس فجـأة بالوهن والخدر.. وقعت عيناه على حذائه الذي يرتديه منـذ عشـر سنوات ويشبه وجه الكلب الإنجليزي. فوقه بدا عنق الجورب الـذي

تم ترقيعه عدة مرات، وتذكر أنه كان يرتديه دائماً برويــة وحنــان حفاظاً عليه.

تأكد أنه في السنوات الأخيرة أصبح غير قادر على التذكر، وأن بضع كلمات بسيطة تهرب منها إذا احتاج إليــها.. تختفــي فجــأة الكلمات كما يختفي ولده.. هل يكون ما يعاني منه هو الذي يســمى الزهايمر.. قال لنفسه أياً كانت الحالة فمن الرفاهيــة التفكــير فــي علاج أي مرض.. المهم المرض الأكبر.

تذكر أنه لما أعاد سمير في مرات كثيرة سابقة، كــانت دائمــاً بداية الخيط لدى شاب أسمر واسع العينين يعمل في مقهى بشــارع متفرع من أحمد عرابي بالمهندسين.. اسمه.. اسمه.. لــم يتذكــر.. ركب الميكروباس.

في الليلة الماضية لم ينم إلا دقائق متفرقة.. سيطر عليه خــاطر تعس، أنه سيسمع بعد قليل طرقاً عنيفاً على الباب، وعندمــا يفتــح يسأله رجال الشرطة عن سمير المتهم بسرقة محــل مجوهــرات، وقبل أن يجيب سيندفعون إلى أعماق الشقة فيقلبون كل شــيء فــي هوس. يقتحمون الحجرات.. يفتحون الدواليب بقسوة، تتخلــع فــي أيديهم الضلف.. يرمونها ويمزقــون المراتــب ويفتحــون الأدراج ويقذفون بأقدامهم الثقيلة كل ما يقابلهم، كما كانوا يفعلون أيام البحث عن خضر.. سيبعثرون البصل والثوم وأواني المطبــخ ويدخلــون البلكونة ويرفعون البطة الوحيدة التي تنام على بيضها.

لا يجدون شيئاً، فيصرخ فيهم الضابط ساباً أمهاتهم بسبب عماهم وخيبتهم، آمراً إياهم بإعادة التفتيش.

قبل الفجر سمع سارينة البوليس في الشارع. تأكد من مخاوفــه وبالغ في سوء الظن حتى وجف قلبه وانتفــض بدنــه.. توقــع أن يبلغوه بوجود جثة ولده في إحدى الشقق المهجورة أو ملقاة تحــت كوبري أو طفت فوق ترعة في أوسيم أو المرازيق، وليس مســتبعداً أن يجدوها في صحراء مطروح، فلا حدود لانطلاقاته.

لم يكتشف منصور أن دموعه تسيل إلا عندما ربَّت جاره على فخذه، قائلاً:

ـ اذكر الله.. ارم حمولك على من خلقك.

مسح بسرعة دموعه، وردد:

ـ لا إله إلا الله.

عاد بسرعة لسمير.. مستسلماً لمستنقع القلق.. الخطر يهدده لأنه يلقي بنفسه فيه، حريصاً أن يكون دائماً حيث يكون المشبوهون والمشاكل وأصدقاء السوء..الأولاد معلقون بقلبه، وقلبه معلق بسنارة الأولاد ذوي القلوب المتحجرة، إن كانت لهم قلوب.. معظمهم لهم عيون وآذان وسيقان.. يستقبلون الأحلام والآمال بالآذان والعيون ويركبون السيقان سعياً إليها أياً كانت النتائج.

ـ ربنا يهديك يا سمير ويهديني إليك.. كرم عظيم منك يا رب إذا مكنتني منه اليوم.

عادت دموعه تسيل وهو يقول:

ـ ساعدني على إعادة سمير إلى البيت ثم افعل ما تشاء.. احرمني من كل شيء.

مسح دموعه وقد أحس أنه أفضل قليلاً بعد أن فضفض مع نفسه ومع ربه.. تلفت حواليه ولاحظ وقوف السيارة أمام مزلقان إمبابة في انتظار عبور موكب الرئيس.

ظلت السيارة واقفة أكثر من ساعة إلى أن قرر السائق ألا ينتظر ومضى يتلوى جهة اليمين وجهة اليسار، أماماً وخلفاً حتى تخلص من كم السيارات الذي يمتد إلى أبعد من أقصى آماد الرؤية.. عبر قضبان السكك الحديد، ارتفع الركاب وانخفضوا، ارتطمت رءوسهم بالسقف.

بلغ فتحة يجتازها المشاة، أفلح في اجتيازها بصعوبة.. حذره راكب من احتمال تعرضه لغرامة وسحب الرخص.. ضحك عالياً وهو يقول:

ـ أي مخالفة يا باشمهندس.. صاحب السيارة عميد شرطة.

ـ هذه السيارة ملك لعميد؟!
ـ ليست هذه فقط.. لديه تسعة يركبها أمثالي من الخريجين.
ـ الخريجون؟
ـ نعم.. نحن لسنا سائقين..معظمنا أمضى مدة عقوبة وخـرج.. لا يجد عملاً.
ـ رجل طيب.
ـ يا عم معظم سيارات الميكروباس ملك ضباط شرطة.
ـ السائقون مثلكم خريجون؟
ـ قلوبنا حديد.
قال الراكب المجاور للسائق وهو يخبط على ظهره:
ـ لو في البلد منك عشرة يا بدوى!
رد راكب من الخلف:
ـ أمثاله على "قفا من يشيل.. يعني جاب الديب من ديله؟".
قال بدوي:
ـ قصر ديل يا أزعر.
ضحك بضراوة حتى بان موضع سنتيه الغـائبتين.. أشـار لـه جاره بما يعني أنه أنهى على المتحدث تماماً.
قال راكب المؤخرة:
ـ غداً يا بدوي نجلس جنب الحيطة ونسمع الزيطة.
تذكر منصور فجأة أن الشاب الأسمر اسمه بدوي.
قال بدوي:
ـ اسكت يا زغلول أحسن طول عمرك قرك دكر.
كانت هناك فتحة أخرى يتعين على السائق اجتيازها ليصل إلـى شارع السودان. وجدها مسدودة بقضيب حديد..أسقط في يده.. عليـه إذن أن يعود من جديد.. لعن كل من في الأرض والسماوات ولعـن زغلول.
نزل كل الركاب قبل أن تنتهي رحلتهم، وبقي السـائق ورفاقـه يتبادلون الصراخ والشجار اللفظي.

عبر منصور السور الحديدي، كان الشارع الفسيح فارغاً تماماً، يصطف على الجانبين رجال الأمن المركزي في صفوف لا نهاية لها.. الضباط ذوو الرتب العالية يتحدثون في أجهزة اللاسلكي لتأمين الموكب.. عشرات الألوف من الجماهير يتجمعون على طول الطريق.. يرفعون صورة الرئيس وضيفه ولافتات الترحيب.. ويهتفون بشكل آلي متواصل وقد بدا عليهم الإجهاد:

— بالروح.. بالدم نفديك يا مبارك.

عندما حاول أن يعبر الطريق، دفعه الجندي بقوة إلى كتل اللحم البشري المحتشدة والتي لا تكف عن الهتاف، إذ كانت الدراجات النارية تمرق مسرعة، لتعلن بلا تصريح عن قرب وصول الموكب. في أعقابها ظهرت سيارات شيروكيه سوداء جديدة لامعة.. وقف منصور يترقب ولم يكن بإمكانه أن يفعل غير ذلك.

طلعت عليه دراجات نارية في تشكيل كبير ومنظم تطلق أصواتها وأنوارها الحمراء وتشق طريقها باعتداد ورصانة، تليها عدة سيارات شيروكيه ذات زجاج أسود.. كتل من السواد لا تكشف عن شيء، ومثلها ظهرت اثنتي عشرة سيارة مرسيدس عيون.. حاول منصور رؤية من فيها فلم يفلح.. ثم طاقم آخر من سيارات الشيروكيه وعدد كبير من سيارات سوداء طويلة ومتنوعة حتى انتهى الموكب، ولازالت الجماهير تهتف معبرة عن استعدادها للتضحية. النساء يزغردن والأطفال يهللون، الكل ذائبون في شرنقة العظمة والمجد وقد غاب عنهم أن الموكب مضى إلى عالم آخر من الحفاوة.

تحرك جنود الأمن المركزي بسرعة في اتجاه الصناديق السوداء الكبيرة التي يحشرون فيها، وانفرطت الصفوف المنتظمة والمحتجزة للجماهير.. عاد كل إنسان إلى عالمه وشرع يفكر في أحواله.

كان منصور قد حاول أن يدقق النظر في السيارات المغلقة ذات الزجاج الفيميه البني حيث يجلس بداخلها شخصيات غير عادية..

تمنى أن يرى أشكالهم.. ألوان بشـرتهم.. ملابسـهم.. جلسـاتهم.. ضحكاتهم..نظراتهم.. سحر أهميتهم.. سر تأثيرهم ومكانتهم.. لـم يسمح له أي شيء بأن ينال مراده.. قال في نفسه: كل شـيء فـي الدنيا أصبح مكشوفاً إلا سيارات وقصور الكبار.. كانت معلوماتـه على قده.. عاجزة مثله.. لم يكن يعلم أن كل شيء يمكـن معرفتـه مهما كان محفوفاً بالأسوار وملفوفاً بالحديد أو مخبأ في سـراديب، لكن الذين يملكون القدرة على الاكتشاف هم الكبار والذين يخبئـون هم الكبار، والذين يفيدون من هذه الأسرار كبار مثلهم..لا شيء لـك إلا ما كان في حجمك يا منصور.. لعلمك أيها الرجل الطيب.. حتى التاريخ نفسه وسجلاته وأحداثه وأمجاده لهم وليست لك.. أنت غـير محسوب بالمرة في أي كتاب أو جريدة، ولن يرد ذكرك ولا حتـى في صفحة الوفيات.دله الشاب الأسمر على أحدث أصدقاء سـمير، وهو الذي يتبادل معه اللقاءات والأسرار.. اسمه صافي.

ـ ربما يكون مصطفى، وصافي اسم الدلع.. عنوانـه سـهل.. مراكب صيد تحت كوبري إمبابة من ناحيتنا.

ـ أسألك عن بيته.

ـ المراكب هي بيته.

عثر بسهولة على العنوان.. أسهل عنوان في الدنيا.. كتلة مـن الكراكيب والنفايات فوق ستة مراكب.. حلل وطشوت وجراكـن.. عجل كاوتش ومناشر غسيل وأكيـاس معلقـة وربطـات أحبـال وتليفزيون وفرش في الأرضية للنوم وهدوم متعلقة علـى أسـياخ حديد ممتدة من طرف المركـب للطـرف الآخـر فـوق رءوس أصحابه.. الشبك على جنب.. فوق العشرين نفر بين نساء وأطفـال ورجال.. كبيرهم في قاع مركب مريض وابنته تدلك رجليه بمرهم، رجل مسن آخر يبدو متماسكاً يجلس ناحية الدفة ووجهه تجاه عمـق النهر يشد أنفاساً من الجوزة الغاب ويكح.. أمام عيونه عـدد مـن الشباب سرح بمراكب صغيرة أخرى.. سيدة في مركـب تسـرح لابنها شعره المفلفل غير السالك.. تشده بقوة لا يستجيب.. المشـط

محشور في الشعر الأكرت.. يصرخ الولد فتضربه بيدهـــا الثقيلــة على ظهره.. وضعت كثيراً من الجاز دون أن يليـــن أو ينفــرد.. واصل الصراخ.. دفعته برجلها السمينة.. انبطح الولد على وجهــه في قاع المركب وبان فخذها الأبيض المكتنز..وقعت عينا منصــور عليه فجرى لعابه على الفخذ المخروط والذي بقي عارياً وقد مــالت المرأة على جنبها لتركن بعيداً زجاجة الجاز وبانت مساحة اللحـــم في الفخذ الثاني.. تجمد منصور من الإعجاب والحرج.. هل ينــادي على أهل المكان فيفزعها، أم يواصل النظر.. لقد اكتشف أنه نســي شكل النساء وحلاوتهن.. وطراوة اللحم اللذيذ ونعومتـــه.. العيــال حشروه في سكة بعيدة لا تفضي إلا إلى السجون والمقابر والحــيرة وضياع العمر.. تجمد منصور وتمنى أن يمر بيديه وشــفتيه علــى هذا المرمر النابض بالشهوة، المثير لكل المشاعر الجميلة.. روحــه تتوثب وشفتاه دبت فيها الحياة.. طالت رقدة الســت وميلــها علــى جنبها.. أخيراً دون أن يرفع عينيه ضرب ببعضهما كفيه وقبــل أن تلتفت المرأة وتجذب بسرعة جلبابها الممزق على فخذيها كان قـــد حول عينيه إلى جهة رجل الجوزة الذي لم يلتفت إليه، وأطــل رأس من أول مركب تحت رجليه.. قالت صاحبته:

ــ نعم يا حاج.

ــ صافي.

ــ قدامك هناك.. اقعد استناه.

لم يجد مكاناً يجلس فيه.. عاد يفكر في سكان الحـــي العــائم.. كيف يعيشون؟.. الغريب، أنه لاحظ أن هذه العائلـــة أو العــائلات تربي الدواجن جوارها على الشاطئ.. وفهم أن كل مركب يســـكنه فرع من الأسرة.. ابن تزوج وأنجب يشغل مركباً.. ســتة مراكــب لستة شباب وأهلهم الصغار.. وهناك ثلاثة مراكب للصيد هي التــي تنفق عليهم وعلى الصغار في المدارس.. كان مركبان منــهما ذوا سقف خشبي يستخدم كدور ثان.. ثمــة أولاد ينــامون عليــه إلــى جوارهم فتاة تغسل في طشت.. وأخرى تشــعل أنبوبــة بوتاجــاز

وتضع فوق موقد مسطح حلة، وثالثة كانت تطوي بطانية وتدعك عينيها ورجل كبير يتوضأ على حرف المركب..تنبه منصور أخيراً إلى صوت عبد الوهاب في راديو ترانزستور يغني بصوته الشجي:

يا وابور قول لي رايح على فين.. عمال تجري قبلي وبحري.. تنزل وادي وتطلع دوغري.. ما تقول يا وابور رايح على فين.. على فين.

قبل أن يطلع شاب طويل من الماء عارياً تماماً إلا من لباس قصير كحلي به نجوم صغيرة بيضاء كانت شابة شعرها مبتل قد خرجت من آخر مركب وقابلته ببشكير بني فأخذها بين أحضانه.. أدرك منصور أنهما عروسان.. سأل من جديد عن صافي..كان هو العريس.. أنبأه أنه لم ير سمير منذ يوم دخلته ومن المؤكد أنه مع داود في الوراق.. استدار ليغادر الحي العائم.. قالت له عجوز: تفضل الشاي..لم يتنبه إلى وجوب شكرها حتى لو كانت "عزومة مراكبية" وعاد يفكر في سمير وقطاره الذي لا يعرف أين محطته الأخيرة.

وصل إلى الوراق والحتة التي يسكن فيها داود حسب وصفة صافي الذي انشغل عنه بعروسته.. خاض في مياه قذرة وموحلة ومياه استحمام.. حرص ألا يضرب الكتاكيت بقدمه ولا الإوز حتى لا تمسك صاحباتها في خناقه ويأكل علقة لا يأكلها حرامي في مولد..دخل حارة من "جوه" حارة من "جوه" حارة.. لحسن الحظ عثر على داود نائماً أمام بيته لا يزال رغم أن الشمس أصبحت قادرة على الكي.

العنوان كان معقداً، يحتاج من ينقله من رأسه إلى رءوس الآخرين.. أن يذكر ضمن وصفه للشوارع والحارات عمود نور مكسور، وبرميلاً على الناصية وسيدة تجلس على جنب تعد الشلي، وخرابة يلقي فيها سكان الحي فضلاتهم. وحاولت رئاسة الحي إخفاءها فعلقوا عليها صورة للرئيس مبتسماً يلوح للجماهير.

لحسن الحظ كانت الوصفة التي رماها صافي في وجه منصور غامضة ومبتسرة، لكن داود كان مشهوراً في "الحتة".. وحارته أيضاً مشهورة، فعلى ناصيتها جزء من سيارة قديمة حال لونها، وفي منتصفها رجل بلا ساقين يجلس على الأرض ويبيع أحشاء البهائم.. الكرشة والطحال والفشة وكذلك الكوارع في طشت كبير، وفي طشت آخر الرئتان والأمعاء لزوم السجق، وعلى الرجل والطشتين خيمة كبيرة من الذباب.

بعين واحدة قال له داود: إن سمير وخليل كانا معه منذ خمسة أيام وفهم أنهما سيسافران إلى ليبيا مع مجموعة من الأصحاب.. ولم يره بعد ذلك. مؤكد سافر فعلاً وإلا كان قد ظهر في أي مكان.. قال ذلك وتمدد ثانية وغطى رأسه.

أحس منصور بالتعب فجأة..شعر بالعجز عن الوقوف والسير مع أنه ارتاح قليلاً لوجود سمير حياً حتى خمسة أيام.. جلس على ناصية الحارة بجوار السيارة القديمة أو ما بقي منها.. كان ثمة تشابه كبير بينهما.. لا ماض ولا مستقبل.. جلس على حجر يحاول إعادة ترتيب بدنه وليس عقله أو روحه. ما الداعي لهذه "المرمطة" التي يعرضه سمير لها كل بضعة أيام، ولابد أن يواصل البحث وإلا غضبت عليه أم خضر، وهو في قرارة نفسه يحترمها جداً ويتصور أن فيها سر بقاء هذا البيت واقفاً على قدميه حتى الآن رغم كم المعاناة والحيرة والضياع التي يخلفها لهم خضر وسمير.. الأولاد الذكور:

ـ لما قالوا لي ده ولد، انشد ضهري وانسند.. آه يا ظهري.

تذكر مرض زوجته ومعاناتها من الروماتويد الذي أقعدها عن الحركة، وصدره الذي خرب تماماً والفشل الكلوي الذي أصاب أخاه رزق ويضطره للدوران على المستشفيات إلى أن انتهت مأساته بالغسيل ثلاثة أيام في الأسبوع وابن رزق الصغير الذي يعالج من السكر وزوجته التي تقاسي الأمرين من أسنانها ولا ينقطع ألمها وصراخها من نهش الألم في رأسها:

ـ نسمع كل يوم عن أمراض.. أمراض.. يا رب اشـــف كــل مريض ونحن من ضمن.. يا رب ارحم الناس من اختبار المـــرض وتكاليفه، والناس لا حول لها ولا قوة.. كثرت الابتلاءات فالطف يــا لطيف.

تنبه إلى أنه يطلب من الله أشياء كثيرة، وتتوالـــى كــل لحظـــة دعواته المرتعدة، فكم يشعر بالإشفاق على الناس الذين تضربهم آلــة مجنونة ضخمة بها العديد من التروس والمطـــارق. لاذ بـــالصمت وهو يذكر نفسه بأن الذي خلقهم أرحم بهم منك، ومع ذلك لا مفـــر من الدعاء.

فجأة طاف به خيال حبيبه.. فقال:

ـ إلى متى يطول غيابك يا ولدي.. نحن بحاجة إليك.. لو كنــت معنا يا خضر ما حدث هذا الشرخ.. سواء كنت في أفغانســـتان أو باكستان.. لماذا لا ترسل كلمة ولو باسم أحد من أقاربنا.. لمـــاذا لا تطمئننا عليك؟.. حاشاك أن تكون من قساة القلوب.. إن قلبك العامر بالإيمان وانشغالك بمقاومة الظالمين على بعد آلاف الأميال لا يرفع عنك العتاب، ولا يجنبك المساءلة عن واجبك إزاء أهلك الغـــارقين في الظلم، ويكفي الوالدين ظلماً أن يجحد الأبناء.

(٢٧)

روح الإنسان هي تلك الخميلة العـــامرة بـــالكروم والخضـــرة، المثقلة بالثمر داخل قصر كبير.. إذا احترق القصـــر لا تحـــترق.. هاهو العالم ينسلخ من روحي من فـــرط مـــا لقـــي الجسـد مـــن تعذيب..رجال الشرطة يسيل عرقهم حتى أغرق ملابســـهم، وهـــم يتناوبون ضربي.. لم أتصور أن المصري على هذه الدرجـــة مـــن الإخلاص الذي يتمتع به رجل الشرطة، فقد حاول بعضهم عندما لـم تسل دموعي أن يأكلني بأسنانه، فلم يكفه الصعق بالكهرباء وإلقـــاء دلو من الماء المثلج على عريي المستباح.. لا أعرفه ولا يعرفنـــي.. لكن الأوامر صدرت من القيادة الأعلى منه.. مسكين.. إنني بـــالفعل أكاد أبكي لا على ألمي ولكن على حاله الذي يستأهل الشفقة.. ألنت أعمى البصيرة إلى هذه الدرجة، أيها الكائن العجيب.. أتضرب فـــي حجر؟. ألم يخطر ببالك أنني إنسان؟.ألم تسأل نفسك لمـــاذا يدهـــس الجميع لحمه بالأحذية الثقيلة ذات الحديد في نعالها؟. لماذا لم تســـأل نفسك يا أخي في المهانة ماذا فعل هذا الشخص الضئيل؟.. أنـــت لا تعرف..ولكنك بالتأكيد ودون أن تراها.. تحس بروحي توشك علـــى مغادرة جسدي.. روحي تتعذب أكثر من الجســـد.. فالجســـد مـــادة تتحطم وتتهشم والأظافر تخرج من لحمها في انسلاخ كوني بشـــع.. إن صرخاتي التي أكتمها كان يمكن أن تصل إلى الهند والمغـــرب.. الألم الجسدي ليس نهاية العالم.. لكن نهايته ووضاعته في عـــذاب الروح والكرامة.

هاهو الموت أمامي.. موت الجسد.. إنه مثل الشفاء الذي يشـــوق كالشمس في قلب المريض.. الموت اليـــوم أمـــامي مثـــل رائحـــة السمك.. اشعر كأني زورق يوشك علـــى مبارحـــة الشـــاطئ دون

تجديف.. هزات الموج وصفعات الريح تسحبني نحو الأفق الفسيح للضوء اللانهائي.

أنا الآن على الحافة.

حاولت أن أتمهل لأتأمل من جديد حالة الشرطي بعد الشرطي الذين يتبادلون الأدوار.. بعضهم يستريح والآخرون يبدأون العمل في محاولة تأديبي ومنعي من التعرض لصديق المسئول الكبير الذي أوصى معاونه ونقل معاونه الوصاية إلى صديقه العميد بالشرطة وأرسل العميد تنبيهاته المشددة إلى العقيد الذي اتصل بالمقدم وأنبأه بخطورة الشخص على الأمن العام فوراءه جيش من الغزاة.. تحرك المأمور بنفسه ليشرف على حفظ النظام والأمن والأمان. لذلك أنا هنا.. بينما أهلي في كل واد يهيمون بحثاً عني، وكلما بلغوا مرحلة الإمساك بخيوط تفضي بهم إلى مكاني.. تسربت كذبات صغيرة فضلوا الطريق وضاع البحث ولا أثر لشاب كان اسمه يوماً ياسر فرحات أبو المجد.

الموت أمامي طريق واضح، أعرفه جيداً وأتذكره كأني كنت مسافراً إلى بلد بعيد، غبت فيه شهراً أو بعض شهر، وأعود بعده إلى داري، وهذا هو الطريق إليه تتشكل ملامحه.. إنه يظهر مثلما يتكشف للمرء ما كان يجهله فيدركه ويفرح بالمعرفة.

هاهي حياتي الأولى قبل عدة آلاف من السنين تشرق أمام آلاف السنين التي يحسبها البشر لحركة الزمان وتعاقب الليل والنهار..أما أنا فلا أشعر بكل تلك المسافة.. إذ أتذكر جيداً مثولي أمام أوزوريس والاثنين وأربعين مساعداً من الآلهة، وكيف أني لم أهتز أو أضطرب وأنا أتلو اعترافي بنفي كل ما يشين عن سلوكي.

"لم أفعل شراً.. لم أسيء معاملة الناس. لم أجدف بحق الله.لم أسلب ممتلكات فقير. لم أرتكب ما تمقته الآلهة. لم أتسبب في أن يتألم إنسان أو يجوع. لم أقتل ولم أرتكب لواطاً ولم أزن ولم أغش الموازين.. لم أغتصب اللبن من فم الأطفال ولم ألوث ماء النهر.. إني طاهر.. طاهر".

لقد وضعوا قلبي في كفة ميزان وفي الكفـــة الأخـــرى علامـــة "ماعت" إلهة الحق والعدل، بينما جلس الإله تحوت كاتب محكمـــة الآلهة، وقد برأني وصدق على ما ورد في اعترافي، فمضيت فـــي طريق أوزوريس.

لقد كنت تلميذا وخادماً لكهنة بتاح في منف وكنت قد سمعت منذ طفولتي عن كتاب وضعه الإله تحوت في الرقى السحرية الفعالـــة، وعلمت من صديق لكبير الكهنة أن به وردين.. إذا تلـــوت الـــورد الأول فتنت السماء والأرض وعالم الليل والبحار والجبال، وســـوف أفهم ما تقوله الطيور والزواحف وأرى الأسماك حيث ستدفعها قـــوة إلهية إلى الظهور على صفحة ماء النهر، وإذا تلوت الورد الثـــاني وكنت في قبري فسأستعيد هيئتي السابقة كما كانت على الأرض.

امتلأ عقلي بالإعجاب بهذا الكتاب ورغبتي الملحة في اقتنائـــه.. وانشغلت بالفكرة، كان عليَّ أن أواصل العمل في المعبد ومشـــاركة كل الكبار أحاديثهم والاستماع إلى قصصهم وحكمتهم.. إلى أن كـــان يوم، نام الجميع فيه ولم أعرف النوم.. وإذا بعجوز ضرير يتوكـــأ على عصاه، يرتدي إزاراً أبيض، طويل شعر الرأس والذقن. محني الظهر يسألني بعض الماء. فدهشت لظهوره المفاجئ.. سقيته حتـــى ارتوى أسندته حتى جلس. أخرج من جيبه كســـرة خـــبز جـــاف.. وضع طرفها في فمه الأدرد. امتصها، ثم أعادهـــا إلـــى جيبـــه.. وسألني عن اسمي والسر في بقائي ساهراً.. حدثته عـــن انشـــغالي بفكرة.. اعترفت له، فقال:

ــ ابعد هذه الفكرة عن رأسك،فلكي تصل إلى كتاب تحوت، لابد ستموت عدة مرات.. عش حياتك واستمتع بها افضل لك.

ــ أطلب منك فقط أن تدلني على مكانه إذا كنت تعلمه.

ــ الكتاب مخبأ في البحر الذي تطل عليه مدينة قفـــط (البحـــر الأحمر) في أعماق صندوق كبير جـــداً مـــن الحديـــد.. الصنـــدوق الحديدي داخل صندوق من البرونز.. الصندوق البرونزي بداخـــل صندوق من خشب شجر القرفة..والصندوق الخشبي بداخل صندوق

من العاج.. والعاجي في صنـــدوق مـــن الأبنـــوس.. والصنـــدوق الأبنوسي داخل صندوق فضي، والفضي داخل صندوق من الذهب. والكتاب داخل هذا الصندوق الذهبي.. وحول كل صنـــــدوق ألـــف عقرب.. وحول الصندوق الحديدي ثعبان خـــالد لا يمـــوت طولـــه عشرة آلاف ذراع.

مرت عشرة أعوام وأنا أجري في كل عام تجربة قوية للعثـــور على الصندوق الحديدي الكبير في بحر قفط فلم أوفق، حتى بلغنـــي أن كبير الكهنة رحل على متن مركب صنعها بنفسه مـــن الشـــمع وحولها بقدرته السحرية إلى مركب من الخشب والحديد، كما صنـــع أسلحة قوية استطاعت أن تفتك بالثعابين والعقارب وحصـــل علـــى الكتاب الذي وضعه في ماء داخل قدر، والقدر على نـــار مشـــتعلة ثلاثة أيام، ثم شرب الماء، وهكذا أصبح ملماً بالعلم المقدس الـــذي تمنيت أن ألم به، لكني اكتفيت بأن أكون كاتباً حسب نصيحة "ستتي خع" كبير كهنة بتاح الذي سبقني إلى كتاب تحـــوت، وأنـــا أحبـــه وأصدقه وهو يشملني بعطفه ويصفني بالمثالي، أو الذي يبحث عـــن المثال.. قال ستتي لي بعد أن مسح على أذني بالماء المقدس.. مـــاء القرابين المخصص لأقدام الآلهة: "كن كاتباً ولا تبحث عـــن عمـــل آخر.. استمع جيداً ولاحظ أنه لا توجد مهنـــة لا رئيـــس لـــها إلا الكاتب، فهو رئيس نفسه وأنت مؤهل لهذا.. كن كاتباً حتـــى تغـــدو أعضاؤك ملساء ويداك رقيقتين، وحتى ترتدي الملابـــس البيضـــاء وتتجول مزهواً.. وإذا ناديت شخصاً استجاب لك ألف شـخص، وإذا سرت في الطرقات تسير حراً، فالجميع سيعرف قدرك".

لقد صدق ستتي.. أثق أنه أمين في نصحه وإرشاده، وليس فـــي نفسي تجاهه أي حقد بسبب الكتاب الذي حصل عليـــه. لقـــد نالـــه بقدرته، وسوف أسعى لكي أكون كما تمنى لي.

لقد شهدت عامل المعادن واقفاً أمام أتون فرنه، وأصابعه كما لو كانت من جلد التمساح، ورائحته أكثر نتانة من رائحة بيض السمك، والنجار يقبض على الإزميل ويعاني إعياء شديداً يفوق إعياء مـــن

يعزق في حقل، فالخشب حقله والإزميل معوله، ويمتد عملــه ليــلاً ويتجاوز قدرة ساعديه على العمل، والنوتي الذي ينقل البضائع إلـى الدلتا، يطارده البعوض الفتاك، وذباب الرمال ينغص عليه حياتــه.. والنساج في مشغله أتعس حالاً من المرأة، فركبتاه تلامســان قلبــه ويستنشق الهواء بصعوبة، وعليه أن يقدم الخبز للبواب حتى يتركــه يخرج إلى ضياء النهار، أما صياد السمك فهو أســوأ حــالاً مــن العاملين في كافة المهن فعمله على ضفاف النــهر وفــي جنباتــه بالقرب من التماسيح التي تخطف البشر بغتة.

آه.. إن التماسيح لشديدة الخطورة لكني قادر على مواجهتها، فقد كانت حبيبتي الحسناء عند الشاطئ الآخر وذراع النهر يفصل بينــي وبينها، بينما التمساح راقد فوق شط رملي، لم أعبأ به ونزلت إلــى الماء وضربت الأمواج، هل أنا فعلاً لا أخاف التماسيح أم أن حبــها هو الذي منحني هذه القوة لأتحدى مخاطر النهر؟. قالت لي يومها:

ــ انظر.. أنا كالبستان الذي زرعته زهوراً وبكل أنواع العشـب ذي العطر الفواح.. لا يكون المكان الذي أتنزه فيه جميلاً إلا عندمـا تكون يدك فوق يدي.. جسدي في غاية الراحة وقلبي مبتهج لأننــا نمشي سوياً.. أنا أحيا بسماع صوتك وإذا رنوت إليك، فــإن كـل نظرة بالنسبة لي أطيب من المأكل والمشروب.. طاف بخـلطري أن أنادي عليك لكي أمنعك من عبور النهر خشــية التمســاح، لكنــي توقفت عن الكلام وتمنيت أن تأتي إليّ.

ثغر أختي برعم زهرة لوتس، نهدها ثمرة طمــاطم، وجبينــها طوق من خشب السنط.. وأنا إوزة برية، أتطلــع بنظراتــي إلــى شعرها المسترسل.. ما أسعدني بالشرك الذي وقعت فيه.

آه لو كنت مكان تلك الفتاة الزنجية التي تعمل في خدمتها.. لمــا ابتعدت عنها خطوة ولشاهدت لون بشرتها بالكامل، ولو كنت غسّالاً لديها لمدة شهر واحد فقط لغسلت روحي بعطور وشاحها.

سوف أرقد في داري مريضاً، وليس من سبب للمــرض حتــى يدخل الجيران لرؤيتي ومعهم الجميلة.. يقع الأطباء في حيرة، وهي

التي تعرف دائي. لابد أن أفعل هذا.. فمنذ أيام مررت بدارها وقد هبط المساء.. طرقت بابها فلم يفتح لي أحد.. تمنيت أن اذبح ثوراً قرباناً من أجل المزلاج، وغزالاً من أجل العتبة، وإوزة من أجل دعامات الباب،.. عندئذ أجد باب الجميلة مفتوحاً والمخدع مزيناً بالكتان الرقيق والصبية الفاتنة بداخله فيفرح قلبي، والصباح يشرق عبر جمالها.

أرسلت إليَّ منذ شهر كتاباً من بردى، قالت فيه:

"آه.. لو استطعت أن تأتي مسرعاً إلى حبيبتك
كالمبعوث الملكي يسرع بسبب نفاد صبر سيده
آه.. لو استطعت أن تأتي مسرعاً إلى حبيبتك
وكأنك حصان الملك
أو كالغزال الذي يثب في الصحراء
قوائمه ترتجف ويصيبها الوهن
لقد تسلل الهلع إلى أعضاء جسمه
فهناك صياد خلفه، وكلابه معه لكنهم فقدوا أثر الغزال
فلقد وجد ملاذاً، واتخذ النهر طريقاً
وعندما يصل بسرعة إلى دارها، يتحرق شوقاً إليها
ويقبل يدها أربع مرات
تشرق عليه الجميلة وتطلع عليه ببساتينها المثمرة
آه.. لو استطعت أن تأتي مسرعاً
إلى تلك التي وهبتها لك الإلهة الذهبية"

الطريق إلى داري القديمة يغمرها الضباب وأحياناً تتراجع، وأحس بي في جسد ياسر والألم المفرط يعصف بينما السجائر المشتعلة تنطفئ في مؤخرته.. الولد يئن ويقبض على أسنانه بشدة لكي لا يسمح لأحد باكتشاف ضعفه، لكنه يتهاوى من ألوان التعذيب وأنا بداخله.. أخرج ثم أعود، وهو بين الحياة والموت.. وقد أقسم رجال السلطة بألا يسمحوا له بتنفس هواء الدنيا، وهو مصر على الحياة بصورة غريبة وخرافية.

أمر يفجر الدهشة تفجيراً، ويثير الحيرة.. كيف يموت ياسر ثم يعود إلى الحياة.. هل الموت والحياة في يد الشرطة؟! رجال الشرطة الذين تحولوا إلى آلة جهنمية تضرب بهدف القتل، وهو يقاوم فيتمسك بالحياة.. لم يأت الموعد إذن ولم يكن المكتوب له أن يموت الآن وفوراً.. هاهو على شفرة الموت معلقاً بمشنقة الحياة، مكتوب عليه أن يعيش الحالتين وأنا معه.. ماذا يراد له؟. السؤال موجه إلى الله لا إلى الشرطة..وفي كل الأحوال أسعدني أن أتذكر جسدي الأول الذي عاش على عهد رمسيس الثاني وكان محباً وطموحاً ومثابراً، لكن جسدي الثاني يعاني ما لم يسبق أن عاناه أحد فيما أعلم.. ورغم أني أكاد أكون موزعة بين الجسدين والعالمين، فإني أدرك بسعادة أن رؤية الموت لابد يعني رؤية الحرية في أصفى حالاتها.

ياسر المسكين.. هاهو قدرك قد عثر عليك واستدرجك إلى هذا الدغل الذي يعشش فيه الخونة.. لم يسمحوا للمقصلة الثقيلة أن تهبط فوق رأسك مرة واحدة.. إنهم لا يزالون يمارسون معك اللعبة القذرة.. الصدمات المتنوعة.. الموت البطيء.. لا يفتحون الباب لأيامك كي تبتعد تماماً وتختفي..إنهم يوزعون عليك صنوف العذاب، ويلقون بشظايا مشاعرك على أعمدة النور المطفأة..

عندما نام الموكلون بك سألتك: هل تتذكر شيئاً مما تراه أو تحسه؟ فقلت بعد ساعة ونصف، لقد حاولت أن تفتش في ذاكرتك التي تحولت إلى بالونة مفرغة الهواء.. منكمشة ومسحوقة، فلم تجد شيئاً إلا تلك اللوحة الكبيرة المعلقة فوق باب القسم.. لوحة ضخمة في حجم بيت من دور واحد يظهر فيها الرئيس في الوسط بابتسامته الحنون ووجهه المتفائل وإلى جواره اللمبي وروبي عارية تماماً وصندل في قدميها، وفي الجانب الآخر شعبان عبد الرحيم وسلطان عبد الحميد وصورة للتليفزيون المصري وتحت الجميع لاعبو كرة القدم وقد وضعوا وجوههم في أكفهم يغمرهم خزي وأسف، في الخلف الأهرامات وبرج القاهرة، والراقصة لوسي تلوح من بعيد.

قلت له: هذه اللوحة معلقة على جدران كثيرة ومبـــان حكوميـــة وفي الشوارع التي ضاقت بعربـــات الأمـــن المركـــزي والجنـــود المنتشرين بزيهم الأسود، ويفتتح بها البث التليفزيوني ويغلق.

سألته: بماذا تشعر الآن؟ قال بعد ساعة: كأن فتـــــافيت زجـــاج مهشم في دمي.. وهناك شجرة صغيرة من الشوك منتشرة في كـــل جسدي.. تنمو وتتمدد ويمزق بدني شوكها، ورأسي بطيخة متعفنـــة تطفو فوق مياه سوداء لا تتحرك من فرط الرمم المكدسة.

لاحظت أن جسد المسكين تعددت عليه كافة الألوان حسـب آلات الضرب وأنواعه وتورمت القدمان والفخذان والكتفان.. الوجه أيضاً منتفخ قليلاً.. الزرقة هي المسيطرة..الظهر ترسمه خطوط حمـــراء كثيرة وكثيفة ومتقاطعة.. خطوط عميقة تحفر في اللحـــم وتفـــري الجلد وتتحول إلى شبه مجاري دموية، بعضها يفرشه الصديـــد، لا يقدر على رفع ذراعه الأيمن، فقد كسر أول أمس دون أن يســمحوا لأحد بالاقتراب منه.. أبشع ما في المسألة صوت الألم الذي يخـــرج من كل أنحاء جسمه خاصة بعد أن يخلدوا للنوم أو يذهبوا للراحـــة. كانت البداية عندما قال لهم إنه لن يتركه حتى لو مات، ولن يتوقـف عن مطاردة وكشف كل من ينهب ثروات البلد ويستولي علـــى مـــا ليس له بحق.. وفي مرة أخرى قال: أنتم تحمون الفساد..بعضكـــم أخطر عل مصر من الفاسدين.

وهكذا تحدد تقريباً مصيره النهائي، ومصيري غير النهائي.

(٢٨)

فجأة قال الأطباء لرزق إن الصمام الميترالي لقلبه بحاجة إلى تغيير، لم يهتم..كان قد داخ عدة مرات وسقط من طوله، إلا أنه عولج واستعاد قدرته العادية إلا قليلاً.. فلم يجد أهمية ملحة لمسألة الصمام، خاصة أن المنزل بحاجة إليه وليست هناك أية فرصة لغيابه ساعات محدودة في المستشفى فضلاً عن عدة أيام، والعلاج مهما أنفقت عليه المصلحة بحاجة إلى أموال ينفقها صاحب المرض على علته.

لكن لدهشته ودهشة الجميع قيل له: عندك فشل كلوي ولابد أن تغسل.. صحيح أنه كان يشعر ببعض الحرقان في مجرى البول، لكن فشل كلوي.. ضربة قاصمة زلزلت العبد المسكين ومسحت كل ذاكرته من فرط الرعب.. قاوم القعود رغم توجيهات القومسيون الطبي الواضحة وكذلك تأشيرات أطباء التأمين الصحي وتحويله إلى القصر العيني.

ومع ذلك فقد نزل إلى معترك البحث عن سمير ابن أخيه منصور.. يسأل من يعرف ومن لا يعرف، وعلم أن أهل ياسر أيضاً يبحثون عنه، فمضى يسأل عن الاثنين.. وهداه تفكيره وبقايا ذاكرته إلى صاحبة الرخصة التي وجدها في القمامة.. السيدة إلهام.. إلهام.. إلهام رستم.. طلعت عليه ببهائها وتألق حضورها وعطرها الفاغم.. كيان مستقل ومهابة.. قالت:

— نعم.
— أنا كنت حضرت لسيادتك من قبل.
— عارفة.. ماذا وجدت أيضاً.
— لا شيء.
— اخلص.

ـــ أنا في عرضك يا ست هانم..
انحنى بسرعة إلى قدميها:
ـــ أبوس رجلك.. أبوس جزمتك.
خطفت رجلها.. هجم على الثانية.. خطفتها.
ـــ ابني يا ست هانم وابن أختي، غائبان منذ عشرين يوماً، يؤكد الجميع احتمال اعتقالهما في قسم من الأقسام أو سجن من السجون.. لا سند لنا بعد الله إلا معالي الباشا.
ـــ لا أفهم.
ـــ يسأل عليهما يا هانم..أرجوك.. أبوس رجلك.
لم يكن ينوي أن يبكي.. لكن عرض الموضوع وحالة الاستعطاف وأمله في المساعدة أسالت دموعه واختنق صوته.
مدت يدها إلى رف في مكتبة.. سحبت قلماً ودفتراً صغيراً في حجم الكف:
ـــ اكتب الاسم هنا.
كتب وعاد يلح ويرجو ويأمل أن توافق على تقبيل قدميها:
ـــ لفينا كل مكان.. فشلنا.. لا ننام.
ـــ إنتهينا.. تعال بعد خمسة أيام، بعد السابعة مساء يكون الباشا موجوداً.
ـــ لو كان..
ـــ انتهينا.
عاد بعد أربعة أيام في المساء.. قالت:
ـــ لا خبر عن الأول.. سمير، معنى ذلك أن الشرطة لم تلمسه. أما ياسر فقد مات. اسأل في قسم المنيا ثان.
بعد أيام قليلة ماتت أم رزق ومنصور، وبعد أيام قليلة مات عبد ربه ابن رزق المريض بالسكر، وكانت قد أصيبت ساقه بغرغرينا.
رزق.. لم يلبث أن رحل.. كادت زوجته تجن.. بل جنت بالفعل لعدة أيام ثم أخذت تلطم ولم تكن قد لطمت من قبل.. كانت في حالة ذهول كامل مما يجري.. وهكذا قضت عشرة أيام تلطم وتبكي ولا

تذوق الزاد اللهم إلا رشفات من المياه، ثم فجأة انقطعت عن البكـاء، وقامت فاستحمت وانطلقت تبحث عن عمل.. إلى أن قبلتها إحــدى المستشفيات تومرجية، ورأتِ أنه من المناسب مواصلة طريق رزق في فرز المخلفات، فليس عيباً الإفادة بها.. والعمل مع القمامة ليـس عملاً مخلاً بالشرف، وله جدوى لا تنكر.. التغيير الوحيد أنها علـى مضض اضطرت لسحب ابنها الكبير بشرى ليرافقها بالليل ويعينـها في حمل ما ينفع وفي نفس الوقت ليحس بجهدها وظروف الحيـاة، وقد يتعلم شيئا يفيد منه في المستقبل.

قبل الفجر بساعة تقريباً قام منصور من نومه المتقطـــع وفتــح الراديو آملاً أن يكون قرآن الفجر قد بدأ.. وكأنه كان هـــو الفـــاتح للمحطة وللبداية.. الشيخ يعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويبدأ باســـم الله الرحمن الرحيم. أم خضر تجلس في الصالة تدعو الله أن يحفـظ سمير ويستر عرض ندى وتشكره على توفيق سامي فـــي دخولـــه كلية الصيدلة.. سيحمل لقباً محترماً، وسوف يكسب مالاً معقـــولاً.. أول صفحة مشرقة في كتاب حياتهم.. نسمة هواء عليلة تهب مـــن صحراء الأيام الجافة.. دهش منصور إذ قالت له:

ــ تأكل معي لقمة.

ــ بالهناء والشفاء.

همت للقيام.. قال لها في عجلة:

ــ خليك.. أنا سأحضر لك ما تشائين.

أشارت بيدها رافضة.. نهضت بحماس دون توجع أو تثاقل.. لم تستند إلى ركبتيها وترفع جسدها على مراحل كما تعودت.. فـــرح منصور جداً بأن يرى شريكة حياته في عافية.. هـــذه هـــي ثـــاني صفحة مشرقة أو مبشرة في الأيام الجديـــدة، لكنـــه تمنـــى عـــودة سمير.. اليوم قبل الغد.. زوجته لم تأكل منذ يومين على الأقل، وما أكلته لا يطعم عصفوراً.

أحضرت فوقية طبقاً به جبن، ورغيفاً جافاً وخيـــارة.. مضـــت تأكل على مهل شديد كأنها تجتر ما سبق أن أكلته.. جلســـت علـــى الكنبة الاستامبولي في مواجهة باب الشقة.. تمر اللقمة الخشنة مـــع الجبن.. تلتقط مسحة منه.. تضعها في فمها وعينها على البـــاب.. إلى أن سمعت نقراً خفيفاً عليه.. كذبت أذنيها في البدايـــة.. تكـــرر النقر.. سمعه منصور، مضى يدق بقبقابه البلاط.

عندما فتح الباب.. وجد رجلاً يهمس له وإصبعه رأسياً على فمه: هس.

كان عليه أن ينفذ ما طلب الغريب وإلا فلابد أن يصرخ أو يقع من طوله بعد أن يهتف في دهشة: خضر..!!

دخل خضر وأغلق الباب وراءه وهجم عليه أبوه يعانقه ويربت على ظهره، ويجذبه ويضمه بشدة.. نهضت أمه ولمحها خضر، فتخلى عن حضن والده وانحنى يقبل يديها ثم عانقها طويلاً إلى أن انفرطت في البكاء.. فكر منصور أن يوقفها ثم تخلى عن الفكرة.. فقد كان خزان الدمع المخصص لخضر قد امتلأ حتى حافته دون أن تأتي الفرصة المناسبة ليفيض أو يتسرب جزء منه.

جلس على الأرض وجلسا حوله.. تأملاه.. حدقا في كل ملليمتر من بشرته وشعره ويديه.. مرت عيونهما على عينيه وأذنيه وأنفه وخديه.. بدا غريب الملامح.. كبير السن.. مجهداً.. أحمر العينين.. بلا لحية.. شعره كان مسرحاً وهابطاً على جبهته في غير انتظام.. يلبس قميصاً أسود بنصف كم وبنطلوناً رمادياً وحزاماً طويلاً يتدلى طرفه.. حذاؤه طويل الرقبة.. آثار قطع من أقصى الخد الأيسر تحت الأذن واليد اليمنى ينقصها الإبهام والسبابة.. السوالف طويلة.. شارب مربع لا يزيد عن ثلاثة سنتيمترات، يشبه شارب هتلر.. كل هذه الملامح الشعرية متغيرة.

قال:

– جئت متخفياً.. صورنا وأسامينا في كل مكان.

– عدت وحدك؟

– عدنا ثلاثة.. زميل نزل في السويس وركب إلى "قنا"، ورافقني آخر إلى "الصف".

– تعبت يا ضنايا.

– أبداً.

– قم إلى الحمام حتى أعد لك لقمة.

– أريد فقط أن أنام.

أدخله أبوه إلى حجرته.. قال لأبيه وهو يحكم عليه الغطاء:
ـ أنا لم أحضر.. لا تنس.. قل لأمي ذلك.

دخلت أمه وطلبت أن تبقى إلى جـــواره وهـــو نـــائم.. صلـــى منصور الفجر وركعات السنة والشكر وجاء فجلس مـــع زوجتـــه بجوار خضر.. ينظران إليه وقد غرق بسرعة في النـــوم.. فوقيـــة تقلب في يد ابنها وتتفحص أصابعه.. ثم انحنـــت عليـــها وقبلتـــها وأغرقتها بالدموع.. سالت معها دموع منصور الذي لم ينقطع عـــن شكر الله والتعبير عن عجزه التام عن رد جمايل الله عليه وأفضاله. الدموع ساخنة تسيل والرجل المسجى لا علاقة له بالعالم وقد بـــدا بسيطا.. هادئا وراضيا.. ازداد وجهه بياضا وبهاء.. وخفـــق قلـــب أمه فجأة وتسارعت دقاته فقد استولى عليها إحساس بأنـــه يوشـــك على الموت، وهو إنما جاء ليموت.. واصلت الانحناء عليه وتقبيـــل يديه ورجليه وأصابعه وأظافره ووجنتيه وأنفه وأذنيه وكل ملامحـــه حتى صدره.. الدموع تواتيها وكذلك منصور الذي لم يتحرك فيـــه عرق إلا يداه وأصابعه التي تمر على المسبحة، تسقط حباتها فـــي اتجاه الله طالبة غفرانه ورحمته.

في نفس الموعد الذي جاء فيه، استيقظ خضر بعد يومين. كانت أمه قد جهزت له طعاما شهيا ولبنا وفاكهة.. وكانت ندى منذ علمت بوجوده قد عصف بها الشوق لتوقظه وتراه وتتحـــدث إليـــه.. لـــم يخرج أحد من البيت ولا حتى سامي إلا لقضاء حاجة.. كان ثمـــة عيد كبير وبهجة وضحك رغم غياب سمير لأن خضر عماد البيـــت وأول فرحة الوالدين عاد.. عاد سالما. وظلت أمه تستشعر بغموض أنه جاء ليموت بين أحضانها.. مضت تقول في سرها: مسامحاك يا بني.. مسامحاك وقلبي راضي.

ندى تكاد ترقص وهي تشرف على الطعـــام بنفســـها واختيـــار المشهيات والفواكه.. أعدت العصائر منذ ظهر اليـــوم الأول. بقـــوا جميعا في الانتظار على الأرض أمام السرير الـــذي ينـــام عليـــه خضر.. ينام طويلا وعميقا، وهم في شك من حالته.. كـــل منـــهم

يمسك يديه فترة بعد أخرى.. ويضع أبوه أذنه على صـــدره ويــده أمام فمه وأنفه.. حي.. حي.. الحمد لله.

أخيراً وهم جلوس على الكليم القديم ظهورهم إلى الحيطان متكئة على وسائد وسامي بينهم نائم، مشاركاً في معسكر الانتظار إلــى أن يرمش خضر بجفونه.. أخيراً صدرت عنه بعض العبارات التي لــم يفهموا معانيها أو رموزها:

ــ ما تراه هو الخير يا سليمان.. هذه ليســت قضيتنــا، لكنــها مهمة.. نعم.. عليك أن تتخلص منها.. لست في حاجة إلى توصيــة. إياك والأحبة. الحذر الحذر.

الجميع يجلسون في انتظار أن يعود إلى الحياة رجلـــــهم الــذي غاب أكثر من عشر سنوات، لم يكن في أوروبا أو أفريقيـــا أو دول الخليج، يعمل ويكدس الأموال، لكنه كان في بلاد حاصرها الخطـــر وداهمها الاحتلال والعدوان والتربص في الداخل والخارج.. لم يكن ممكناً في أي لحظة أن يسير شخص دون بندقية أو مدفع، ولم يكــن ممكناً أن ينام شخص دون عيون مفتوحة.

الجالسون عيونهم على عينيه وعلى يديه.. يأمل كـــل منـــهم أن يكون هو أول من يكتشف اليقظة المرتقبة.. في أحيان كثيرة يؤجـــل أحدهم الذهاب لدورة المياه أو يتقاعس عن القيام لفتح بـــاب الشـــقة وسؤال الطارق عن حاجته.. كان التدافع كثيراً بين سامي ونـــدى.. حتى تجاسرت ندى أخيراً وقالت عبارة مشوبة بالدعابة:

ــ عليك يا أمي أنت أو أبي القيام إذا طرق أحد الباب أو احتجنا لشيء، فقد سبق أن رأيتماه وسلمتما عليه، أما أنا وسامي فما حـدث لنا شيء من ذلك، فضلاً عن أنه غاب عن البيت ونحن صغار.

أسرع سامي:

ــ أنا حتى لا أذكر ملامحه، فلم أكن قد تجـــاوزت الســـابعة أو الثامنة.

أراح الجميع بفتح عينيه.. صعد إليه الجميـــع، ســـبقهم بـــالطبع سامي حيث اختار موقعاً ملاصقاً لأخيه الأسطورة، هكذا تخيله مـــن

كثرة الحديث عنه وعن رحلته المجهولة.. تصور سامي أنه بحاجة إلى شهور حتى ينتهي خضر من حكاية ما رأى وما سمع وعانى وحارب واختفى وهرب وتهدد وسافر وطلع جبالاً وهوى إلى وديان.

سألوه عما تردد من كلمات على لسانه قبل لحظات، فقال بلا مبالاة:

ــ أكيد هلاوس من الإجهاد. لا تنسوا.. أنا لم أحضر.. سأبقى في البيت أسبوعاً على الأقل لا أطل من النافذة.

قالت أمه:

ــ أحسن خبر.. خليك يا حبيبي في البيت على طول.

تنهدت ثم استأنفت:

ــ عوض ما فات.

قال:

ــ يفعل الله ما يشاء.

قام إلى الحمام والإفطار والكلام.. كلام عام وغير محدد.. نقر من بعيد على جدران الأحداث.. يطوي ما جرى طياً.. يقف عند الطرائف والقصص العادية ويصف الأماكن وملامح الناس ويتجنب القضايا الأساسية والمعاناة والانقسامات وتعرضه للموت عشرات المرات..

تذكر سليمان العشري وتمنى أن يوفق في خلاصه من أخته الفاسدة العاهرة مايسة التي ترقص في الخمارات ويواقعها الرجال. لو عثرت به جماعة الأحباب سيكون سهلاً عليهم طرق الباب، وهذا أبداً لا يصير.. لازال هناك عمل كثير. سأل خضر أخيراً عن سمير.

— هل تعرفين سيدة اسمها هيام الدالي؟
— طبعاً.. صديقتي.
أجابت بسرعة دون أن تضطرب أو تفكر في سبب السؤال.
— ما رأيك في سلوكها؟
— لا أسمح لك يا فادي.
اكتست ملامحها جهامة ورفعت رأسها إليه وكانت تصب الشاي في ضحى يوم الأحد قبل أن يودعها.
— أسألك سؤالاً بريئاً.
— عندما تسألني عن واحدة من أفضل نساء مصر.. ورأيي في سلوكها؟ إذن فقد رأيت أو سمعت منها ما لا يرضي وما يمس الشرف.
— لماذا كبرت الموضوع؟.. مجرد سؤال.
— هيام الدالي لعلمك تقوم بدور ثلاث أو أربع مؤسسات خيرية.
— هل توزع أموال العائلة على الفقراء؟
— ليست غنية، لكنها تعمل في عدة جمعيات وهي الأمينة المساعدة لجمعية النور لكفالة اليتيم.. وقتها كله لخدمة الأسر وتشغيل السيدات وجمع التبرعات.. لا تؤمن بالمناصب.. قررت عدم الزواج من أجل المحرومين.
— جميل.. المحكمة تنورت.
— كيف عرفتها؟
— سمعت عنها.
— ثم؟
— لم تأت مناسبة كي أقول لك إنني بعض المعاونات لها.. في السر طبعاً.. وإنها تأتيني هنا أحياناً كلما تطلب الأمر لقاءها.. أجمع

من زميلاتي مبلغاً كل أسبوعين، ثلاثة وأسلمه لها.. لعل هذا يخفف عنها.

ــ تحضر إليك كل ثلاثاء.

ــ ليس بالضبط.. ربما تصادف أن يكون كذلك، لأن الاجتماع الأسبوعي للجمعية مساء الثلاثاء.. والمقر الرئيسي قريب من هنا.

ــ أين؟

ــ تعرف أكاديمية مبارك للعلوم، القريبة من ميدان الباشا.. الجمعية خلفها.

ــ لا أرتاح للنساء المنقبات.

ــ الملابس لا قيمة لها.. مجرد مظهر.. العبرة بالجوهر.. لا تأخذ موقفاً من الناس بناء على الشكل.. سأحاول أن أعرفك بها.

ــ مسألة غير مريحة بالمرة.. أحس أن كائناً مجهولاً يتحرك أمامي. لا أعرف له رأساً من رجل، ولا أعرف كيف أتصرف.

ــ أنت مالك ومال المنقبات، تريد أن تنظر إليهن أيضاً.. حاذر مني.. أقتلك لو بصيت لغيري.

ضحك ورقص قلبه لغيرتها عليه:

ــ وزوجتي؟

ــ لن تنزلني عن عرشي.

دنا منها ودنت منه.. قبلها ثم قال بدلال وشغف وهو يحرك حاجبيه:

ــ لم تخلق بعد من تنزلك عن عرشك يا أميرة.

قبلها من جديد قبلة طويلة.. لم تكن قبلة بقدر ما كانت توقيعاً جديداً على وثيقة حبها وثقته فيها وسعادته غير العادية برفقتها التي من المؤكد أنها ستدوم لنهاية العمر:

ــ "شفايفك عسل يا ابن الإيه".. اشرب الشاي قبل أن يبرد.

كانت قد أعدت نفسها جيداً لأسئلته التي انتظرتها من شهور عندما عرفت أنه أوصى رشدان البواب لإبلاغه عن زائريها.. ابتلعته بسهولة ولم تسمح للشك أن يتسلل إلى نفسه تجاه سلوكها.

كان رشدان قد رضي عن المرتب الذي خصصه له فادي راسخ وفتح عينيه على الآخر لمتابعة كل شئون مايسة.. وسقى زوجتـــه حبيبة الحرص على إبلاغه بكل ما تراه.. في المواعيد يكونا معـــاً "زنهار"، والراقصة تخرج.. تركب سيارتها الرينوه الليموني، وهـي تعود، وماذا تحمل في يديها ومساعدتها التي تحمل حقيبتها عندمـــا تعود.. قائمة بما تكلف رشدان بشرائه إذا كان جديداً وغريباً، أمـــا المعتاد فلا بأس من تجاهله.. كل جسديهما آذان صاغيـــة وعيـــون محدقة.

رشدان يعرف أن هيام الدالي المنقبة ذات النظارات الطبية تأتيها في الأغلب يوم الثلاثاء، وتبقى معها من نحو الرابعة عصراً حتـــى العاشرة ويهبطان معاً.. تركب فـــي العـــادة ســـيارتها الخنفســـاء الفضية.. وترتدي دائماً زيها الأسود. لا يظهر منها سنتيمتر واحـــد حتى اليدين مختبئتين في القفاز، إلى أن جاء اليوم الفاصل.. ودائمـــاً هناك ذلك اليوم.. وتلك اللحظة الفارقة التـــي تقلـــب أحيانـــاً كـــل المناضد وتفتح الأقفال وتحدد المواقع والمسئوليات. في تلك اللحظـــة كانت حبيبة تمسح درج السلم قادمة من الدور الثاني عشر.. تـــنزل ومعها جردلها درجة درجة.. تدعك بالفرشة وتجفف بالخيشة علـــى مهل لأنها حامل في شهرها الخامس.. وقبل الدور التاسع بدرجـــات قليلة شعرت بالإرهاق. جلست ترتاح لحظـــات. وقـــف المصعـــد أمامها، خرجت منه هيام هانم، وسرعان ما تعثرت قدمها بعـــد أن داست ذيل فستانها الأسود، ووقعت، إلا أنها بسرعة اعتمدت علـــى يديها.. سقطت النظارة والخمار.. انكشف الوجه المشعر والساعدان المشعران.. سمعت حبيبة بوضوح وقبل أن تسرع إليـــها، صوتـــها الخشن تقول:

ــ كنت حاسس أن هذا اللبس سيكسر رجلي يوماً ما.

تراجعت حبيبة وكتمت أنفاسها وتوارت خلف عمود خرســـاني عريض على يسار السلم.. هيام تلفتت متوجسة. ضغطت الجـــرس. فتحت مايسة.. اندفعت هيام بسرعة..

وقفت حبيبة تستعيد كل ما جرى وتتأكد مما رأتــــه.. ارتعـــدت واضطربت.. وضعت كفيها حول وجهها.. ظلت ذاهلة تحدق فـــي باب الشقة، ولما أفاقت قليلاً من هول ما رأت أسرعت إلى رشدان:

ـــ يا نهار أسود ومسخم ومطين.. أنت متأكدة يا حبيبة؟

ـــ متأكدة يا رشدان وإلا لم أقل لك.. ما العمل؟

ـــ عمل.. مصيبة وحطت.

ظل رشدان وهو ينتفض يدور حول نفســـه ويضـــرب قبضتـــه اليمنى في راحة يده اليسرى.. يمشي منكس الـــرأس فـــي مدخـــل العمارة الطويل.. يرجع إلى الباب الكبير وينظر إلى الشارع كأنـــــه يشحن بطارية التفكير.. يعود للمشي في المدخل الطويل الذي يشـــبه نفقاً عالي السقف.. أخيراً قال لحبيبة:

ـــ لازم يعرف.. لازم.. أي تصرف آخـــر ســـتكون المصيبـــة عشرة.

خرج من العمارة ومضى مسرعاً إلى الكشك المجـــاور لقصـــر ثقافة سوزان مبارك. طلب الموبايل. اتخذ جانباً حتى لا يستمع إليـــه المتطفل صاحب الكشك.

قال لفادي: يا بك.. هيام الدالي المنقبة جـــاءت الآن وشـــكلها لا يريحني.

ـــ كيف؟

ـــ لا أعرف.

ـــ ولماذا تشك فيها؟

ـــ أنا عملت ما عليَّ وبلغتك.

ـــ فهمني يا ابن القحبة.

ـــ خلاص يا بك.. أنا الغلطان.

ـــ يا حمار فهمني.. ماذا لاحظت؟.. احضر وأهجم بدون سبب؟

ـــ بالعربي أظن أنها رجل.

اختفى الخط بعد إغلاق السماعة في وجهه.

تنهد رشدان راضياً بحسن التصرف وتسليم الأمانة، سوف لـــن يضار لو كان تسرع وأبلغه دون داع، أو لو كان مجرد سوء فـهم.. على العكس سيدرك أنه مفتوح العينين وعند حسن ظنه.

كان شوقي راسخ يعلم بنزوات ولده، ويعلــم أنـــه يســـهر هنـــا وهناك، ليومين أو ثلاثة، لكنه في العمل صاحب إنجاز ويحل الكثير من المشاكل وينهض بالصعب من الأمور، ويستطيع التعـــامل مـــع العمال. جعلهم عندما يرون فقط سيارته من بعيد وحتى دون أن تقع عليه عيونهم يعملون بجد واهتمام وحماس، ليس مهماً أن يكون ذلك بسبب الخوف. كما يعرف كيف يتعامل مع موظفي الدولة وينـــهي الإجراءات ويعقد الصفقات.. لذلك لم يحـــاول أن يفتـــح معـــه أي موضوع نسائي إلا الزواج.. ولم يجد صعوبة في إقناعه بزواجـــه من ابنة الوزير، وفوجئ به يقول له:

ــ موافق دون أن أراها حتى لو كانت شكل كوندليزا رايس.

فرح يومها شوقي جداً.

وكان يعلم أنه عشيق الراقصة مايسة وأنها يسكنها فـــي شـــقته، ومؤخراً فتح لها شركة في شامبليون، بل ويعلم أنه أعطى لأخيـــها عملية مقاولات من الباطن.. ويعلم أن ولده اصطحبها معه عندمـــا سافر إلى ألمانيا والنمسا وإيطاليا منذ شهرين بعد أن تزوج، وأنـــه يبيت معها كل ليلة سبت يوم عطلة مايسة.. كل هذا يعرفـــه، لكـــن إعجابه برجولة ابنه وكونه مطواعاً وصاحب إنجاز قرر أن يـــدع لشبابه الفرصة كي يتذوق الورود، وليفسح لسنه مساحة يروح بـــها عن نفسه ويجدد نشاطه وينفس فيها عن إحساسه بالثراء.

حالة ابني أحسن من حالتي ــ هكذا حدث نفســه ــ صحيـــح لا أقترف الزنا وكله بالحلال، لكن الزواج مزعج ومسئوليات وحســـاب الملكين، وكل واحدة تريد مملكة مستقلة، وكل واحدة تريدنـــي لـــها وحدها.. حسن أن تكون لفادي صديقة وزوجة واحدة.. ولا بأس أن تكون الصديقة اثنتين أو ثلاث، كلهن مقدور عليهن. أما أنا فأعـــاني

الأمرين مع ندى.. ولو.. لن أتركها حتى لـو طلقـت عـدداً مـن الحريم.. ما الداعي لكل هذا الجيش؟!
أما ما جرى فلم يكن في الحسبان.
ما إن تلقى فادي مكالمة رشدان حتى كان بعد ربع ساعة يخـوج مفتاحه ويتسلل إلى الشقة. لم يجد أحداً في الصالة إلا ملابس هيـام السوداء على كتف أحد كراسي الأنتريه علـى اليميـن.. وتحـت صورة أنور السادات الكبيرة بالبايب في فمه، يضـع سـاقاً فـوق ساق.. كان أبوه قد طبع منها عشرة نسخ بناء على طلب الحـزب، أعطى اثنتين لفادي، علق لمايسة واحدة والأخـرى مرميـة فـوق دولاب في مكتب من المكاتب.
وقف ثوان.. وجهه في وجه السادات بعد أن أمسك الزي الأسود وشمه بحركة لا إرادية.. أخرج مسدسه بهدوء شديد واطمأن علـى امتلائه وأصاخ السمع.. مشى إلى حجـرة النـوم دون أن يلمـس الأرض.. قلبه يدق ويداه ترتعشان.. الموقـف صعـب وخطـير.. تمهل عند الباب لحظة.. وصلته أصوات ضحك خفيـف وهمـس وتأوه.. أقنع نفسه أنه جاهز للانتقام.. لن يتركـها إلا جثـة ولـن يتركه.. ماذا لو لم يكن الوضع كما يتصور؟.. منـع نفسـه مـن مواصلة التفكير أو تقليب الأمر.
بهدوء شديد فتح الباب.. تحركت الأكرة بنعومة.. السرير أمامـه مباشرة والجسدان الملتحمان فوقه.. ميز جسد مايسة التـي كـانت فوق رجل عارية تماماً، توجه نحوه مؤخرتها الوردية.. نهشت قلبه فجأة قبضة حديدية وسحقته كحبة طماطم.. لمحه الرجل المطل مـن بين الأثداء العامرة المتدلية،فتح فاه، أما عيناه فكانتا متسعتين إلـى أقصاهما بشكل جنوني مرعب وصارخ.. سألته عما به فأشار لـها بهزة طفيفة.. أطلقت شعرها الطويل البني خلف ظهرها.. طوحتـه برأسها، ولما وقعت عيناها على حامل المسدس، لم يتح لها أن تأتي بأي حركة إلا السقوط فوق من كان تحتها مع إطـلاق الرصـاص

الذي انهمر عليها وعليه، ولم يتوقف الموت المركز إلا بعـــد نفـــاد المسدس من الرصاصات القاتلة.

بصق عليهما عدة بصقات، وفكر أن يشعل فيهما النـــار، لكنـــه كان في قمة أساه وغضبه وانهياره، وفكر أن يطلق عل نفسه النار، لكنه رفض أن يموت مثلهما.. هما الجديران بالموت وهو يجـب أن يعيش.. سوف يعيش بصرف النظر عن انتهاء الرصاص.

أسرع بالخروج دون أن يدري ماذا عليه أن يفعل.. انطلق إلـــى الإسكندرية ونزل بالشاليه.. كان عصبياً جداً وثائراً جداً.. لم يكـــن معه مفتاح الشاليه.. اضطر لكسر الباب.. جلس أمام البحر.. قـــام وقعد.. ضرب الرمل بقدمه.. نزل إلى البحر بملابسه.. سبح بعيـــداً ثم عاد مبتلاً.. طلب طعاماً من مطعم شهير..اتصل والـــده علـــى الموبايل.. أغلقه.. جاء الطعام.. لم يأكل.. ركـــب الســـيارة وأخـــذ يجري بسرعة في شوارع الإسكندرية.. لم يستطع أن يفكر.. يدخـن السجائر بشراهة وينفث الدخان بضيق شـــديد. كـــان يبحـــث عـــن الخلاص.. لا يود أن يموت لكنه يريد أن يغيب عـــن الوعـــي.. لا يستطيع أن ينام أو يأكل أو يمشي أو يعود أو يموت.. أو.. اشـــترى منوماً وزجاجة "هوايت هورس".. عاد إلى الشـــاليه.. لـــم يخلـــع ملابسه.. تجرع نصف الزجاجة.. تذكر فجأة مشهد مايسة وهي في أحضانه منذ أسبوعين تكاد تترقرق في عينيها الدموع.. وهو يتأهب لمغادرة الشقة صباح الأحد.. تمسك به قائلة:

ــ ابق معي قليلاً.. أم تتعجل الذهاب لزوجتك.

ــ عندي اليوم عمل كثير.

تراقصت برشاقة وهزته معها.. وشرعت تغني لأم كلثوم:

ــ "واسهر اسمع نبض قلبي بيناديك.. روحي فيك مهما جـوى.. أنا روحي فيك..تسوى إيه الدنيا وانت مش معايا.. هي الدنيا.. تبقى دنيا إلا بيك".

بعزم ما فيه أطاح بالزجاجة في المـــرآة فتحطمتـــا.. تحطمتـــا وتحطم.

كان قد ابتلع أربع حبات.. لم يلبث أن سقط في بئر النوم العميقة.

حال نومه الطويل الهادئ دون أن يقرأ في الصباح ما نشرت جميع الصحف في الصفحة الأولى.. "رجل أعمال شاب يقتل عشيقته الراقصة الشهيرة وعشيقها لاعب الكرة الشهير وهما في الفراش.. اللاعب يتخفى عند زيارتها في زي سيدة منقبة"

البحر هائج ممتد.. مساحات هائلة من الماء الصاخب.. المـــوج عنيف له لطمات.. السماء صافية إلا من بعــض البقــع البيضـــاء المتجمعة المهشمة ترقب بإشفاق ذلك الزورق الضعيف.. يمتطيـــه خمسون شاباً، لا ينقطع رعبهم من مشهد الأمواج العاليـــة وتقلبــها صعوداً وهبوطاً.. حين تقع عيونهم على قلب المياه المعتمة يدركون على الفور فداحة النهاية وبشاعة الأعماق.. خمسون شاباً قرروا أن يهجروا الوطن، ليس مهماً أن تكون الهجرة مؤقتة أو دائمة، هذا مـا لم يفكروا فيه، أبى كل منهم مجرد طرح الســؤال.. إذ فــي زعــم البعض لا معنى له ولا قيمة.. الهدف الوحيد هو مغادرة البـــلاد.. التخلص من أغلال العيش المهين.. من الدائرة الخانقة التي تحاصر كل الشباب على وجه الخصوص.. عشرة ملايين يودون لو يحــذوا حذوهم.

عنفوان الموج يتوالى بلا انقطاع.. هدير وصخب واجتيــاح.. لا تأتي لحظة واحدة يهدأ فيها هذا العالم المجنون الذي لم يكن الشـباب يتصورونه.. لا يقدر على شق الماء الجبار إلا السفن الجبـــارة.. لا يفل الحديد إلا الحديد.. الماء في كل الأحوال أقوى.. أقـــوى مـــن النار والحديد وأحياناً.. أقوى من الإنسان.

خمسون شاباً تخفق قلوبهم باستمرار كلما طالعهم الموج وطلـــع عليهم.. لم يستطيعوا التخلص من إحساســهم المبكــر بالضيــاع.. المركب صغير لا يسمح بالحركة، بالكاد يكفيهم جلوساً دون بســط الأذرع.. ثلاثة أيام مضت وهم في عرض الأبيـــض المتوســط.. بعضهم قال: لا هو أبيض ولا متوسط، وبعضهم قال: فمـــا شــكل المحيطات إذن؟وبعضهم قال: لا أمل في النجـاة إلا إذا أراد الله.. لا تكفوا عن الدعاء.. البعض حاور نفسه: أكان بديلاً عن بلادنا هـــذا

الموت المحقق؟.. أكان العيش فقراء في أمان أفضل من ركوب الخطر على أمل الانتقال إلى حياة أيسر؟. هذا الاختيار الصعب الذي نوضع فيه ولا أقول نضع أنفسنا فيه.. فلم تكن ثمة إرادة ولا اختيار ولا حتى تفضيل بين حسن وأحسن داخل الديار.. لم يكن إلا السفر.. إلا فك القيود والاندفاع خارج الدائرة المحكمة التي لا تسمح لنا إلا باليأس والكمد وفقد الرؤية وعتامة الأفق والشك دوما في طلوع النهار.. كيف صار للمصريين مصير واحد تقريبا في كل العهود.. هذا المصير المعلق بين المطرقة والسندان.. ثمة أبدا مطرقة وسندان ونحن جلوس في المكان المعهود والمخصص لنا.. سطح السندان الناعم الأملس الممتد فسيحاً وممهداً تحتنا، وعيوننا وقلوبنا صوب المطرقة التي تحمحم وتئذ وتزمجر وهي تشق الفضاء قادمة بكل ثقلها نحونا.

الشباب الخمسون في طبق بيضاوي هزيل ومسطح.. تعبث به المياه في يسر.. الشباب الخمسون يتضورون جوعاً فقد نفد الطعام الذي لم يكن منذ البداية يكفي إلا يومين وهم الآن على مشارف الرابع، وعلى مشارف الغرق، وعلى مشارف السخط، لكنهم في قلب الرعب تنهشهم أنيابه وتفري أكبادهم.

الشباب الخمسون يوجهون أنظارهم تجاه الشمال لعل شواطئ إيطاليا المأمولة تفاجئهم بالظهور، لم يمنع بعضهم هطول الخواطر المفعمة بالمستحيل.. ماذا لو اقتربت يابسة الروم عدة كيلومترات؟.. ما أروع أن نصطدم بالشاطئ الآن!. نسقط قبله بكيلومتر واحد ونكمل المسيرة نحو الهدف سباحة.

أنت لا تقبل يا رب أن يضيع شبابنا في جوف الماء، وكلنا لا نكفي غذاء لعدة أسماك كبيرة.. بعيدون نحن عن الوطن والأهل والأحباب، غارقة معنا آمالنا التي لا تحدها أبداً حدود.

دفع كل منهم خمسة عشر ألف جنيه ليركب هذا الزورق الذي يشبه قشة على صهوة هذا الموج العاتي.. خرجوا من القاهرة برا بالسيارات إلى ليبيا حتى وصلوا قرية مهجورة غرب طرابلس

مطلة على البحر المتوسط حيث أقاموا في معسكر مثـل عنـبر أو إسطبل خمسة أيام في انتظار الزورق.. الأكاذيب تتوالى والوعـود البراقة.. الزورق يتسع لمائة.. هاتوا الأوراق الخاصة بكم حتـى لا يسهل القبض عليكم.. لا تذكروا أنكم قادمون من بلد عربي.. ادعوا عدم الفهم مع سلطات الحدود والجمارك.. الطعام يكفيكم أسـبوعا.. الزورق قوي وسريع.. لا يزعجكم حجمه.. العنبر القذر الممتلـئ بالحشرات كان البداية.. وعندما أعلـن صـاحب الكلمـة ومديـر المغامرة أن ساعة الانطلاق قد حانت هلل الجميع ولم يستشـعروا الخطر، كان كل منهم يتمنى أن تترعرع أمانيه بعيداً عن حشـرات العنبر المشبوه.

نصف مليون جنيه تقريباً أخذها المسئولون عن الرحلة وتبـددوا جميعاً فجأة فور احتضان الماء للزورق وتمايله وانطلاقـه الواعـد والمعتد برشاقته، زارعاً الأمل في نفوس المتلهفين لحيـاة جديـدة تعيدهم بعد سنوات قليلة إلى بلادهم وقد حملـوا الـهدايا المدهشـة وأكياس الأموال.. حينئذٍ يستطيعون بناء المنازل واختيـار أجمـل البنات وربما أمكن أيضاً ركوب السـيارات.. حينئـذ يسـتطيعون دخول أي مطعم كبير ليأكلوا وذووهم ما يشتهون ويشتروا الأجـهزة الحديثة.. يمشون مرفوعي الرءوس وقد خلت من العيـون الكآبـة ومن القلوب التعاسة وأزيحت تماماً من الأعماق أكـداس اليـأس. هكذا اندفع الزورق يقفز فوق الماء ويلوح لليابسة العربيـة مؤكـداً بداية الرحلة إلى العالم الجميل وداعياً الشباب ليتوجهوا بأنظـارهم نحو الغد الجديد والمختلف.

تلك الرحلة التي تمناها سمير منذ سنوات، وظلت بالنسـبة لـه حلماً شفافاً وراقصاً تلتف به جوانحه، وهكذا كان الحلم أيضاً لكـل الشباب الذي درس أو لم يدرس على أمل أن تكون له مساحة لائقـة في الحياة.

انقلب الزورق في اليوم الرابع فجأة بعد أن هجم عليه جبل مـن الماء، ظهر بغتة من الغرب وكان النهار يوشـك علـى مداعبـة

العيون. بهت الشباب ولم يكن ما يخافون عليه إلا الأرواح، أسرع بعضهم ليتشبث بالزورق.. كانت ربطات من الحبال عند المقدمة والمؤخرة.. وكان عدد من إطارات السيارات.. أوشك البعض على الغرق، فعاونهم زملاؤهم، وأمكنهم بعد جهود ومحاولات دامت ساعتين إعادة الزورق إلى وضعه الصحيح وقفزوا فوقه وهم حزانى فقد فقدوا خمسة.. كان من بينهم شابان لطيفان للغاية.. يتميزان بحب الآخرين والاستمتاع بخدمتهم.. يميلون كثيراً للضحك والإضحاك، حتى لقد استشعر الباقون سعادتهم بهذين الشابين اللذين يمثلان الونس الحقيقي والحيوية وخفة الروح.

جلسوا يتضورون برداً ورعباً.. بكى البعض وسب البعض السفلة المجرمين الذين خدعوهم وحولوهم في لحظات إلى لقمة سهلة بين أضراسهم.. صدقوا ما لا يصدق، وبنوا الآمال على الرمال وسال لعابهم عندما تحدثت ألسنة الغواية عمن سبق ذهابهم بمعونتهم وعادوا بالأحمال.. اشتعلت معارك لفظية بين شاب وجاره الذي اتهمه بأنه السبب في اجتذابه للشرك بعد أن فقدت عائلته كل شيء.

يذكر ثان أنه سرق ذهب أمه ولم ينس ثالث أنه باع من أجل هذه الرحلة الجاموسة ونصف المحصول، ورابع سبق أن اعترف بأن أباه باع من أجله ثلاثة قراريط، وخامس اقترض وسادس سرق صاحب المحل الذي كان يعمل به وسابع أخذ المال من الفاكهي الذي ألح طويلاً في الزواج بأخته.. وثلاثة أنكر كل منهم حقيقة ما فعل كي يحصل على النقود، فقد اضطروا لقتل ضحاياهم.

التعب والجوع واليأس أرغم الجميع على الكف عن العراك..المسألة لا تحتمل المزيد من النار وتعميق الجراح.. الأمل مازال في الله ويده الرحيمة.. توقعوا أن تكون اليابسة قد اقتربت.. سقط بعضهم طريح النوم.. فتش الباقون عن لقمة أو علبة بسكويت أو قطعة شيكولاتة.. لحس واحد بقايا سكر كانت في كيس بلاستيك ووجد آخر قطعة صغيرة من الشيكولاتة.. وعثر ثالث بقشر

برتقالة.. إلى أن هبت موجة عالية من الماء، لا تقل عن الموجة السابقة ومن نفس اتجاهها.. قلبت الزورق.

كافح الشباب لإعادة الزورق كفاحاً عنيفاً ومستميتاً حتى لا تكون النهاية.. لكن الاضطراب كان واضحاً والجهد ضعيفاً والزورق يهتز بشدة، والشباب لا يمتلكون القدرة للسيطرة عليه إلى أن فوجئوا بهجمة تالية أعلى من الأولى.. خطفت منهم الزورق وغيبته عن عيونهم، وما عثروا عليه بنظراتهم إلا وقد فارقهم بنحو مائة متر.

أسرعوا يسبحون باتجاهه. لا أمل على الإطلاق في نجاة إلا به.. معدولاً كان أو مقلوباً.. سبح من يستطيع وغرق من لم يستطع.. ثم غرق بعد ذلك من لم تؤازره قوته في بلوغ الزورق.. ولم يصل إليه إلا سبعة.. ظلوا يكافحون ليعتدل إلى أن أفلحوا.. وفوجئوا أن سائقه كان من الغارقين وأن "محرك معطل.. نزعوا بعض أخشاب القاع، ومضوا يجدفون في اتجاه الشمال اعتماداً على أن الشمس التي تتجه نحو الغروب أصبحت على يسارهم.. جدفوا وجدفوا حتى كلت أبدانهم تماماً وسقطوا في القاع لا يمتلكون القدرة حتى على النظر إلى السماء المعتمة والأفق المظلم، ولدهشتهم كان الزورق يرقص هادئاً مستمتعاً بدغدغات الموج الرحيم.

رضي السبعة بما هم فيه.. وكيف لا يرضون؟!. وسرعان ما استشعروا البرد الشديد.. أشعلوا النار في بعض خشبات صغيرة.. استدفأوا وحمدوا الله وتركوا لأنفسهم الفرصة للبكاء.. سمحوا للدموع أن تسيل على كل شيء ومن أجل كل شيء.. حتى من أجل النجاة التي تشملهم إلى الآن على الأقل.. تساءلوا عن سر ما جرى وعن سر هذا الفشل الذي يطيح بكل شيء.. تساءلوا عن التجربة والضحايا وما هي نتيجتها حتى على فرص وصولهم.. تساءلوا عن الجوع وطول المسافة.. تساءلوا عن السر في هدوء الموج بعد العنف المرير طوال الأيام الخمسة والهياج.

قام أحدهم يجرب من جديد إصلاح المحرك.. كان عاملاً فنيـــاً في مصنع مبارك للبطاريات ويعمل أربع ساعات كـــل ليلـــة فـــي ورشة إصلاح سيارات.. استعان بحزامـــه الجلـــدي ليلفـــه حـــول المروحة، وأوصل عدة أسلاك مقطوعة وتـــابع محاولاتـــه حتـــى استطاع إدارته.. وما إن قطع بهم كيلومترين حتى واجهوا رجـــال الشرطة البحرية.. اقتادوا زورقهم إلى الشاطئ وأودعوهم الســـجن لحين ترحيلهم.. لم ينكروا أنهم مصريون.

هذا ما حكاه سيد زهران زميل سمير لأهله عندما عاد والســـتة إلى بلادهم شاكرين الله على السلامة.. وتوبة.. تراب أرضنا أحـــن علينا مهما جرى، والأيام مسيرها تتغير.

كانت المهمة صعبة، لكن شخصاً ما كان عليه أن يقوم بها حتـــى يطمئن الأهل على ولدهم الذي غيبته أعماق البحر وأمواجه العاتيـــة في هجمتها الحاسمة التي أطاحت بثمانية وثلاثين شاباً دفعة واحـــدة. من بقدرته ترميم القلوب المحطمة غير الله الذي تعـــود أن يـــزود المصريين فقط.. بالصبر، حتى كرهوه برغم صبرهم عليه.

ياسر إنسان جميل للغاية.. أفضلنا جميعـــاً.. الطيبـــة والوفـــاء والذكاء والوطنية.. الهدوء وحب العمل.. ليس فينا من يماثلـــه ولا حتى المرحوم حسني.. أحببته جداً لصفاته ومواقفه ودرجة التـــوازن العالية التي يتمتع بها.. لم أتصور أن أكون مثله، ولم يدر بخـــلطري أن أتمنى ذلك.. فكثيراً ما تعجبنـــي طبـــاعي.. وتســـرني طريقـــة تفكيري.. وآرائي إلى حد كبير صائبة.. لكنني أشعر الآن أكثر مـــن أي وقت مضى أن ياسر كان الأفضل.. تحفظي الوحيد كان هـــدوء أعصابه وامتلاكه لنفسه إزاء أشياء تستدعي الانفجار.

هذا الإنسان الجميل.. أخيراً عثر عليه في ثلاجة، مثله مثل علبة تونة أو قطعة جبن أو.. هل هذا السلوك يمكـــن أن يصـــدر عـــن بشر!!. ما بال الإنسان في بلادنا مجرد فردة "جزمـــة".. خرقـــة لا تصلح للاستعمال ولو لمسح الترابيزات.. أســـهل شـــيء وأقـــرب تصرف العدوان على كرامة الإنسان وازدرائه وفي أحيان كثـــيرة دهسه، والأعجب.. عدم الشعور بلحظة ندم.. لو في مصر ألف من نوعية ياسر لكان الحال غير الحال. لكن عدداً كبيراً يؤرقهم ياســـر وأمثاله لذلك لا يسمحون له ولا لغيره بأن يتحـــرك فـــي مســـاحة كبيرة.. يجب حصاره وكتمه ونزع أية ألسنة أو أقلام أو إشـــارات.. فهل احتاج الأمر مع ياسر إعدامه بعد سحق عظامه وتمزيق قلبـــه.. لقد قامت الشرطة بمهمتها خير قيام.. أليست في خدمـــة الشـــعب!! المشكلة تكمن في: أي شعب؟.. هناك كما هو معـــروف ومســـتقر شعبان.. شعب كبير وشعب صغير.. شعب فاخر سعيد ينال كل مـــا يريد وما لا يريد وهو الصغير عدداً، الكبير مكانة وتأثيراً والطويـــل يداً.. القوي المكين.. القادر والجبار. وشعب هائل العدد يخوض في مستنقع فقره.. فقره المخصص له.. هو ليس مستنقع الفقر.. وإنمـــا

فقره الذي يمتلكه ملكية تاريخية أصيلة أباً عن جد، ولا يستطيع أي شخص أو مسئول أو حاكم أن ينازعه هذا الشرف، والفقر له مستلزمات وتوابع.. مثل الضرب وكل أشكال الإهانة ومثل الإذلال والعوز والطرد والحرمان من أية حقوق، ومثل المفاجآت غير السارة.. وطبعاً مثل السجون والتعذيب ومثل الأمراض ومص الدماء ومثل تجميعهم للمشروعات.. كبناء الجسور وحفر القنوات والترع.. ودفعهم للحروب حتى التي لا تخصهم.. مع الأتراك ومع الإنجليز.. بل ذهب الكثير من المصريين إلى المكسيك للدفاع عن الأقليات الفرنسية لمدة تزيد عن أربع سنوات.. وقد اعترفت الحكومة الفرنسية بكرم الوالي سعيد باشا والخديو إسماعيل وعبر عن ذلك الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث مؤكداً أهمية العلاقات الخاصة بينه وبين الخديوي.

كيف يتغير الوضع وتتحول الصورة.. المشكلة في ظني تكمن في طعم السلطة وحلاوة الكرسي ولذة إصدار القرار وروعة التحكم في العباد وسحر القدرة على أن يقول الحاكم.. لا تفعل كذا وافعل كيت.. إنه العمق الحقيقي للفقر.. الحرمان الطويل من امتلاك المصير.. توفر حق الاختيار لأتفه الأمور.

أيدني محمود عبد الباسط وكريم صبحي وفكري نمنم، حتى أخي سيد الذي انضم بقوة لفريق البحث عن أخيه.. صحيح أنها كانت فترة إجازة نهاية الدراسة، لكنه كان يعمل ويجري في صمت ويسأل بحماس ويستعين حتى بآباء التلاميذ.

مسكين.. غير الجري وراء المال شكله.. ابتعد تدريجياً عنا.. لا أدري كيف؟.. مرت ثلاث سنوات دون رؤيته، فإذا هو شخص آخر ازداد اسمراراً وتكاثرت في وجهه التجاعيد.. شاب شعره.. فقد سنتين على الأقل من القواطع الأمامية.. جف عوده.. أشفقت عليه.. هذا هو اللهاث في أعقاب النقود وشم رائحتها والتربص لها عند كل طريق وكل ناصية والتماسها حتى في الجحور.. جثة حية

تتحرك وتجري في كل اتجاه. فكرت في لقاء خضر ليفكر معي في طريقة للانتقام من قاتل ياسر.. لم أتحمس للطريق كله.

أسقط في يدي..أجلت التعامل مع كامل سركيس لحين التأكد مما جرى لياسر.. ولما انتهت الجهود للنتيجة التعسة وعزمت على الانتقام من الكلب.. صدر قرار جمهوري بتوليه وزارة الصناعة.. استشرت كبار المحامين.. أجمعوا على أن القضية خاسرة مائة في المائة، فما هي الأدلة وأين الشهود وما المستندات؟.. لا تقوم قضية ولا دفاع على أقوال مرسلة أو حتى منطقية.خفف عني محمود عبد الباسط كثيراً.. كشف عن حب عميق لياسر وعن شهامة نادرة.. كان يزورني في بيتنا القديم.. عند نوال.. عرض عليَّ الزواج بها.. فاتحتها.. رفضت.. قالت: يا مولاي كما خلقتني.. سيكون عبئاً لا سنداً.. وقدرت شاعريته وطيبته.

فوجئت بنادر الإسكندراني.. يدخل عليَّ.. دهشت.. حدثني عن معرفته بما جرى لياسر من صديق مشترك.. رحبت به نوال.. تحدد يوم مناقشة رسالته.. تزوجت بغيره من أحبها.. اعجب بنوال وأعجبت به.. حدثني عن مأساة والدته التي رحلت مؤخراً بعد رحلة طويلة مع المرض.. كان يعشقها.. قال إن نوال تشبهها كثيراً.. من جيبه أخرج صورة لأمه وهي شابة.. فعلاً تشبه كثيراً نوال.. سألتني نوال عن ساقه الصناعية.. سهر معنا.. ألححت في بقائه.. وافق.. بعد أيام عاد مرة أخرى ليطلب يد نوال.. قلت له: بعد المناقشة.. سألت نوال.. وافقت.

فرحي بعرض نادر أزاح حزني على ياسر بعض الوقت ومع ذلك ظلت تعاستي راسخة. أنام كثيراً وأستيقظ مجهداً كأني كنت أحمل الأثقال وأسير بها الأميال.

أدهشني جداً حب نادر لأولاد نوال، كنت واضحاً معهما.. لن أتخلى عن مجدي.. سيكون ابني الذي لن أفارقه وسأرعى بكل فكري ومالي ووقتي مواهبه.

منذ زرت نوال لم أعد إلى الشقة لأواصل عملـــي.. لا توجـد رأس للرسالة ولا يوجد ضمير مرتاح ولا نفس ولا مـــزاج.. أيـــن أنت يامزاج؟.. أجمل النكات سمعتها منك.. ربنا أخذ منك كل حاجة وأعطاك خفة الدم وثقل اللحم. محمود منـــذ خـــرج مـــن المعتقـل يلازمني.. أحببته جداً.. أعجبني وواساني شعره.. يقول في آخـــر قصيدة.. "المواطن عكاشة":

"طلب عرضحال
عليه دمغة ميري، بياناته كامله
كل اللي طالبه
حسابي وأروح
لأني زهقت
ومش ناوي أبقى مواطن لحد
تمصمص شفايفك
وح تقول عبيط
وعارف لأنك كمسئول كبير
مزفلط.. مسبسب
شياكه.. رقيق
وأجمل ما فيك
البدل والقيافة
فكمل لطافه
ووافق عليه
لأني زهقت ومش ناوي أبقى
مواطن لحد
ويشفع تاريخي
لطلبي الوحيد
عكاشة اللي حارب
ومات مرتين
وماشي في جنازته

وواخد عزاه
وكنت في صواني
مشرف سيادتك
وف الانتخاب
أنا اللي انتخبتك
بذمة جنابك حاجات مش تضحك
فسيبك بقى م الخطط والسياسة
بتيجي تخطط تخطط عليا
بقيت الحمار المخطط بتاعك
ففك اللجام والغما عن عينيه
وسيبني أبرطع بعيد عن جنابك
لأني زهقت
ومش ناوي أبقى
مواطن لحد
تقوللي بلادي الجميلة وترابها
سلام للتراب
عشقت التراب
عشان الحلاوة اللي فيها بلادي
أسف التراب
ومرمغت روحي في حلمه الكبير
عملته طواجن، وكلت بضمير
لكني زهقت
ومش ناوي أبقى
مواطن لحد
ح اسيب العمار اللي سموه وطن
وألازم حدوده
كده حر نفسي
بلا أي مانع

ح اكون العكاشة الوحيد السعيد
تقوللي انتماءك.. جدودك.. وعاش
ح اقولك كلام الأغاني بلاش
لهذا.. وعليه
إليك البيان العكاشة الأخير
عكاشة معادشي مواطن لديكم
لأني زهقت
ومش ناوي أبقى
مواطن لحد

أعجبتني القصيدة.. كدت أبكي لولا أني عصي الدمع.. لم أجد الحماسة لأفسد إعجابي وأقول له.. لا داع لليأس، وكله إلا الوطن.. يخرب بيت الوطن.. مهما جرى.. الوطن كيان أكبر بكثير من المقدسات.. الوطن ابن الكلب يا أولاد الكلب.. يحتاج ناس آخرين غيرنا.. آه.. آه.. لأول مرة أشعر أن هناك آهات يمكن أن تخرج بالدم من كعوب رجليَّ. هل نحن مواطنون نمر فقط عبر هذا الوطن المتنازع عليه عبر التاريخ.

أي وطن هذا الذي لا يستطيع أن يعيش فيه ياسر ولا يقبل أن يكون فيه كل ياسر؟!.

أخيراً فرت الدموع من سجنها.. لم أعد أسيطر على منابعها أو مجاريها.

لم تكن أجسامهم كالثلج.. بيضاء ناصعة، كانت كالزجاج شــفافة وصافية.. وصل القادمون من أعمق الأعماق.. نفضـــوا الأجــداث والأتربة.. فتحوا القبور وطلعوا ينشدون العاصمة.. تنـــاهت إلـــى الأحياء أخبار الرحلة العجيبة الزاحفة.

السماء فسيحة وتخلو تماماً من كل أثر لغيم.. تبدو كعين هائلـــة متلهفة لرصد الاحتدام ومتابعة أحداث اللقاء التاريخي والأســطوري بين الشعب والسلطة.

تساءل بعض الأحياء عن جدوى اللقاء.. وضع أحدهم في فمـــه السيجار البني الضخم ذا الرائحة المميزة وقال:

ـــ لا معنى لما عزم عليه القدامى الراحلون.

قال رفيقه:

ـــ أراحوا وارتاحوا فلا قيمة تذكر لتجديد ما فات.

ـــ يتصورون أن لهم حقوقاً.

ـــ أي حقوق؟

ـــ قل وما ذنب حكام اليوم؟

ـــ يقول البعض ديونهم لا تسقط.

ـــ من مات فأجره عند الله.

كل الذين طال انحناء رءوسهم وظـــهورهم وكــل المنـــهوبين جاءوا.. زارعو الأرض وعمال المناجم.. عمال التراحيل. جـــامعو المحاصيل. حفار الترع. المخططون بالسياط.. المدفونون أحيـــاء.. المدفوعون إلى الحروب التعسة.. كل من أصبحت عظامهم أرصفة للذكريات الحزينة.. كل الأرواح التي لم تعرف غير النشيج وتوجيه الأسئلة للرب ولم تتح الفرصة لتلقي إجاباته، ولم يســـمعها أحفـــاد الأحفاد.. لقد مات أكثرهم دون أن يعرفوا لماذا ماتوا؟ ولمـــاذا لـــم

يعيشوا حتى قبل موتهم؟ وهل حانت آجالهم فعلاً.. أم حدث عبث ما في منظومة الحياة؟

هاهم ملفعون بيأسهم واستيائهم وحطام الأمنيات والآهات بينما أغنيات ومواويل العتاب للزمن، تسيل من الأفواه والعيون والأنوف على شكل رغوة.. رغوات كثيفة وثقيلة كرغوات الجمال المحمومة التي تعتقت في أعماقها براكين الغضب.

وفي السماء كانت عشر طائرات هليوكبتر تصور المشهد التاريخي.. حشد جماهيري يغطي كل سنتيمتر في مساحة تتجاوز ألف كيلو.. آلاف المصورين ومثلهم من الصحفيين وكاميرات التليفزيون مثبتة فوق عشرات المباني الرئيسية.. قال المعلق السويدي الذي تناقلت وكالات الأنباء كلماته: مصر ستظل بلد الغرائب والعجائب.. الماضي العريق والمعجزات والتجمعات التاريخية والمشاهد العملاقة.. هنا في مصر يتوقف التاريخ كما توقف قبل نيف وثلاثين سنة ليرصد رحيل عبد الناصر.. يتوقف طويلاً مع هذا الزحف البشري الأسطوري الذي سيقلب كل مناضد السياسة المستقرة في العالم.

مضى القدامى يسألون الأحياء عما يأكلون ويشربون.. الأحياء مشغولون بعودة الموتى إلى الحياة.. يتساءلون عن شكل الحياة داخل القبور والظلمة محدقة والصمت والوحشة وهجوم الدود وحساب الملائكة وعذاب القبر.

سأل البعض عن كيفية تنظيم عملية الخروج وتحديد ساعة الصفر وسأل البعض عن الأصول والتجمعات، وأين يجد أجداده الذين كانوا في منفلوط أو طوخ، أو الدلنجات وبسيون.. أين من ماتوا في قناة السويس، وأين من ماتوا في الحروب والمجاعات.. أين يمكن أن يجدوا موتى الفيضانات والطاعون.. وتساءل الكثيرون عن أهاليهم.. موتى كوم أمبو ونجع حمادي وبركة السبع وفوة والزرقا وسمالوط ومغاغة والبداري والقناطر الخيرية وبهتيم وإيتاي.

القدامى لا يزالون مـــن الأرض ينســـلون وتزدحـــم الطرقـــات بفيضان البشر.. الناس قادمة في طريق طويل من الجنـــوب، إلـــى الشمال.. بداياتها المزدحمة تنتهي عنـــد المنيـــا.. تتدافـــع الكتـــل الزجاجية والمكسية.. الميتة والحية، الطرقات من الوجه البحــــري مكدسة ببشر لا نهاية لهم.. لا ترى منهم الأرض من كفر الـــدوار وكفر الزيات حتى العاصمة.

كل المعذبين المهانين المحرومين يمضون بحماس.. لم يتوقفـــوا ليلاً أو نهاراً.. لم يأخذوا بعض الراحة.. بدأت المسيرات المحتشـــدة منذ عام.

قال بعض الزجاجيين: كان يجب أن نضحي في ســـبيل البـــلاد والعباد.. لن نترك أهل القرن الواحد والعشرين وحدهم يخوضـــون نفس تجاربنا، ويقاسون ما قاسيناه وتطلع عليهم نفـــس الصباحـــات وتطويهم ذات الأمسيات.. تنادينا للخروج بعد صبر طويل وانتظـــار مضن.. كانت تبلغنا الأنباء.. ليس ثمة جديد.. قررنا الفـــداء..لـــن نسمح أبداً باحتضار الوطن.. لابد أن نعمل جميعاً من أجل منحـــه قبلة الحياة.. بارحنا ديارنا الهادئة وراحتنا الأبديـــة.. تخلينـــا عـــن السكون والدعة.. عن راحة البال وتأمل صنع الخالق فـــي تشـــكيل العالم ودوراته المتعاقبة.. هانحن نجيء إليكم لنضع أيادينا معاً مـــن أجل صياغة تقاليد جديدة للحياة في أم الدنيا.. سيدة الحضـــارات.. البلد العريق الطيب الوديع الذي يطمع أهله في حياة تساوي واحـــد على عشرين من حياة الأوروبي أو الياباني.

الكاميرات تدور وتصور، ترمي بعيون عدساتها إلى كل ركـــن، والميكروفونات تحاول أن تلتقط نبض الجماهير المحتشدة.. تقـــترب ممن تتوسم فيهم القدرة على التعبير:

ــ ما رأيك فيما يجري؟

ــ رائع.

ــ هل تتصور أنه مجد؟

ــ جداً.

ـــ كيف؟
ـــ مجرد هذا التجمع الرهيب كفيل بتحقيق المطالب.
ـــ وهي؟
ـــ إعادة بناء المجتمع على أساس النظام والنزاهة والعدل.
ـــ ألم يتحقق من ذلك شيء؟
ـــ على الإطلاق.
ـــ مستوى المعيشة ارتفع وهاهو العمـــران فـــي كـــل مكـــان والأجهزة الحديثة.
ـــ الحياة ليست ما تقول أو ما تراه.. الحياة ما ذكـــرت ســـابقاً: النظام والنزاهة والعدل.
ـــ هل هذه الطريقة يمكن أن تنجز شيئاً؟
ـــ بالقطع.
الحديث كبير ولافت.. لا يملك أي منحاز للسلطة ورجالـــها إلا أن يعترف بأنهم يرتعدون.. الميكروفونات لازالت تتقدم من الأفـواه المحمومة:
ـــ هل تتصور أن الجيش مستعد للتدخل؟
ـــ صعب، بل متعذر.
ـــ عدة دبابات تكفي.
ـــ ولا ألف.
ـــ الموقف معقد.
ـــ ليس معقداً ولكنه متراكم.
ـــ يقولون كل إنسان يختار زوجته التي تشبهه.
ـــ بإمكانه طلاقها.
ـــ متفائل؟
ـــ جداً.
ـــ البعض يتهم الشعب المصري بأنه يهوى الضجيج ولا يملـــك إرادة الفعل.
ـــ هذه المرة.. الأمر يختلف.. يختلف تماماً.

رغم الشعور المتكاثف بالجدوى، كانت أصوات كثيرة تعـــارض هذه المسيرة العمياء.. جهد خارق وتجمع رهيـــب مشـــكوك فـــي جدواه.. تزايدت هذه النبرة اليائسة وتعالت.. ردت عليها الجمـــوع بالزئير والهدير.. ارتجت الأرض.. قرقعت السماء.. ثـــارت ميـــاه الأنهار وانحسرت مياه البحر الأبيض والأحمر إلى النصـــف نحـــو ساعة ثم عادت إلى مستواها.

عادت الجماهير تهدر وتدمدم.. تدريجياً ظهرت بعض الـــرءوس تهتف بأقوى الحناجر.. رددت وراءها الجموع تلك الـــهتافات ثـــم صعد الرجال فوق الأكتاف، وعلت الهتافات وشقت فضاء عريضـــاً مشبوباً..صعد رجال آخرون، وشملت الجميع منظومـــة واحـــدة أو متماثلة في حدها الأدنى.

نريد الحياة.. نريد الأمل.. نريد النظام.. نريد العـــدل.. نريـــد السلام.. نريد الطعام.. نريد الحياة.. نريد الأمل.. نريـــد العـــدل.. نريد العدل.. نريد العدل.. نريد العـــدل.. نريـــد شـــعباً واحـــداً لا شعبين.. لا حاكم ولا محكوم.. المســـاواة والعـــدل.. لا ســـادة ولا عبيد.. نريد العدل.. الحساب.. الحساب.. الحســـاب.. الحســـاب.. الحساب.. الحساب.

الحشود تزداد كثافة.. يتدفق الناس نحو قلب العاصمـــة.. كـــل الميادين غطاها زحف البشر.. تحولوا إلى العمـــارات والشـــرفات والأسطح والأشجار وأعمدة الكهرباء ولافتات الإعلانـــات وفـــوق السيارات والأسوار.. من الزجاجيين من تعلق بأســـلاك الكـــهرباء والتليفونات.

كان اليوم هو بداية الدورة البرلمانية الجديدة.. اجتمـــاع كبـــير يضم أعضاء مجلسي الشعب والشورى.. الرئيس في القاعـــة منـــذ الفجر ومعه كبار الشخصيات والقيادات.. يتبادلون الحوار قبـــل أن يلقي الزعيم كلمته، وقبل أن يسبقه الســـادة المحـــترمون بكلمـــات الترحيب الفائقة المتألقة التي تزدري كل شيء إلا ما تنعم به مصـــر من خير وحرية ورخاء وهناء ومودة وتراحم وفرص وديمقراطيـــة

وعمل رائع في كل الميادين تحاول الدول الكبرى أن تحذو حــذوه، وأن تأخذ منه ولو جذوة.. الكلمات تذكر لأصحاب الفضل عطــاءهم الذي لا ينقطع خاصة رجال المال والأعمال الذين يمــلأون البــلاد بالمشروعات العظيمة مثل تعبئة المياه فــي زجاجــات وصناعــة البسكويت والحلوى واستيراد أصابع الروج ورخام فيلات المسعدين وأحدث الأجهزة لأقسام البوليس وتوفير اللحوم الفاســدة لمحــدودي الدخل.. كل فئات الشعب تلتحم بقادتها في منظومة إنسانية رفيعة..

الشعب يتجمع ويحتشد بصورة لم تحدث في التاريخ منذ هبــوط الإنسان إلى الأرض.. والحكومة داخل القاعة تفكر في الشعب وفي كيفية تحقيق أهدافه وكلهم ينكرون ذواتهم تماماً.

اليوم قرروا أن يأتوا بالسيارات الفاخرة.. وتجمعوا كلــهم فــي القصر الجمهوري وحملتهم طائرتان هبطتا في ساحة مجلس الشعب أمام القاعة.. أدى هذا إلى أن تتم مراسيم التحية اللائقة بالقائد فــي القصر، ولم تكن ثمة فرصة لقافلة الرئيس المقدسة تسبقها الدراجات النارية وزمجرتها المهددة. ركب ومرافقوه طائرتين حمتهما ســبع طائرات، وفي الوقت نفسه كانت تلقي على الجماهير كميات كبــيرة من صوره مع البندق واللوز واللبان وتحيات المسئولين والــترحيب الحار بالشعب صاحب المصلحة الحقيقية في كل ما يتم على أرضــه من عمران وتنمية وما يتمتع به من ازدهار واستقرار لا يوجـــدان في أي منطقة أخرى من العالم.

في ورقة صغيرة طبعت هذه العبارات.. وفي نهايتـــها هــامش صغير بالأحمر (تلفتوا حولكم وانظـــروا إلــى البــلاد المجــاورة وأحوالها.. ستدركون حقاً مقدار ما أنتم فيه مــن ســعادة.. تــابعوا برامج التليفزيون لتشهدوا التغيير والانطلاق).

في نحو التاسعة صباحاً وقبل خروج الرئيس للشرفة الرئاســية التي تستطيع الجماهير عبرها مشــاهدته وتحيتــه.. دخــل وزيــر الداخلية ومعه نحو عشرين ضابطاً برتب مختلفة، أقلها عميد.. أبلــغ الجميع بأن هناك عناصر مندسة وسط الجمـــاهير.. انتــهت إلينــا

الأخبار أنها عازمة على إحداث تفجيرات عـن طريـق تليفونـات المحمول ومن ثم اغتيال عدد كبير من الشخصيات.. لذلـك نـأمل تسليم كل الموبايلات حرصاً على حياتكم.. هاج الأعضاء وماجوا.. قال الوزير: أنتم أحرار وأنا عبد المأمور.

ثار كمال الشاذلي وسأل عن السر في أن رجال الشـرطة لـم ينتبهوا لهؤلاء المندسين في الوقت المناسب.. قال د.سـرور: هـذا ليس وقت الحساب أو المناقشة، أيده صفوت الشريف وهز رأسـه د.يوسف والي.. عاد كمال الشاذلي يحتج بأن التجربة الديمقراطيـة معرضة لطلقات الرصاص وهجمات الغوغاء. ومع ذلك فلا بـأس من تسليم الموبايلات.

تعالت بعض الأصوات: حياتكم أهم من المحمول، ومـن حـق وزير الداخلية تأمين النخبة الحاكمة.. تعـالت أيضـاً الأصـوات المضادة.. تزايدت الأصوات المرتعدة بعـد أن تصـورت شـكل المجزرة داخل القاعة التي تضم نحو ثمانمائة شـخصية.. الأمـر الذي يستحيل تصوره.. تراجعت الأصوات المتشبثة بالمحمول حتى خفتت.. وعد الوزير بالحفاظ عليها وأن كل جهاز سـيوضع عليـه فوراً اسم صاحبه.. الأسماء مطبوعة وجـاهزة.. شـرع الضبـاط يجمعون الموبايلات في أكياس قماش كبيرة.. توالى وصول جنـود الشرطة لحمل الأكياس وإيداعها في الخارج داخل عربـة لـوري مصفحة، سرعان ما غادرت المكان إلى جهة غير معلومة.

سادت الجميع حالة من التوجس.. قال أحد الأعضاء لجاره:

ـ أشعر كأني عريان.

ـ عريان لكنك حي.

ـ قيل إن الجماعات انتهت.

ـ لا ينتهي شيء أبداً.. كل من يموت يخلف غيره.

ـ تتكلم باطمئنان.

ـ الجيش والداخلية تحيط بالمكان جيـداً.. كـل شـيء تحـت السيطرة.

ـــ بعض أعضاء الجماعات مدربون.

ـــ مهما كانوا مدربين.. فهم أقلية.

لحظات محمومة من الصمت. وقف فجأة كمال الشاذلي وتلفــت حواليه ثم قال: كل سنة وأنت طيب يا ريس.. ثم صفق بقوة وكســر حاجز القلق.. تبعه الجميع يصفقون بحرارة.. ابتسم الرئيس وهـــز رأسه ثم رفع كفه وحركها يميناً ويساراً تحية للنخبة السياسية التـــي تتمتع بالصدق والإخلاص.

شرع رئيس المجلس في افتتاح الجلسة وألقى البعـــض كلمـــات قصيرة عن اليوم التاريخي الذي لم تشهده البلاد على مـــدى ســـبعة آلاف سنة، وهاهي الجموع تلتف حول القيادة في منظومة رائعـــة تضم الشعب وقائده، الذي ليس قـــائداً للأحيـــاء فقـــط، بـــل لكـــل المصريين الذين جاءوا من كل مكان وكل زمان.تصفيق حاد استمر عشر دقائق حتى نهض الرئيس ليلقي كلمته.

كانت الجماهير في الخارج تهتف مطالبة بفض الجلسة واستماع الرئيس لرأيها.

نقل وزير الداخلية رغبة الشعب إلى الرئيس.. قـــرر الرئيـــس المفدى النزول على رغبة الشعب وتأجيل كلمته ولقاء المحتشـــدين وتحيتهم.. نبهه وزير الداخلية أن الوضع غير آمن.. قال الرئيـــس: لا شيء يمكن أن يحول بيني وبين الناس.. هذا شعبي.

كرر بثقة: هذا شعبي.

قبل أن يتحرك الرجل بهدوء وقلب مفتوح نحو الشرفة.. هجـــم عليه مجموعة من الضباط يقبلون يديه ويرجونه ألا يخرج فـــهناك مسلحون كثيرون، وهناك أسلحة ثقيلة وحديثة وقناصـــة.. هـــؤلاء مجموعة من الخارجين المـــارقين الذيـــن لا يرعـــون حرمـــة ولا يحفظون عهداً ولا يقدرون جهداً ولا يعيشون في سلام.. وراءهـــم مفكرون ومدبرون وأمراء ومخططون.. ليس من أجل عاطفة آنيـــة نبدد دولة ونهدد نظاماً بنته جهودكم على مدى ربع قرن.

كلما أصر الرئيس على ألا يمنعوه، ألحوا في الرجـــاء، وجــاء بعدهم آخرون يحذرون، فقد رأوا انتشاراً كبيراً لهذه العناصر، لكــن الرئيس يرفض ويهدهد ويطمئن.. لذلك اضطـــر وزيـــر الداخليـــة للتوجه بالحديث إلى النواب والوزراء محـــدداً الوضـــع الخطـــير.. راجياً تأجيل اللقاء ليوم آخر وليكن السبب وعكـــــة بســـيطة أو أي سبب يمكن الاتفاق عليه.

— أضع الأمور أمامكم وأنتم أحرار وأنا عبـــد المـــأمور.. أنـــا بصوت عالٍ أحذر.. جميعنا في خطر.. يصعب تأمين أحد وســـــط هذه الجماهيرّ المحتشدة.. إنها كما رأيتم عبر التليفزيون محيطـــــات من البشر على حد قول وكالات الأنباء، ولا تنسوا أن الجماعات لن تنتظر طويلاً خاصة بعد علمها بأننا أفشـــلنا المحاولـــة الأساســـية بتفجير أجهزة المحمول.

تكثفت الحرارات حتى انتهى الرأي إلى تأجيل الاجتماع والعـودة إلى الطائرات التي نقلت الجميع بأمان تام إلى جهة غير معلومة.

عندئذ خرج وزير الداخلية إلى الجماهير وقال بثقة شديدة رغـــم ارتعاشة يده:

— إن ما يحدث اليوم عمل رائـــع بكـــل المقـــاييس.. تصـــرف أسطوري من شعب يقدر المسئولية.. تجمع بكل فئاته وخرج عـــن بكرة أبيه من القرى والنجوع.. من الوديان والجحور.. من الفيـلات والقبور.. من الصحاري والحقول.. من المنازل والقصـــور للقـــاء الزعيم وتحيته.. لقد تأثر جداً بحفاوتكم، لكن وعكة بسيطة منعتـــه من مشاركتكم والتعبير عن رضاه بكم.

زام الناس ودمدموا.. قال بعضهم:

— نريد الحياة.

زعقت الأنهار البشرية التي لا حدود لها:

— نريد الحياة.. وداعاً للماضي.. وداعاً للظلم.. نريد للمصريين الحياة. قال اللواء الوزير:

ــ الحياة لم تشهد يوماً كهذا.. ستصرف لكــم اليــوم بطــاقات ولفات الأطعمة والحلوى وسيصرف لكل واحد جهاز محمول يعمل حتى داخل القبر.. وبعض الهدايا.. والمفاجأة الحقيقية شقة لكل مــن يعيش في العراء، ولساكني القبور مراوح.. الحياة ســتتغير تمامــا وكل ما تطلبون ستتم تلبيته فورا، وقبل ذلك كله.. علينا أن نحيــي مصر.. عاشت مصر حرة.

اندفع الجميع يقولون: عاشت مصر حرة.

ثم قال: عاش الرئيس حسني مبارك.

بكل حماس اندفعت الجماهير تهتف بحياة الرئيس.

قال الوزير: كرروا الهتاف سبع مرات، حتى تحل بكم البركة.

هتفوا.. وهتفوا.

انطلق بعض الضباط إلى الإذاعة والتليفزيون لإلقاء بيانات عــن الاستقرار وأهمية الحفاظ على الأمن وعن الأوضاع الجديدة، وعــن استعداد الدولة للضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفســه أن يهدد سلامتها.. وعلى الجميع عدم التــأثر بالإشــاعات المغرضــة والوقوف إلى جانب العهد الجديد الذي يبدأ من الآن.

سأل الناس بعضهم عن الهدايا والشقق والمراوح، فقيل لهم بعــد إعداد الكشوف.. فتحوا جميعاً أفواههم وقالوا في ذعر:

ــ الكشوف!

ــ نعم..

ــ لكننا كثيرون.

أجابهم الوزير قبل أن يدخل:

ــ بالعكس.. كان مفروض عددكم يكون مائتين وسبعين مليونــاً، هذا عدد تقريبي لمن عانوا من الشعب على مدى ألف عام، منـــهم خمسون مليون أحياء.. والموجود منكم الآن ثلاثون فقـــط.. ســـاد الهمس..

ساد وعلا حتى تحول إلى طنين ومصمصة وهمهمة.. تدريجيــاً شرعت المساحة بين كل فرد وجاره تتسع، وينفرط العقــد الــهائل

والمكدس بالحبات المستنفرة.. همس كثير وحوار ودهشة وابتسام ثم ضحك وقهقهة.. تراجعت كتل الزحام وأصبح بالإمكان أن يمر شخص بين شخصين.. لدرجة أن رءوف التقى ندى التي تطلعت إليه وتطلع إليها دون أن ينصت تماماً لسيل النكات التي كان يلقيها الظرفاء من حضور المؤتمر الحاشد. كانت كل النكات طازجة تماماً ومن وحي اللقاء العجيب الذي تحول هو ذاته إلى سبب للمسرة وبعض التعويض لأرواح تعهدتها التعاسة.

قال: كيف يحدث هذا؟

قالت: تجمع رهيب!

نكش شعره الأشعث: أقصد كيف نلتقي بين الملايين؟

ابتسمت بفتور: لابد أنه القدر.

هز رأسه كأنه ينفضها حتى تسقط الأفكار.. قال:

ــ ولماذا لا يكون كل هذا من تخطيطك؟

ضحكت ثم سكتت فجأة.. تحولت إلى الناس الذين كانوا يقلون بسرعة.. قالت له والشجن يغلف صوتها:

ــ ماذا فعلت بالرسالة؟

مط شفتيه: لا شيء!

قالت: سأساعدك.. لن أتركك تهملها وتهملني.

أضاءت عيناه: أحقاً يا ندى؟

ــ حقاً يا رءوف..

عانقها وحملها عالياً فوق كل الرءوس، ثم أنزلها وهي تنطوي خجلى.

قال: سأعيش في بيت أبي.

قالت بحماس: لو كنت تحت الأرض.

عاد يعانقها طويلاً.. طويلاً.. حتى اكتشفا أن الميدان الفسيح ليس به أحد غيرهما.. والسماء تطل عليهما وتبتسم. لكنهما تنبها إلى أن ثمة دمدمة تأتي من بعيد.. أصوات مكتومة تدق الأرض.. جرها من يدها وأسرعا يصعدان برج القاهرة.. لمح في نهاية الأفق

هياكل ضخمة مثل سفن كبيرة الحجم.. بعد التدقيق أدرك أنها أحذية سوداء هائلة.. يحيط كل منها سوار معدني لامع تنعكس عليه أشعة الشمس فيردها برقاً يخطف البصر ويسافر في الفضاء في سرعة عجيبة.. الأحذية الضخمة تتراءى صورتها كلما مر الوقت، قافلة لا نهائية من هذه الكائنات ذات العنق الطويل والكعوب الحديدية يتصاعد منها دخان أبيض خفيف على شكل ألسنة تتلوى وتمضي في كل الاتجاهات.

أحس رعوف فجأة بالخور والاختناق دون أن يدري السبب.. شرد لحظات.. ربتت عليه يد ندى وعانقته.. أفاق مما كان حائراً فيه.. قالت له:

ــ هيا بنا.

عاد إلى شروده:

ــ إلى أين؟

ــ إلى بيتنا.

تنهد مستشعراً حالة متأرجحة بين اليأس والأمل، لكنه كان قد عزم على ألا يترك الفرصة كاملة للبأس.. سوف يحاربه ويكافح أسبابه بكل ما يملك، على ثقة أن ندى أصبحت إنسانة أخرى، وتدرك إلى حد كبير ما يتعين عليها عمله.. غير مستبعد أن تكون له.. قبلة الحياة.

الهرم.
ديسمبر ٢٠٠٣.